مفاهيم إسلامية



محمد جلال كشك

مكتبة عمار
للطباعة . والنشر . والتوزيع
١٣ شارع الجمهورية - القاهرة

إلى الذين لا يطيقون قول الحق المر . .

ولا حتى يطيقون سماعه . .

خطبة الكتاب

هذه بعض قراءات فى سفر تراثنا الإسلامى . . لا نريد بها أن نجتر ماضينا ، ولا أن ننتشى بخمر الأسلاف . . بل أن نفتح عيوننا على هول ما يدبر لنا ونتلمس الطريق الوحيد الذى يمكن من خلاله أن نلهب حماسة الجماهير ونطلق طاقات الأمة العربية ، ونجمع حولها إرادة العالم الإسلامى لنحرر أرضنا المحتلة ، ومسجدنا الأسير ، وتاريخنا الذى دنسته الصهيونية ، ونستنقذ شرفنا الذى يوشك أن يجلل بعار لا يمحى أبد الدهر . .

والحق أن الحضارة الإسلامية ، بشموخها وجلالها ، قادرة على أن تنسى مرارة الزمان ، وانهيار المكان . . وكم تخدرت أجيال من أمتنا باستغراقها فى تلاوة التراث . . وكم استهانت أجيال من أمتنا

بخطر ما يدبر لها من أعداء العروبة والإسلام ، لأن نور مجدها قد بهر أعينها ، فعجزت عن أن ترى ما يتحرك فى الظلام . .

غير أن تراثنا يعلمنا ألا نستهين بدأب الجرذان أو دابة الأرض . . فالأولى ظلت تأكل فى سد مأرب حتى طاح به السيل ، وتبددت حضارة سبأ . . وذوت الجنتان . . والثانية أكلت منسأة سليمان فسقط وانطلق الجن فرحين . .

ومهما يكن شموخ تراثنا وعظمة اسلافنا . . فلاشك أن قرونا من الظلام قد سادت الوطن الإسلامى . . وأن قرون التخلف قد فرضت آثارها على كل شيء . . وعلى الإنسان المسلم أولا وقبل كل شيء . . .

ولاشك أن قوى العداء الأبدى للمسلمين . . وهى الحضارة الغربية الصليبية [1] ، ثم وريثتها الشرسة ، الصهيونية .. لاشك أنهما قد أجادا استغلال فترة الظلام هذه ، فتسللوا .. وضربوا .. ولاشك أنهم حركوا عوامل التخلف لصالحهم ، وفى الاتجاه الذى يخدم هدفهم ، وهو القضاء على الإسلام ، وإذلال المسلمين ، والتصرف فى أقدارهم ، وانتزاع أرضهم ، وما وهبهم الله من ثروات ..

ولاشك أن المسلمين قادرون ، على أن يواجهوا الخطر المحيق

---

(١) الحضارة الغربية الصليبية هى الحضارة الاوروبية — الامريكية بصرف النظر عن انقسامها إلىدول أو نظم أو كنائس مختلفة

بهم .. قادرون على تحرير إرادتهم ، واستخلاص أرضهم ، وإنزال الهزيمة بعدوهم ، وبعث حضارتهم من جديد . .

يستطيعون ذلك لو أدركوا حقيقة الخطر الذى يواجههم ، حقيقة الدوافع التى تحرك الحقد الاستعمارى للحضارة البيضاء ضدنا . . كيف كان لشعار : « قاتلوا المسلمين » فعل السحر فى أوروبا وأمريكا فى صيف ١٩٦٧ أى فى النصف الثانى من القرن العشرين . . حتى هبت الجماهير فى فرنسا تتبرع خلال أربعة أيام بمليار فرنك . . وهو مالم يجمع لشعب فيتنام فى أربع سنوات ! . . تبرعوا بها لاسرائيل من أجل قتل المسلمين ! وهكذا كانت الصحف تنشر فى صدر صفحاتها الأولى ، وهكذا كانت اللافتات تقول فى المظاهرات ! وهكذا كان يكتب على صناديق التبرعات . .

« قاتلوا المسلمين [١] » !

فتحرك الحقد الصليبى الموروث . .

وما من عاقل يظن أن الدافع هو حب اليهود . . أو الخوف على اليهود من تصريحات الشقيرى . ! فالانسان الأوروبى لا يكره

---

(١) لم يجد الفيلسوف الوجودى سارتر مايعتذر به عن رفع هذا الشعار فى فرنسا ، وسيره هو شخصيا فى مظاهرات ترفع هذا الشعار الصليبى .. لم يجد ما يعتذر به إلا أنه خطأ فقد عرف بعد ذلك بوجود مسيحيين عرب ! . . ربما يصحح فى المرة القادمة : قاتلوا المسلمين والمسيحيين العرب !
(راجع حديثه فى الاهرام ٦٧/٧/٣) وانظر كتابنا « أخطر من النكسة »

بعد المسلمين إلا اليهود .. والحس الغربى المتبلد الذى لم تحركة مذابح الاستعمارية والطغيان الوحشى طوال هذه السنين .. ما باله ينفعل على هذا النحو لمجرد منع سفن اسرائيل من المرور فى خليج العقبة ؟!

لقد آن أن نعرف أن أوروبا وأمريكا تعادينا لأننا :

- مسلمون
- عرب
- لاننا التحدى الحضارى لهم
- لان قيمنا أعلى وأسمى
- لان أرضنا أغنى وأخصب وأقدر على بناء حضارة أكثر ازدهاراً ..
- لأنهم يسرقون ثرواتنا ، ويستغلون خيراتنا . .
- لأن حضارتهم قامت على استغلال ونهب آسيا وافريقيا حيث يعيش المسلمون ، وحيث كانت حضارة المسلمين .

هذا هو العداء الأصلى ، وفى إطاره يجب أن نعمل ، فلا تطوح بنا أوهام اقناعهم أو كسبهم .. فهم لا يحبون اليهود ، ولكن يتمنون أن يقتل اليهود لهم العرب .. ويذلوا المسلمين .. وهم لن يسمحوا أبداً بقيام دولة عربية أو إسلامية قوية فى مستوى العصر .. لا بد أن ينتزع ذلك من براثنهم انتزاعاً بالدم والحديد والنار .. فهذا هو قانون

التاريخ الأبدى . . ما من قوى كبرى تسمح راضية بقيام قوة كبرى جديدة .

لنستغل تناقضاتهم كما نشاء ، وكلما أمكن ، على أن يكون واضحاً أنه مامن قوة كبرى يرضيها أن يكبر ويقوى الآخرون ..

إذا ما عرفنا طبيعة العداء الذى نواجهه ونوعية التحدى الذى يفرض علينا فسنعرف طريق الخلاص .. إنه البحث عن جذورنا .. والامتداد العميق بهذه الجذور فى أرضنا .. لأنها وحدها هى التى تستطيع أن تورق .. وأن تصمد للأعاصير التى تريد أن تقتلعنا وتطوح بنا ..

وقد تنبه حس الجماهير بعد الخامس من يونيو .. فانفجرت طاقات من الشوق إلى الإسلام ، بعيدة كل البعد عن أن تكون غيبوبة صوفية ، كتلك التى كانت تنتشر فى الوطن الإسلامى فى أعقاب الهزائم والانهيارات .. بالعكس ، فرغم كل مبررات اليأس القاتل .. إلا أنه من الممكن أن نتلمس فى هذا الحنين إلى الإسلام والشوق إليه ؛ ملامح إرادة بعث ، وتصميم على النصر ، وإدراك للدور الذى يمكن أن تقوم به العقيدة فى مواجهة الخطر الصهيونى .. ويقين أنها ليست عقيدتنا التى هزمت .. بل نحن الذين تخلينا عنها ..

لكن .. هذا الشوق يمكن أن يضلل .. وهذه الإرادة يمكن أن يزيف طريقها ، لا بمجرد الشعارات الجديدة التى بدأت تصدر عن

جيف النظريات والحركات العقائدية ، ونفايات المذاهب التى قذف بها المحيط الصليبي عند شواطئنا .. هذه الشعارات التى تدور حول ضرورة التخلص من الدين لنصبح مجتمعاً علمانياً . . وإن لم يكلفوا أنفسهم عناء اخبارنا بما هى مظاهر التمسك بالدين التى عاقت زحفهم !

إن هذه الشعارات لا تهدف فى الحقيقة إلى ابعاد الدين عن السياسة ، كما يدعون ، فهو مبعد ، والحمد لله ، منذ سنوات اكبر من عمرهم ، وعمر من غرروابهم !

الهدف الحقيق ، هو سد الطريق على أية محاولة لتلمس الحل الحقيق . .

إلا أن هذه المحاولات لا تعمل وحدها ، بل لا يقل عنها خطورة محاولات إشباع شوق الجماهير ، بتقديم قشور التدين الشكلى .. بل التنطع وليس التدين . . إخفاء جوهر الدين ، إخفاء طبيعته الحية المتطورة ، وتحويله إلى أوراد وأذكار ودروشة .

لذلك وجدتنى فى هذه الفترة ، أحاول أن أعود لقراءة التراث .. بحثاً عن فهم جديد .. ينير الطريق .. فكانت هذه القراءات .. نشرت بعضها فلقيت استجابة واسعة فأحببت أن أجمعها وأضيف إليها وأقدمها للقارىء المسلم لعلنا معاً نبدأ بفهم جديد وإيمان جديد .. وعمل جديد..

وقد سميتها باسم : « الحق المر » وهو عنوان الفصل الذى خصصته لأبى ذر رضى الله عنه ، مقتبساً من جملة طالما كان يكررها كلما واجه

الناس بالحق فضاقوا به ، وضاقوا بالحق .. فكان يعتذر قائلا : « لقد عاهدنى خليلى أن أقول الحق مهما يكن مرآ .. »

فإن كان بعضنا لا يطيقون قول الحق ، فلعلهم لا يغضبهم أن يقوله غيرهم .. ولا يبلغ بهم العجز حد الحقدعلى قائليه .. هم الذين عناهم الله سبحانه وتعالى بقوله :

« يحسبون كل صيحة عليهم .. هم العدو فأحذرهم »

فشر الناس هم أولئك الذين لا يقدرون على قول الحق ولا يطيقون سماعه .. ولهم أهديت هذا الحديث حتى نبلغ منهم وفيهم ما يرضى الله .

جلال كشك

٢٢ ربيع الثانى ١٣٨٨
١٧ تموز ١٩٦٨
٣ ب بهجت على الزمالك

مدخل

نحن نؤمن أن التاريخ الإسلامى صنعه المسلمون ، بإرادة الله تعالى فى كل جزئية من تفاصيله .

غير اننا لا نلزم أحدا بإيماننا هذا ، ولا نفرضه كقضية يشترط التسليم بها قبل النقاش . . بل من حق من يشاء أن يستخدم أى منطق يثبت أنه على فى مناقشة هذا التاريخ والحكم عليه .

ونؤمن أن الله قد اراد لرسوله محمد عليه الصلاة والسلام أن ينقل آخر كلمات السماء للأرض . . فأعلنه « خاتم النبيين » واعلن بعد فتح مكة أنه قد أتم نعمته واكمل الدين واختار لنا الإسلام دينا (١) .

---

(١) لو لم تكن للاسلام من معجزة الا هذا التبليغ الذى لا يصدر بهذا اليقين الا ممن بيده الأمر .. خالق الكون .. ثم تتأكد مشيئته ، فلا يظهر نبى آخر ، ولا حتى دعى ناجح .. لو لم يكن لديننا الا صدق هذه الآية عبر أربعة عشر قرنا .. ثم توفر الادلة على انها ستصدق إلى أن يرث الله ، الارض ، ومن عليها ..

أقول لو لم يكن فى ديننا الا هذه المعجزة لكانت الحجة التى لا تعلوها حجة ..

ولأن إرادة الله قد شاءت أن يكون محمد هو خاتم النبيين، وأن يكون الإسلام هو آخر كلمات السماء للأرض .. فإن حكمته تعالى اقتضت أن تكون هذه الرسالة صالحة لكل زمان ومكان.

إذ لو كانت الرسالة محدودة بزمن معين، أو موجهة لبلد بعينه، أو جيل أو جنس، أو جماعة من الناس .. لكان دورها ينتهى بانتهاء من وجهت إليهم، بانقضاء هذا الزمن المحدد، أو بزوال هذه الأمة المعينة .. أو بانتقال الإنسان عبر المكان بما شاء له الله أن يخترق حواجز المكان، وأبعاده، لينتقل إلى بيئة غير بيئته وظروف غير الظروف التى نزلت لها الرسالة وبها ..

فالإيمان بأن الإسلام هو خاتم الاديان . مرتبط بالإيمان بصلاحيته لكل زمان ومكان .. لأن القول بغير ذلك يعنى أن صلة السماء بالأرض تنقطع فى مرحلة من عمر الإنسان على هذه الأرض ..

أى أن الناس يستقبلون زمنا يعفون فيه من محاسبة السماء، ويضطرون إلى إقامة مجتمعهم بغير هدى السماء وبغير التزام أمامها .. قد أعفتهم السماء من ذلك بانهاء رسالتها ..

ولكن إرادة الله اقتضت أن تستمر السماء فى هداية الإنسان، كما اقتضت أن تكون رسالة محمد هى آخر التوجيهات وآخر كلمات السماء فى شئون الأرض[1] ..

---

(١) الا ماشاء الله بغير الرسل والانبياء

وهذا لا يتأتى — كما قلنا — إلا بأن تتضمن هذه الرسالة من عناصر الخلود ما يجعلها صالحة لكل زمان ومكان . . أى لكل الأجيال وكل القرون وفى كل بقعة من أرجاء هذا الكون يصل إليها الإنسان . .

وإذا كان علماء الطبيعة والفلك يعرفون الكون بأنه محدود ولا نهائى . . فلا بد أن تكون الرسالة التى جاءت لتنظيم هذا الكون « محدودة ولا نهائية » .

تستطيع أن تؤمن بهذه القضية انطلاقا من إيمانك بأن الإسلام هو خاتم الأديان . . وتستطيع أن تؤمن بها من خلال دراسة الإسلام كمنهاج لاطلاق طاقات الإنسان وتحقيق انسانيته فى هذا الكون . .

فالرسالة المحمدية نزلت خلال زمن محدود ؛ ٢٣ سنة .. وفى مكان محدود . . أرض العرب .. وبين جيل محدود هو الجيل الاول الذى عاش سنوات البعثة .

وقواعد الإسلام ، قد حفظها كتاب الله ، وتعهد ، خير من وفى ، أنه سيحفظه من التبديل والتحريف . . وصدق وعده ، فحفظ كتابه ، فى عهود ما كان أصعب حفظ كتاب — أى كتاب — فيها !

ورغم كل ما انتاب العالم الإسلامى من أخطار وهزائم واغارات . سلم كتاب الله فلم تمتد له يد بتشوية أو تحريف ، واختلف المسلمون فى كل شىء ولم يختلفوا فى حرف من كتاب الله . .

ومن حقائق هذا الكون — التى لا تحتمل الجدل — هى أنه قد نظم وفقا لقوانين نستطيع أن نكتشفها ونوجهها ولكننا لا نملك إلا الخضوع لها كبداية للسيطرة عليها . .

وان الأديان ساعدت الانسان على اكتشاف هذه القوانين والسيطرة عليها ، سواء آمنا انها جاءت من السماء أم من عبقرية مصلحين إجتماعيين . .

والاسلام — كما نرى — هو أفضل النظرات التى تفسر هذا الكون ، وتهدى إلى بذل الخير .

وفى تفسيرنا الدينى أن الله الذى وضع قوانين الكون ، شاء لها أن تعمل ، وشاء لنا أن نتعلم كيف نسيطر عليها ، وكيف نبنى حياتنا فى اطارها ، متخطين حتميتها بالخضوع لضرورتها . .

فالناس يصنعون حياتهم من خلال علاقة تفاعل ، متغيرة باستمرار ، بين ما ترسمه أفكارهم ومبادئهم من مثل ، وما تتيح لهم إمكانيات عصرهم من وسائل مادية لبناء الحياة وفقا لهذه القيم .. أى بين أحلامهم ، وقدرتهم على الاقتراب من هذه الأحلام وتجسيدها فى تشريعات وعلاقات إجتماعيه وسياسية واقتصادية وأخلاقية .

ومن هنا فإن الرسالات والنظريات والفلسفات ، يمكن الحكم عليها من ناحية قدرتها على تذليل الكون للانسان ..

فالنظريات التي تدعو لارتقاء الإنسان يفترض فيها أن تتضمن :

● مثلا تدفع الانسان إلى رفض الواقع ، ساعيا إلى وضع أفضل فى علاقاته مع نفسه ، ومع الكون ..

لأن القيم والمبادىء التى تبارك الواقع وترضى به ، قد تحدث للانسان سعادة مورفونية ، ولكنها لا تدفع الانسان إلى الارتقاء ..

● قيم واقعية ، تبدأ من إنسان المكان والزمان المعينين لتصنع فيه ، وبه ، التغيير .. فإن عجزت عن احداث هذا التغيير ، كانت مجرد خيالات وأفكار عن جنة فى عالم آخر ، ولكائن آخر غير هذا الانسان ..

ان القيم والمثل والفضائل التى لاتجد ناسا يطيقونها ولا مجتمعات تمارسها ، هى كقدرات آلهة اليونان والجن الخرافية ، لاسبيل إليها ، ولا يعيب الانسان أن يتغاضى عن إمكانية إدراكها .. بل يبدد وقته ، ويفسد حياته ، من يحاول الوصول إليها ..

● مدى صلاحيتها لتخطى حدود الزمان الذى عبرت عنه ، وحدود المكان الذى ظهرت فيه وحملت بصماته فى تكوينها وصياغتها .. فذلك ما يحدد امتداد الدعوه وشمولها وعالميتها ..

والاسلام — كما قلنا — يفترض فينا أن نؤمن بصلاحيته لكل زمان ومكان ..

وقلنا أن القرآن قد ضبطت آياته وحروفه ، وأنه من غير المعقول

أن نفترض اننا سنجد فيه قوانين الجاذبية لينوتن،أو النسبية لانشتين .. أو الانتخابات بالقائمة . . والنظام الرئاسى . . ونظم إدارة القطاع العام !

ومهما بلغ جهد البعض فى استخراج التفاسير ، فستبقى هناك قضايا تفصيلية لم ينص القرآن عليها .

ولولا ذلك ما وضع فقهاء المسلمين ، القياس والاستحسان والإجماع . . واكتفوا بعلم واحد هو التفسير . .

بل اكتشف فقهاء المسلمين هذه البديهية العسيرة على إدراك الكثيرين . . الا وهى : محدودية النصوص ، ولا نهائية المشاكل التى تثيرها الحياة[1] .

بل ان معجزة ديننا أن القرآن الملزم لنا حرفيا ، ليس فيه هذا الاغراق فى التفاصيل الذى تتسم به بعض الكتب المقدسة ، ومن ثم فإنه مامن مسلم قد وجد نفسه فى حرج أمام نص من نصوص القرآن فى أى عصر من العصور . .

فرغم نسبية المعرفة وتطورها باستمرار فيما يتعلق بنظرة الانسان إلى الكون وقوانين المادة وحركتها إلى حد تعارض النظريات مع بعضها ، تعارضا تاما ، فما من نص فى القرآن تستطيع أن تقول أنه

---

١ — الشهرستانى ـ الملل والنحل .

يشل إنطلاق أى علم من العلوم ، أو يجعل المسلم يغمغم كما فعل جاليلو : « ورغم ذلك فإنها تدور » أو يشعر بذلك الحرج الذى عاناه الرجل الطيب الذى زار فلسطين فى العصور الوسطى لأوروبا ، وعاد إلى روما يقول هامسا أن انهارها لا تفيض لبنا وعسلا !

بل كان « عمر » يشير إلى هذا المعنى كلما حدثه : « كعب » اليهودى الأصل ، عن إشارات وردت فى التوراة عن سلوك عمر ، فيتساءل عمر دهشا مستنكرا : « أتجد عمر فى التوزاه » ؟ !

ولقد حرر الاسلام المسلمين من تراث التفصيليات الواردة فى الكتب السابقة عليه بأن أعلن أنها حرفت وشوهت وبدلت ، ومادام لم ترد نصوص كافية تحدد مواقع التحريف على وجه الحصر فإن من حقنا أن نرفض كل خبر فيها لايتفق وديننا . . وعقلنا . .

فالقرآن هو وحده النص الذى لا يحتمل خلافا . . ثم تأتى السنة وهى سلوك الرسول وإجاباته على قضايا مجتمعه وعصره . .

وقد شاءت إرادة الله الا تدون السنه كما دون القرآن ، بل صده المسلمون عن ذلك صدا . . وكان من الممكن أن تضبط سنة الرسول وتقيد فى كتاب كما حدث فى القرآن واذن لأصبح لدينا القرآن . . وضبط دقيق لسلوك الرسول وأقواله فى مدة حياته ، ولأصبح الكتابان ملزمين ، غير قابلين للنقاش أو الجدل . . وهو ماتنبه له العبقرى الملهم ، عمر بن الخطاب ، عندما سمع أنهم كتبوا الحديث ، ففى رواية عبد الله

ابن العلاء أنه سأل القاسم بن محمد بن أبى بكر الصديق ، أن يملى عليه حديثا ، فقال ان الأحاديث كثرت على عهد عمر بن الخطاب ، فأنشـــد الناس (أى طالبهم) أن يأتوه بها ، فلما أتوه بها أمر بتحريقها ثم قال : « مثناة كمثناة أهل الكتاب [1] » قال فمنعنى القاسم يومئذ أن أكتب حديثا . . . »

ثم كانت الخلافات وفساد الرعية ، ودس المخربين والمتآمرين من أعداء الاسلام والعاملين فى التنظيم الصهيونى . . فزورت على رسول الله الأحاديث . .

وهو أمر كان معروفا ومتوقعا . . حتى قبل أن يتوفى رسول الله ، وكأنه كان مدبرا تدبيرا لحكمة نحاول فى هذه الدراسة أن نتفهمها . .

فرسول الله ينذر : « من كذب على متعمدا فليتبوأ مقعده من النار »

وقال الزبير بن العوام : « والله ما قال متعمدا ، وانتم تقولون متعمدا » .

وكان كبار الصحابة يمتنعون عن الحديث عن رسول الله ، ويتحرجون من ذلك اشد التحرج ، فعن السائب بن زيد ، انه صحب سعد بن أبى وقاص من المدينة إلى مكة ، قال فما سمعته يحدث عن النبى حديثا حتى رجع . . !

---

١ — أى التوراة والتلمود .

وسئل سعد بن أبي وقاص ، عن شيء ، فأستعجم فقال : « إنى أخاف أن احدثكم واحدا فتزيدوا عليه المائة » .

وعن عمر بن ميمون : اختلفت إلى عبد الله بن مسعود سنة ما سمعته يحدث فيها عن رسول الله ، ولا يقول : قال رسول الله ، إلا أنه حدث ذات يوم بحديث فجرى على لسانه : قال رسول الله ، فعلاه الكرب حتى رأيت العرق ينحدر عن جبهته ثم قال إن شاء الله ، اما فوق ذاك ، اما قريب من ذاك ، واما دون ذاك . . . !

بل يعرف رسول الله بوحى النبوة أن الحديث الصحيح ، اى السنة الصحيحة ستختلط بالمدسوس ، فيضع لنا ، منهاجا علميا ، إنسانيا ، رائعاً ، أساسه الدين ، فى تمحيص الباطل من الحق :

يقول صلوات الله عليه :

« إذا سمعتم الحديث عنى تعرفه قلوبكم ، وتلين له أشعاركم وأبشاركم وترون أنه منكم قريب ، فأنا أولاكم به ، وإذا سمعتم الحديث تنكره قلوبكم وتنفر منه أشعاركم وأبشاركم وترون أنه منكم بعيد فأنا ابعدكم منه » .

فنحن مطالبون بتقديم التمحيص على التسليم ، أما بالنسبة للنص القرآنى فإن التسليم والإيمان يسبقان التفكير والتأمل . . ولكن

رسول الله يجعل قناعتنا نحن البشر هى الحكم فى قبولنا أو رفضنا لما يقدم لنا على أنه سنة نبينا . .

ثم شاءت إرادة الله أن يختلف كبار الصحابة كأشد ما يكون الاختلاف ، ويحملون السلاح ضد بعضهم البعض .. ثم ينتقل الخلاف إلى جمهرة المسلمين فيتقاتلون ، ويقتل بعضهم بعضا .. وهم يستندون جميعاً إلى تأويل لنص ، اجتهدوا فيه .

ومن تأويلهم للنصوص ، وما دسه الأشياع المتأخرون أصبحنا مطالبين أن نقدم الفكر والمناقشة ، وأن نرد النص أو الحادث إلى المبادىء الأساسية للاسلام على ضوء ، ما وصلت إليه معرفتنا ، وما يتفق واحتياجات الزمان والمكان ..

بهذا وصلت حرية الفكر فى الإسلام إلى ذروتها .. فقد رفض الإسلام مبدأ الكهنة والكهانة ، أى الجماعة المختصة باصدار رأى السماء فيما يجد من شئون الحياة .. فهذا الحق مباح لأى مسلم يستطيع أن يفهم النصوص ويستوعب معرفة عصره ، ثم يكون قادرا على أن يستخرج من النص تشريعاً يتلاءم مع احتياجات الزمان والمكان .

فباب الإجتهاد مفتوح ، ولكنه ليس كباب الخان لاتهر كلابه من كثرة الطراق .. بل لا يجتازه إلا من ملك مفاتيحه ، وهى بعد ذلك متاحة لكل من صدق العزم ..

ولأنه ليس لدينا نص محدد لكل ما تجابهنا به الحياة المتجددة دائماً ؛ فمن واجبنا أن نجتهد ، أى أن ندرس وان نستنبط .

وقد نشأ علم الحديث من هذه الأسس .. التفكير والتحقق قبل التسليم .. ولا جدال أنه يعد أدق علوم التاريخ .. فقد كان على علماء الحديث أن يمحصوا عدداً هائلا من الروايات حفظت ونقلت دون أن تكتب .. وانتقلت إليهم عن طريق العنعنة المشهوزة أى يرويها أحدهم نقلا عن آخر نقلا عن ثالث حتى تصل إلى الصحابى الذى يحكى عن رسول الله .

وبالطبع كان بوسع أى إنسان أن يقول : « حدثنى فلان ... » لذلك بدأ علماء الحديث بأن أجروا عمليـــة حصر شاملة ، هى بلا جدال ، الأولى من نوعها فى التاريخ .. أحصوا جميع الصحابةالذين كانت لهم صحبة مع رسول الله تسمح لهم بالحديث عنه .. ثم وضعوا جدولا زمنياً دقيقاً إلى حد الكمال بتاريخ اسلامهم ، والمواقع التى شاهدوها ، وتاريخ وفاتهم ! فإن نقل أحدهم حديثاً عن أبى ذر فى غزوة بدر ، كان من السهل الحكم بكذبه ، لأن أبا ذر لم يشهد غزوة بدر بل جاء إلى المدينة بعد الخندق .

وبلغ من الدقة التى يعجز عنها صحفى اليوم .. أن أبا موسى الأشعرى وصل هو وقومه إلى المدينة فى نفس اليوم الذى وصل فيه المهاجرون من الحبشة مع جعفر بن أبى طالب .. فأرخ البعض أن أبا موسى وجماعته من المهاجرين للحبشة ، ولكن التمحيص الدقيق أثبت أنهم أختلطوا بالقادمين من الحبشة فأشيع أنهم من المهاجرين ! وفند

مؤرخو السنة المعتمدين هذا الوهم ..

وفى المكتبة العربية عدد من المراجع تحمل ترجمة لجيل الصحابة قبل أن يظهر Who is Who بأكثر من ألف عام !

ثم انتقلوا لدراسة تاريخ حياة التابعين والرواة عن التابعين إلى الجيل المعاصر للذين دونوا السنة لأول مرة

وهذه الدراسة امتدت فشملت تاريخ الحياة .. سنة المولد وسنة الوفاة .. والبلاد التى عاش فيها ومشاهير الرجال الذين عرفهم .. حتى يمكن تحديد الزمان والمكان الذى تم فيه التلقى عن الصحابى أو التابعى، وضبطها على تاريخ كل من المصدر والناقل عنه .. فيقال هذا : «وهل» أى خطأ ، لأن فلانا مات فى الشام سنة عشرين وفلان لم يذهب إلى الشام إلا فى سنة ٢٢ هجرية فتبطل الرواية ..

ثم امتدت هذه الدراسة فشملت معرفة أخلاق المروى عنهم وصفاتهم الشخصية والجسدية .. فيقال أنه كان كثير النسيان ، أوضعيف البصر ، أو ضعيف السمع أو كان يثق بفلان الخارجى ، فكان يدس عليه الحديث ، أو كانت له ميول كذا وكذا ..

وكل هذه المعلومات كانت توضع فى الاعتبار عند تمحيص الحديث وتحقيق الرواية ..

من هنا نستطيع القول ان علم الحديث فى مصادره المتفق عليها

قد بلغ أقصى ما يمكن أن يصل إليه علم وضعى من الدقة واليقين . . ثم تبقى هذه النسبة من حق التفكير التى ترجع لكونه من إنشاء بشر يجوز عليهم الخطأ والنسيان ، وصلى الله عليه وسلم القائل : «إنما أنا بشر مثلكم أنسى كما تنسون ، فإذا نسيت فذكرونى . . . »

هذه النسبة من حق التفكير هى التى تؤكد صلاحية الإسلام لكل زمان ومكان . . فنحن لا نسير مقيدين بأغلال النصوص . . .

ومن هنا نتبين أن الدعوة لرفض السنة ، هى دعوة لإلغاء حرية الفكر فى الإسلام ، أو دعوة مشبوهة لما يسمى بالفصل بين الدين والحياة . .

غير أنى لا أقف فى هذا الحديث عند ضرورة التفكير فى نصوص السنة . . بل أقف عند جانب آخر من روعة هذا التراث .

فكما قلنا إن السنة هى إجابات الرسول على أحداث محدودة الزمان والمكان . . فكيف يمكن أن نستفيد بها نحن مع إختلاف المكان ، ونأى الزمان ، واختلاف ظروف الحياة . ؟

انضرب مثلا ، ونستغفر الله الذى لا يستحى أن يضرب مثلا ما بعوضة فما فوقها :

البترول . . موجود من قبل ظهور الإنسان ، وكان الهنود الحمر يستخدمونه كدواء مسهل . . وكان الناس فى العصور الوسطى

لا ينتفعون منه إلا بالقطران يرصفون به أو يداوون به جرب الأبل . وفى بداية القرن العشرين استخدموه كوقود فى لمبات الجاز . . اما الآن فيصنع منه بارفان وطعام وملابس . . ولاحد لما يمكن أن يستخرج منه جهد الإنسان وفكره . .

وكانت نيران الفرس التى لاتنطفىء هى آبار بترولهم تشتعل . . وكان الفرس المجوس سعداء بذلك إلى حد الامتنان بعبادة هذه النار والفزع من انطفائها . . ولكن احفاد هؤلاء الفرس اليوم يفزعون لوشبت النار فى بئر بترول لاخوفا من ردة إلى المجوسية ، بل خوفا على شكل الانتفاع الجديد من البترول . .

ولاشك أن المادة المكونة للبترول لم تتغير عبر هذه القرون ، ولكن معرفتنا هى التى تتغير وحاجتنا إليها هى التى تطورت .. وانتفاعنا بها هو الذى يتبدل ويتقدم . .

فسنة رسول الله وأفعاله قد لبت حاجة الزمان والمكان اللذين عاصرا الرسالة ، ولكنها - اى سنته - تحمل من الخير والهدى والقيم ماتستطيع شتى الأجيال أن تصل إليه، وتثرى به حياتها، وتنير طريقها .

وقد كان السلف الصالح من المسلمين ، رائعين فى موقفهم من إثبات السنة ، فلم يقيموا من أنفسهم أوصياء على الأجيال القادمة يتخيرون لها ما يليق وما لايليق . .

أن عمر رضى الله عنه القائل : « لا تخلقوا أولادكم باخلاقكم

فإنهم مخلوقون لزمان غير زمانكم » كان يعبر عن وعى هذا السلف بسنة التطور ، وبحق كل جيل أن يفكر فى حدود احتياجات عصره وقيم عصره .. ولو أقام هؤلاء من أنفسهم رقباء على الأجيال فتخيروا لنا وحذفوا ، لفرضوا بصمات تفكيرهم واجتهادهم على التاريخ الإسلامى كله .. بل ولطوقوا حركة هذا التاريخ بقيود قيمهم . وما وسعهم فهمه .. ولفرضوا قيود الزمان والمكان على رسالة أريد لها الخلود فى كون متغير الزمان لا نهائى المكان ..

ولو أنهم جمعوا كل ما وصل إليهم من روايات واثبتوه دون نقاش وألغوا عقولهم ، مسلمين بصحة كل ما وصل إليهم ، لسقطوا فى الجانب الآخر من الخطأ .. وهو إلغاء حق المناقشة والاعتراض . . حق الاجتهاد والاستنباط والقياس ..

ولكنهم أختاروا أسلم الطريقين فاثبتوا كل ما وصل إليهم من روايات ، فابقوا التراث سليما كاملا .. ثم أعملوا عقلهم ومنطقهم فقبلوا ما اقتنعوا وآمنوا به ، وشكوا فيما لم تثبت صحته بالدليل القاطع ، ورفضوا ما ثبت لهم بطلانه ، بادلتهم العلمية المتاحة لهم .. وبمنطق فهمهم لروح الدين .. ثم تركوا لكل جيل أن يدلى بدلوه ..

ومن هنا كنا مكلفين أن لا نقف عند الأبعاد العارضة للحادثة موضوع الحديث . . بل علينا أن ننمى مداركنا ونعيد المحاولة كى نحقق أقصى درجات الفهم والهداية . .

خذ مثلا حادث السحر . . فقد تردد الحديث عنه ، لا قول أخيرا بمناسبة ما كتب ، بل منذ بداية كتابة علم الحديث وأنكره جانب كبير من العلماء . .

وحديث السحر فى شتى الروايات عن عائشة وعن عمر مولى غفره وعن عمر بن الحاكم ، أن لبيد بن الأعصم اليهودى سحر النبي ، ثم أن جبريل وميكائيل عليهما السلام . . أخبرا النبي بذلك فدعا جبير ابن إياس الزرقى ، وهو أحد الذين شهدوا بدرا ، فدله على موضعه فى بئر ذروان فخرج جبير حتى استخرجه ، وقيل ان الذى استخرج السحر قيس بن محصن .

فقالت عائشة يا رسول الله : فأخرجه للناس ..وقالت الا تحرقه . (أى السحر) . . ألا تقتله ؟ (الساحر) فقال . . لا أفتح على أمتى بابا للشر . . أوكرهت أن أثير على الناس شرا . .

وفى حديث زيد بن أرقم : فما حدث به ولا رئى فى وجهه ! »

وعن « الزهرى » فى ساحر أهل العهد قال : «لا يقتل . . فقد سحر رسول الله رجل من أهل العهد فلم يقتله »

ويرى النووى أن السحر ليس كفرا فى حد ذاته ولكن يعتبر كفرا ، إذا كان ضمن طقوسه إجراءات كافرة ، وقال « لا يقتل عندنا .

وقال مالك الساحر كافر . . ويقتل بالسحر » .

وقال النووى « وعندنا ليس بكافر ، فإذا ثبت أن الساحر قتل إنسانا بسحره ، واعترف أنه مات بسحره وأنه يقتل غالبا لزمه القصاص وقال أصحابنا ولا يتصور القتل بالسحر بالبينة وإنما يتصور باعتراف الساحر » .

واول ساحر قتل فى الإسلام ، هو ذلك الذى جاء ذكره فى حادثة جندب بن كعب بن عبد الله ، وسبب ذلك أن الوليد بن عقبة بن أبى معيط لما كان أميرا على الكوفه ، حضر عنده ساحر فكان يلعب بين يدى الوليد ، يريه أنه يقتل رجلا ثم يحييه ، ويدخل فى فم الناقة ثم يخرج من حيائها ، فاخذ سيفا من صيقل واشتمل عليه وجاء إلى الساحر فضربه ضربة فقتله وقال : أحى نفسك » ثم قرأ : « اتاتون السحر وأنتم تبصرون » فوضع فى السجن فلما رأى السجان صلاته وصومه خلى سبيله ، فاخذ الوليد السجان فقتله ، وقيل بل سجنه حتى أتاه كتاب عثمان باطلاقه ، وقيل بل حبس الوليد جندبا فجاء أخوه فاخرجه فانطلق إلى أرض الروم ، فلم يزل يقاتل بها المشركين ، حتى مات لعشر سنوات مضين من خلافة معاوية . . »

اعترف انى توقفت عند ما قرأت الحديث . .

كيف يسحر رسول الله ؟
كيف يتقبل عقل علمى السحر ؟ . .

بل إن « ماكس ويبر » يستشهد بحديث السحر على ان الإسلام

يفتقر إلى العقلانية ، ومن ثم لا يستطيع أن يبنى المجتمع الصناعى !

ثم عدت اقرأ الحديث . . ولنقرأه معا :

● الفعل قد تم .

لبيد بن الأعصم مارس السحر ضد رسول الله ، والدليل عليه لا يقبل الشك أو الطعن ، فهو بشهادة رسول الله عن تبليغ من جبريل وميكائيل . . شاهدان يرجمان أهل الأرض جميعاً . .

فالشهادة جاءت من نفس المصدر الذى يرجع إليه ديننا كله.. فما من مسلم أو مسلمة يحق لهما أن يتشككا فى جريمة لبيد بن الأعصم، بعد أن يشهد رسول الله نقلا عن جبريل ..

الدليل المادى على صحة تبليغ جبريل قد وجد وهو أشياء تستخدم عادة فى السحر ، مطمورة فى البئر .

افترح على رسول الله أن يحرق مادة السحر لكى يبطل مفعولها ، وبالطبع كان سيصاحب الحرق بعض الطقوس ، من المؤكد أنها ما كانت لتكون من طقوس الوثنية ، أو فيها ما يغضب الله . . بل تلاوة لآيات من القرآن وبعض الدعاء .

رفض رسول الله رفضا قاطعا أن تجرى هذه الطقوس ، وقال : لا افتح على امتى بابا للشر . . والرسول هنا يتحدث عن الشر الذى ياتى لا من السحر الأسود ، بل من فعل ابطال السحر . .

إذا ما اتخذ شكل طقوس معينة ، فهنا أبصر صلوات الله عليه ببصيرة النبوة ، أى شر يمكن أن يفتح على أمته لو أصبح إبطال السحر سنة عن نبيهم ..

أىّ حرفة ستنشأ تحت اسم : « إبطال السحر » ، أى قلق سينتاب الناس طالما أن السحر الموجه ضدهم لم يبطل .. أى ثقل ستكتسب عملية السحر ذاتها ، من خلال الإيمان بضرورة إبطالها بأفعال مادية وغير مادية .. فذلك وحده دليل لا يدحض على تأثيرها .. وخطورة استمرار هذا التأثير ..

كل هذا أغلقه رسول الله برفضه إجراء طقوس ..

- فما ذكره له رسول الله ولا رآه فى وجهه .. أى أن رسول الله لم يواجه مرتكب فعل السحر بأى اتهام ، ولا عبس فى وجهه ، ولا بدا عليه أية ملامح تشير إلى اتهام ..

- الساحر لم توقع عليه عقوبة ، ولا وجه له اتهام ، ولا حتى عومل بنفور .. ورفض رسول الله أن يقتله حتى لا يفتح بابا للشر !

وقد استند فقهاء المسلمين إلى ذلك فى عدم قتل الساحر .. والذى قرر قتله ، لم يقتله لأنه ساحر بل لأنه كافر .. وقال الآخرون أنه إذا استخدم فى سحره ما يفضى إلى الكفر .. كان مرتدا .. والصحابى الذى قتل الساحر قتله لأنه قال أنه يحيى الموتى وألقت السلطة الاسلامية القبض عليه ، وأودعته السجن ، لولا أنه هرب بمعونة أخيه ،

أو بمعونة الحارس إلى الشام حيث مات فى جبهة القتال . . وتذكر أن القاتل المقبوض عليه صحابى . . والساحر شخص مجهول لعله من الفرس اسلم أو لم يسلم . . ومع ذلك لم تتردد السلطات الاسلامية فى القبض على الصحابى . .

ونستطيع أن نستخلص من الحديث مبـــدأ تشريعيا عاما ، وقاعدة قانونية خاصة . . فرغم ثبوت التهمة دينيا بطريق القطع . . إلا أنها تفتقر إلى الدليل المادى . . إلى دليل أرضى . . فأدلة الإثبات سماوية كلها ، وهى تبليغ جبريل إلى الرسول بأن ذلك السحر من فعل لبيد بن الأعصم ، ثم إرشاده إلى جسم الجريمة المدفون فى البئر والذى تم ضبطه . .

ولـكن من حق المواطن اليهودى أن يشهر فى وجه العدالة الاسلامية دفاعا بطلب دليل مادى يثبت أن هذا السحر الموجود بالبئر يخصه ومن فعله . . ومن حقه أن يطلب جبريل الى الشهادة ويخصمه . . ومن حقه أن يطعن فى شهادة رسول الله فهو لا يؤمن بأنه رسول الله ، وقد كفل له الإسلام حرية العقيدة ، فليس لنـا أن نجبره على التسليم بصدق من لا يؤمن به . .

إذن فلا دليل ماديا يبيح لعدالة الاسلام أن توقع عقوبة مادية .

فمادامت الأدلة من السماء . . فلتـكن العقوبة فى السماء . . وليس من حق العـــدالة الاسلامية أن تعاقب ولا أن تتهم ولا أن تتجافى

لمواطن يهودى يستظل بعدلها ، مادامت لاتملك دليلا ماديا من أدلة هذه الأرض . .

وبعد هذا الحديث بعشرة قرون كانت أوروبا تشهد حرق الساحر والساحرة أحياء كاحتفالات روتينية [1] ، وربما لايزيد الدليل عن وجود مقشة أو تقوس بأنف الضحية يكفى لإدانتها بالسحر ! . .

والقضاة الانجليز ، أدانوا ، وضميرهم مستقر ، جان دارك بالسحر بينما رفض الفقهاء ثبوت تهمة القتل على الساحر إلا بالاعتراف . . لاستحالة توفر دليل مادى على القتل بفعل غير مادى بمقاييس ذلك العصر [2] . .

نظلم أنفسنا إن وقفنا من الحديث عند التساؤل . . هل سحر رسول الله أو لم يسحر . . فالسحر مازال يمارس إلى الآن . . فهو كخرافة أو كحقيقة موجود فى المجتمع . . والحديث لايدفع أى مسلم للخوف من السحر أو الإيمان به أو الاشتغال به فقد رفض النبى كما رأينا أن يقوم بأى طقوس لفك السحر . .

---

(١) فى الفترة من ١٤٨٠ إلى ١٧٨٠ قتل فى أوروبا ثلاثمائة ألف سيدة على زعم أنهن ساحرات .

(الاهرام ١٩٦٨/٦/٨ صفحة ١٠)

(٢) إذا اعتبرنا أن التأثير النفسى أو الايحاء فعل مادى . . بعد تقدم علم النفس .

ولكن أبعاد الحديث أعمق وأبعـــد من هذه القضية . .
فإنه كما رأينا يضع الأساس فى وقاية المجتمع الاسلامى من فتنة السحر . . وأعفى المواطنين الأبرياء من أن تنكل بهم غوغائية الجماهير ، أو أحقاد السلطة باسم السحر . .

انه قمة خالدة فى الشرعية . . فى الأركان الواجب توافرها للادانة . . فى المساواة المطلقة أمام القانون . .

ان هذا الحديث هو أساس المبدأ القانونى الرائع « لا يقضى القاضى بعلمه » فرسول الله خير من علم وأعدل من قضى . . ولكنه لا يقضى بعلمه . . ولا ينزل عقوبته بمواطن يهودى . .

كم من اليهود أعدموا وسجنوا فى حضارة القرن العشرين فى الغرب لمجرد أنهم يهود ! . بل كم من اليهـــود أدينوا بلا دليل إلا كونهم يهودا . .

أى قمة تسمو بها حضارتنا فى هذا الحديث ، وبعض الدول تعاقب على التعرض لرئيس الدولة بالإشارة !

ولكن محمدا رسول الله لم يجد نصا قانونيا يبيح له أن يعبس فى وجه من مارس السحر ضده !

لا حدّ لما يمكن أن تكتشفه البشرية فى تقدمها من قيم فى سنة رسول الله . .

وبعد :

فليست هـــذه دراسة لحياة رسول الله . . فما يطيق ذلك إلا أولو العلم والعزم . . بل هى عبادة وتأمل ودعوة للفهم ننير بها حياتنـــا . .

* * *

من أحوال المصطفى

سئلت عائشة أم المؤمنين وزوجة رسول الله :

« كيف كان رسول الله فى بيتة ؟ »

فقالت :

« كان بشراً كالبشر يصلح نعله ويرقع ثوبه ويخدم نفسه »

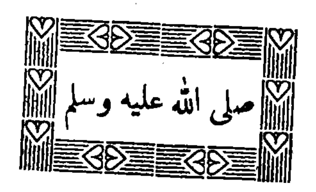
نعم كان صلى الله عليه وسلم ، بشراً كالبشر ، وتلك هى معجزة السماء . . ولكن البشر كل البشر ليسوا كمحمد بن عبد الله . . وحسب البشرية أملا فى الاستمرار والارتقاء . . أن يحاول البشر الاقتداء بسيرة رسول الله . .

ولد رسول الله صلى الله عليه وسلم يتيما فى يوم الاثنين ١٢ ربيع الأول الموافق ٢٩ أغسطس سنة ٥٨٠ ميلادية .

وكان عليه الصلاة والسلام متوسط الطول . . ليس بالقصير ولا بالمفرط الطول . . كبير الرأس . . بوجهه بعض الاستدارة . . عريض الجبين يوشك حاجباه أن يلتقيا ، بينهما عرق ، إذا غضب انتفخ واحمر ، أسود العينين ، فى سوادهما شىء من الحمره ، طويل رموش العين ، شديد سوادهما ، بأنفه تقوس . . حسن الثغر . . أفلج . . كبير الفم . . عظيم اللحية ، متموج شعر الرأس . . طويل الذراعين . . دقيق الساقين . . أبيض اللون مشربا بحمرة . . مشدود العضلات . . ليس فى جسده استرخاء ولا ترهل . .

كان إذا غضب احمر وجهه . . وإذا حزن أكثر من مس لحيته . . وإذا تكلم أشار بكفه كلها ، وإذا تعجب قلبها . . وإذا

استغرق فى الحديث ضرب راحة يده اليمنى ببطن إبهامه اليسرى ..
وإذا رأى ما يكره أشاح بوجهه . وإذا عطس غطى وجهه ..
وكان يضحك حتى تبدو نواجذه . وكان أكثر الناس تبسما ..



وكان فى طعامه لا يرد موجوداً ولا يتكلف مفقوداً ، فما قرب إليه شيء من الطيبات إلا أكله . إلا أن تعافه نفسه فيتركه من غير تحريم . وما عاب طعاما قط . إن اشتهاه أكله وإلا تركه . .

كان يحب الحلو البارد . . ويحب العجوة . . ويأكل البطيخ بالرطب والقثاء بالملح . . وكان يفطر فى رمضان على الرطب - البلح المرطب - فإن لم يجده فعلى التمر . فإن لم يجده فعلى جرعة ماء .

وكان يأكل بثلاث أصابع . . ولا يأكل متكئا . . بل قال أنا أجلس كما يجلس العبد وآكل كما يأكل العبد . . كان يجلس على الأرض ويوضع طعامه على الأرض . .

كان قدحه من خشب غليظ مضبب بحديد . . وأرسل له المقوقس قدحا من زجاج فكان يشرب فيه

كان إذا سقى أصحابه شرب آخرهم . . وإذا شرب أولهم أعطى الذى على يمينه كائنا من كان الذى على يساره . .

وإذا لم يجد الطعام صبر حتى إنه ليربط على بطنه الحجر من الجوع . .

كان يعمل فى حفر الخندق يوم غزوة الأحزاب ، فرأى صحابته الحجر على بطنه من شدة الجوع .

ما شبع من خبز القمح ثلاثة أيام متتالية حتى فارق الدنيا . . ولا أكل خبزاً منخولا منذ أن بعثه الله نبيا إلى أن توفى . . أما الشعير فكانوا ينفخونه بالفم .

وكان يمر عليه الشهر لا يجد ما يخبزه . . ويمر عليه شهران لا يوقد فى بيته نار . . أى لا يطبخ

« ولكن كان لنا جيران من الانصار نعم الجيران . . كانوا يهدوننا بعض الطعام . . . »

وقالت عائشة أيضاً . . . : « لو كان لدينا مصباح . . لأ كلناه » أى لأ كلت زيت المصباح

« كنا نعيش على التمر والماء »

وصلى عليه الصلاة والسلام ، مرة ، جالسا من شدة الجوع

قدموا له عصير اللوز : فقال أخروه عنى ، هذا شراب المترفين .

وتوفى ودرعه مرهونة عند يهودى ، اشترى منه ثلاثين قدحا من الشعير أخذها لطعام أهله .

وبعث يشترى من يهودى ، على أن يؤجل الدفع ، فرفض أن يبيعه .. وقال ما لمحمد زرع ولا ضرع فمن أين سيسدد ؟

لم يكن لديه قط قميصين معاً ، ولا ردائين ، ولا ازارين ولا نعلين.

أحب الثياب إليه القميص ، وكان عنده قميص من القطن قصير الكمين إلى الرسغين واسعهما ، فوق الكعبين.

وأهدى إليه من الشام جبة وخفان فلبسهما حتى تمزقا . . وحج فى قطيفة لاتساوى أربعة دراهم .

كان يلبس الصوف ـ أرخص شيء وقتها وأكثره إيلاما للجسد ـ ويخصف النعل ويرقع القميص ، ويركب الحمار .

وكانت له حصيرة ينام عليها . . ويبسطها فى النهار فيجلس عليها . ونام عليها حتى أثرت فى جنبه .

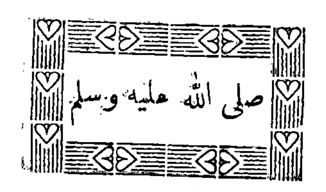
وكانت له مخدة من جلد حشوها ليف ، ، واحيانا ينام على عباءة تثنى مرتين . . فطوتها زوجته حفصة ٤ مرات . . فلما نام عليها ، كان من لينها ورفاهيتها أن استغرق صلى الله عليه وسلم فى النوم حتى فاتته صلاة الليل . . فنهى « حفصة » عن ذلك وأمرها أن تعيد العباءة إلى وضعها الأول . .

ورأت امرأة من الانصار ماينام عليهفأهدته مرتبةمن الجلد حشوها صوف . . فأمر عائشة بأن تردها .. أمرها ثلاث مرات . . وعائشة أم

المؤمنين وزوجة رسول الله تقول : «فلم أردها حتى أمرني ثلاث مرات .. لأنني كنت أحب أن يكون فى بيتى مثل هذا .. »

اشتهت زوجة سيد الخلق أن يكون فى بيتها مخدة من جلد حشوها صوف .. فنهاها رسول الله دفعا للترف !

وكان إذا نام يضع يده تحت خده وينام على جنبه الأيمن .



ولم يكن يحب الفقر . . ولا يرضى به . . وكان فى دعائه يستعيذ منه ، «أعوذ بالله من الجوع ضجيعاً . . » وكان يستطيع أن يملك ثروة جزيرة العرب كلها .

وكان يعطى كما وصفه أعرابى : « عطاء من لا يخشى الفقر » ولو احتفظ بنصيبه فى الغنائم كأى فرد من جيشه لـكان من أغنياء العرب.

ولـكن مادامت البشرية قد كتب عليها أن تعيش قروناً عديدة وفيها الفقر والغنى . . فخير نظام تصل إليه . . هو ذلك الذى يجعل حكامها فى جانب الفقراء . .

فما أبشع أن تجتمع السلطة والغنى فى جانب واحد . .

وما أبشع أن يستأثر المترفون بالسلطة . . أو أن تستأثر السلطة بالرفاهية . .

* * *

كان يحب النظافة وحسن المظهر . . ينام أول الليل ، ويستيقظ في أول النصف الثاني فيستخدم السواك « فرشة الأسنان » ويتوضأ ويصلى .

وكان إذا خرج للقتال أعدت له عائشة ما يحتاجه في سفره . . فتضع دائماً هنا (عطرا) ومشطا ومرآة ومقصين ومكحلة وسواكا . .

وكان له خاتم من فضة كتب عليه :

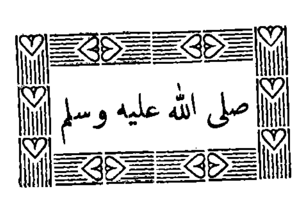
الله

رسول

محمد

وهو الذى حمله أبو بكر ثم عمر . . ثم عثمان ست سنوات حتى وقع منه فى بئر أريس . وفشلت كل الجهود فى استخراجه رغم قلة الماء فى البئر . . فتشاءم المسلمون . . وأدركوا أن الحكم لابد له من أن يقع فى الشر . . وما كان خاتم رسول الله ليـــوقع به شر

الحاكمين . . فذهب وذهب معه حلم لولا أنه حفظ بكل دقائقه ماصدق البشر . . أن بشرا عاشوا مثل هذه الأيام . .



كان يسهر يسمر مع زوجاته ليلا . . ويجلس بعد صلاة الفجر مع أصحابه إلى صلاة الصبح . فيذكرون حديث الجاهلية فيضحكون ويبتسم

كان يمزح مع أصدقائه . . كان له صديق بدوى يأتى لزيارته مرة كل سنة . . فرآه الرسول فى السوق . . فجاء من ورائه وغطى عينيه وقال من أنا ؟

وتسابق مع عائشة وهى صغيرة فسبقته . . فلما كبرت وامتلأت وزاد وزنها سابقها فسبقها . . فقال : هذه بتلك . . أى واحدة بواحدة

وكان يخرج لسانه لحفيده الحسين فيضحك الحفيد . .

وقال : إنى أتزوج النساء وآكل اللحم وأنام وأقوم وأصوم وأفطر فمن رغب عن سنتى فليس منى .

ناداه رجل ياسيدنا وابن سيدنا وخيرنا وابن خيرنا . . فقال : لايستهوينكم الشيطان . . أنا محمد بن عبد الله . . عبد الله ورسوله . . والله ما أحب أن ترفعونى فوق منزلتى .

وكان أصحابه إذا رأوه قادما عليهم لم يقوموا إليـه وهو أحب الناس إليهم .. ولما يعرفون من كراهيته لقيامهم .

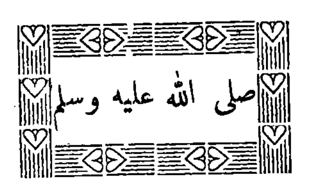
وكان يكره أن يمشى أصحابه وراءه .. ويأخذ بيد من يفعل فيدفعه إلى السير بجانبه .

رآه رجل فارتعد .. فقال رسول الله : هون عليك فإنى لست ملـكا .. إنما أنا ابن امرأة كانت تأكل القديد ..

كان لا يأنف ولا يستكبر أن يمشى مع الأرملة والمسكين فيقضى حاجته .. وكان يخصف حذاء الرجل المسكين .. ويخيط ثوب الأرملة

كان يعود المريض .. حتى غلاماً يهودياً كان يخدمه ..

وما كان يغلق دونه الأبواب ، ولا يحول دون مقابلته حجاب . ولا يغدى عليه بالجفان ، ولا يراح عليه بها .. كان من أراد مقابلة نبي الله يقابله ..



كان يحب لأمته أن تنتقد . . وأن تطالب بحقها ، وأن تعترض ، وتبدى رأيها فى ماينفعها ، وما يريبها من سلوك الأمراء . .

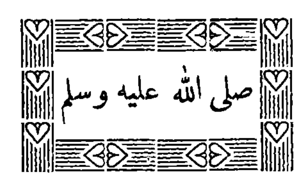
كان يمشى وقد لبس ثوباً غليظاً فجـــاء أعرابى فجذبه من الثوب بعنف فأثر حرف الثوب الغليظ فى عنقه حتى ترك أثراً واضحاً به . وصاح الأعرابى : يا محمد ، أعطنى من مال الله الذى عندك . فضحك رسول الله وأمر له بعطاء .

وجاء يهودى فجذب رداءه حتى سقط عنه ، وقال ادفع دينك يامحمد فقد اشتهرتم يابنى عبدالمطلب بالمماطلة . فارتعد عمر من الغضب وقال للرجل أتقول هذا ياعدو الله لرسول الله ؟ فابتسم الرسول وقال : أنا وهو أحوج إلى غير هذا الأجدر أن تامرنى بدفع الدين ، وتأمره بحسن المطالبة به . وتعينه على تحصيل حقه . اذهب وادفع له حقه وزده عشرين صاعا من التمر .

وعندما جلس يقسم الأموال فى غزوة حنين اعترض أعرابى فقال هذه قسمة لاعدل فيها . . ولا أريد بها وجه الله ، وصاح فى وجه النبى اعدل يامحمد . فقال النبى : « ومن يعدل إذا لم أعدل . وإذا كنت لاأعدل فقد خبت اذن وخسرت» . واستأذن عمر فى قتل الرجل . فقال الرسول : « معاذ الله أن يتحدث الناس أنى أقتل أصحابى » .

دفع رجل فى بطنه بجريدة من النخل ، فجاء الرجل يطلب أن يقتص ، فكشف النبى بطنه للرجل وأعطاه الجريدة ليضربه بها فقبل الرجل بطن النبى وقال : « بل أردت أن يرتدع الجبابرة من بعدك » .

وداس أعرابى على قدم الرسول أثناء الحرب فضربه بالسوط ، فلما انتهت المعركة دعاه وأعطاه السوط وطلب منه أن يجلده ، فاستعاذ الرجل أن يجلد نبيه فطلب منه النبى أن يعفو عنه .



كان يكره أن ينقسم المجتمع على نفسه أو تفترسه الطبقية أو الذل ، أو الوشاية والتجسس .

قال :

« من اطلع فى بيت قوم بغير إذنهم ففقأوا عينه .. فلا دية له ولا قصاص» ..

قال :

« لا يبلغنى أحد منكم عن أحد من أصحابى شيئاً . . فإنى أحب أن أخرج إليكم وأنا سليم الصدر »

قال :

«إياكم والظن ، فان الظن أكذب الحديث . ولا تجسسوا ولا تحاسدوا ولا تباغضوا .. وكونوا عباد الله إخوانا» .

قال :

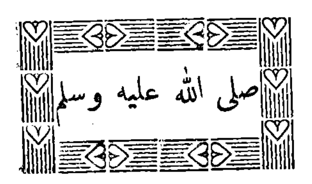
« المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يسلمه ولا يخذله ، ولا يحقره .

بحسب المرء من الشر أن يحقر أخاه المسلم . كل المسلم على المسلم حرام : دمه وماله وعرضه ..

من كان فى حاجة أخيه كان الله فى حاجته .

ومن فرج عن مسلم كربة فرج الله عنه بها كربة من كرب يوم القيامة .

ومن ستر مسلما ستره الله يوم القيامة.. »



كان يكره أن يذل الإنسان نفسه بالاعتراف ، فنهى عن أن يفضح نفسه وقد ستر الله عليه . .

جاءه ما عز بن مالك . . وكان يتيما رباه هزال الاسلمى بوصية من أبى ما عز ، فلما بلغ مبلغ الرجال جاء ماعز وصيه فقال له إنى كنت أحب امرأة فنلت منها . . وقد ندمت على ما فعلت فما رأيك فأمره أن ياتى رسول الله ، فيخبره . .

ففعل . .

فيراجعه رسول الله . لعلك قبلت . . لعلك غمزت . .

والرجل يصر على أنه زنى أربع مرات

فيسأله رسول الله بصريح العبارة وكان يكنى دائماً ، فاعترف الرجل فعاد يسأله أسئلة دقيقة تفصيلية لعل الرجل يجد مخرجا يعفيه . . أو لعل القانون يجد مخرجا له . . ولكن ماعزا يصر . .

فعاد رسول الله يسأله : هل تعرف ماهو الزنى ؟

قال الرجل : نعم فعلت بهما فى الحرام ما أفعله بزوجتى فى الحلال . .

فيسأله رسول الله « أبك جنون » . . ويسال أصحابه ، فينفى الرجل . . وينفى أصحابه . .

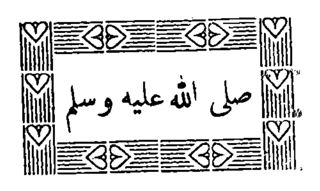
فيسأل رسول الله . . « فماذا تريد بهذا القول ؟» يقول ماعز . . أريد أن أتطهر بالعقاب .

ويشرع رسول الله أن هذا المعترف لو أنكر عند بدء التنفيذ أو هرب منه . . وجب ايقاف التنفيذ . .

ولما عاب بعضهم صنيع ماعز . . قال رسول الله لقد تاب توبة لو تابها طائفة من أمتى لأجزت عنهم »

وقال رسول الله للوصى : « ياهزال بئس ما صنعت بيتيمك ! لو سترت عليه بطرف ردائك لكان خيرا لك » .

وهو القائل : «ادرأوا الحدود بالشبهات » أم القاعدة القانونية الحديثة : «الشك يفسر لصالح المتهم» .



كان يحب المرأة . . إنسانه . . وأما . . وزوجه . . وبنتا . . وشريكة فى الحياة . .

سئل : من أحق الناس بمودتى :

قال : « أمك . . ثم أمك . . ثم أمك ثم أبوك »

وقال :

« من أدرك أبويه أو أحدهما فلم يبرهما ، فمات فدخل النار فأبعده الله »

وقال :

« لم نر للمتحابين مثل الزواج »

وأمر الذين سألوه . . أن يزوجوا ابنتهم للفقير الذى تحبه لا للغنى الذى يريدونه هم . .

وكان صلوات الله عليه يقبل عائشة ، وإذا شربت من الإناء أخذه فوضع فمه فى موضع فمها وشرب . .

وكان يتكىء فى حجرها ويقرأ القرآن ورأسه فى حجرها وكان يقبلها وهو صائم ..

وزاحمته على الخروج من باب المنزل .

وغضب مرة مع عائشة فقال لها هل ترضين أن يحكم بيننا أبو عبيدة ابن الجراح . فقالت : لا، هذا رجل لن يحكم عليك لى ..

قال هل ترضين بعمر ؟ قالت لا . . أنا أخاف من عمر . .

قال هل ترضين بأبى بكر (أبوها) .. قالت : نعم ! ..

فجاء أبو بكر ، فطلب منه رسول الله أن يحكم بينهما . . ودهش أبو بكر وقال أنا يارسول الله ؟ ! . .

ثم بدأ رسول الله يحكى أصل الخلاف . .

فقاطعته عائشة قائلة «أقصد يارسول الله» أى قل الحق . . فضربها أبو بكر على وجهها فنزل الدم من أنفها ، وقال : فمن يقصد إذا لم يقصد رسول الله ، فاستاء الرسول وقال ماهذا أردنا . . وقام فغسل لها الدم من وجهها وثوبها بيده .

وكان إذا غضبت زوجته وضع يده على كتفها وقال اللهم اغفر لها ذنبها وأذهب غيظ قلبها ، وأعذها من الفتن .

وتغضب عمر على زوجته ، فراجعته . فأنكر أن تعارضه ، فقالت زوجته لماذا تنكر أن أراجعك ، فوالله إن زوجات النبى

صلى الله عليه وسلم ، ليراجعنه . وتهجره إحداهن إلى الليل » . .

وكان إذا دخل على أهله ليلا سلم تسليما لا يوقظ النائم ويسمع اليقظان وكره أن يفاجىء الرجل زوجته إذا عاد من السفر فجأة . . بل يبعث لها من يبلغها بوصوله . .

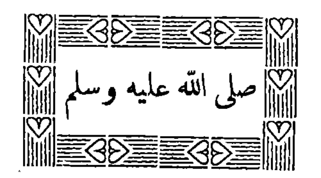
دخل أبو بكر عليه وهو مغطى بثوبه وفتاتان تضربان بالدف (الطار) أمام عائشة ، فاستنكر ذلك ، فرفع النبي الغطاء عن وجهه وقال دعهن يا أبا بكر فإنها أيام عيد . .

واتكأت عائشة على كتفه تتفرج على رقص وغناء بعض الأحباش حتى سئمت .

«من ربى بنتين جاء يوم القيامة أنا وهو . . » وضم أصابعه أى متساويين . أو متجاورين .

رفض أن يعزل (أى منع الحمل) . . إلا بموافقة المرأة . فليس من حق الرجل أن يتخذ هذا القرار بمفرده ؛ ولا له أن يتصور المرأة مجرد أداة لاشباع رغبته الجنسية ، وليس ثمة إهانة لامرأة أكبر من رجل لا يريدها أن تحمل منه وهى تريد . .

قال « الدنيا متاع وخير متاع الدنيا المرأة الصالحة » قال « ان من أشر الناس عند الله منزلة يوم القيامة ، الرجل يفضى إلى امرأته وتفضى إليه ، ثم ينشر سرها » .



كان رقيق القلب شفيقا ، محبا لأهله وأصدقائه والابرياء الذين لم يرهم .

لما أصيب زيد بن حارثة ذهب لزيارته ، فبكت ابنة زيد ، فبكى رسول الله . وتساءل بعض أصحابه عن بكائه فقال هذا شوق الحبيب إلى حبيبه . .

وحضر وفاة حفيدة له فدمعت عيناه .

واشتكى سعد بن عباده فلما دخل عليه رسول الله بكى . .

وقبل سعد بن مظعون عندما أصيب وبكى بكاء طويلا . .

وسمع من رجل كيف وأد (قتـــل) ابنته فى الجاهلية . . فبكى رسول الله حتى صاح الجالسون فى الرجل : أحزنت رسول الله . . فنهاهم الرسول ، وطالبه أن يعيد القصة . . وبكى الرسول حتى نزلت دمعة على لحيته . .

وعاش ابنه إبراهيم حتى بلغ ١٨ شهرا ، وكان يحبه ويصعد إلى الجبل ليراه عند مرضعته وهى زوجة حداد .. ويقبله ويلاعبه ..

وكان فرحا به .. رزق به فى شيخوخته ... وما كان له من صبية ذكورا غيره ، ثم أدركه وهو يموت ، فجعلت عينا رسول الله تذرفان الدمع .

وقال :

« إن العين تدمع ، والقلب يحزن ، ولا نقول إلا ما يرضى ربنا . وإنا بفراقك يا إبراهيم لمحزونون »

وكسفت الشمس ، وقال المسلمون الذين رأوا حزن نبيهم ... « الشمس كسفت لموت إبراهيم »

فسارع إلى المنبر يخشى الفتنة على أمته فقال : « إنما الشمس

---

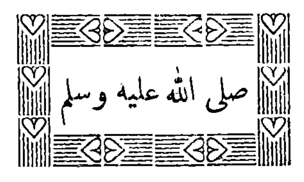
(١) اعتقد — وأستغفر الله قبل القول وأرجو أن يردنى من له علم — أن إرادة الله شاءت الا يكون لرسول الله أولاد ذكور وقضى الله بذلك قبل أن يولد إبراهيم فى الآية الكريمة « ما كان محمد أبا أحد من رجالكم ، ولكن رسول الله وخاتم النبيين » . فلو عاش إبراهيم وأصبح من رجال المسلمين لنسخت الآية . .

وبقدر ما هى معجزة آلهيه صدرت قبل مولد إبراهيم وصدقت بعد نزولها بسنين . فهى أيضا تفتح بابا لا نهاية له للحديث عن موقف الإسلام مما يسمى بالقدر والمكتوب . . فإن هذه الآية المتضمنة لحكم قاطع ، لم تمنع رسول الله من أن يفرح بابنه ويرجو له أن يعيش ويحزن على موته . .

«والقمر آيتان من آيات الله لا تكسفان لموت أحد ولا لحياته»

قال :

«من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم ضيفه ، وليكرم جاره»



جاء يدعونا للعزة . . فاما أن نعيش كراما ، نمارس الحق ، ونحميه ، ولنا اليد العليا ، والعزة فى أرضنا وديننا . . أو نموت شهداء مدافعين عن الحق . . عن اوطاننا ، وما أعظم مكانة الشهيد ، ومكانة المقاتل فى سبيل الحق . .

قال « إن الله تعالى يقول ما من عبد من عبادى خرج مجاهدا فى سبيلى إلا ضمنت له أن أرجعه مأجورا غانما . أو شهيدا أغفر له وأرحمه وأدخله الجنة »

وقال « جاهدوا فى سبيل الله فإن الجهاد باب من أبواب الجنة ، ينجى الله به من الهم والغم »

وقال : « من جاهد فى سبيل الله فأنا أضمن له بيتا فى أعلى غرف الجنة . . . »

« من أرسل نفقة فى سبيل الله فله بكل درهم سبعمائة درهم »

« من أعان مجاهدا فى سبيل الله أظله الله يوم لاظل إلا ظله »

« من اغبرت قدماه فى سبيل الله حرمها الله على النار »

«من جرح فى سبيل الله ختم له بخاتم الشهداء له نور يوم القيامة . . ويأتى جرحه له لون الزعفران وريح المسك يعرفه بها الأولون والآخرون ويقولون فلان عليه طابع الشهداء» .

وقال : « رباط يوم - يعنى اتخاذ موقع فى مواجهة العدو والسهر على حراسة الموقع - فى سبيل الله خير من الدنيا وما عليها . . » « رباط يوم وليلة خير من صيام شهر وقيامه » .

« مقام أحدكم فى سبيل الله خير من عبادة أحدكم فى أهله ستين سنة»

« من رابط فى شىء من سواحل المسلمين ثلاثة أيام أجزأت عنه رباط سنة »

« حرس ليلة فى سبيل الله أفضل من ألف ليلة يقام ليلها (أى فى الصلاة) ويصام نهارها »

« حرمت النار على عين سهرت فى سبيل الله » .

« من حرس من وراء المسلمين فى سبيل الله تطوعا لا يأخذه النوم لم ير النار بعينيه »

« من تعلم الرمى (الرماية) ثم تركه فقد عصانى »

«عليكم بالجهاد فإنه رهبانية الإسلام» «من مات ولم يغز أو يجهز غازيا أو يخلف غازيا فى أهله بخير ، أصابه الله بقارعة قبل يوم القيامة »

وقال « إذا ضن الناس بالدينار والدرهم ، وتبايعوا بالعين »

واتبعوا أذناب البقر ، وتركوا الجهاد فى سبيل الله ، أنزل الله بهم بلاء فلم يرفعه عنهم حتى يرجعوا إلى دينهم . . »

الشهيد يغفر الله له فور أول نقطة دم تنزل منه ، ويرى مقعده من الجنة ، يحلى حلية الإيمان ويزوج من حور العين ، ويعفى من عذاب القبر ، ويأمن من الفزع الأكبر ويوضع على رأسه تاج الوقار . ويشفع فى سبعين إنسانا من أقاربه .

وقال « ما يجد الشهيد من القتل إلا كما يجد أحدكم من القرصة »

« ولا تجف الأرض من دمه إلا جاءت إليه حوريتان من الجنة فيأخذان بيده ومع كل واحدة حلة من الجنة »

الذى لا يفر من العدو ويظل صامدا فى موقعه « أولئك فى الغرف العلا من الجنة ، ويضحك إليهم ربك ولا حساب عليهم . »

« والذى جاهد بنفسه وماله حتى إذا لقى العدو قاتله حتى يقتل . . فذاك الشهيد الممتحن فى خيمة الله تحت عرشه لا يفضله النبيون إلا بدرجة النبوة »

« إن السيف محاء الخطايا »

وقال « إذا تركتم الجهاد سلط الله عليكم ذلا لا ينزعه عنكم حتى ترجعوا إلى دينكم » .

وفسر صحابته قوله تعالى « ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة » بأنها ترك الجهاد . . لأن ذلك يغرى بنا العدو فيأتى ويهلكنا . .

وكان إذا أراد غزوة تحدث بما يفهم أنه يقصد غيرها . . كأن يكون هدفه غزوة حنين ، فيسأل عن طريق نجد . . ويكلف من يجمع المعلومات عن مياهها وطرقها . .

وكان يقول : الحرب خدعة . . وكان يبعث العيون (الجواسيس) يأتونه بخبر عدوه ، ويطلع الطلائع (دوريات استكشاف) ويبيت الحرس ، وكان يرتب الصفوف عند القتال بيده ويقول تقدم يا فلان . . تأخر يا فلان . . وكان يجعل لا صحابه شعارا يعرفون به إذا تكلموا . .

وكان يلبس الدرع والخوذة ويتقلد السيف ويحمل الرمح والقوس العربية .

ويأبى على القائد إن لبس عدة الحرب أن يرجع عن قتال العدو . .

وكان لا يأمر أصحابه بما لا يفعله . . فهو فى الحرب أشجع المسلمين ، وأقربهم إلى صفوف العدو . .

يقول على بن أبى طالب :

« كنا إذا اشتد القتال نتق برسول الله ، وأشجعنا هو الذى يقترب من موقعه »

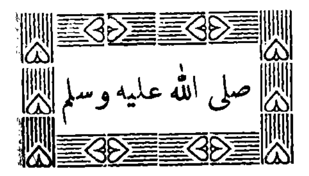
ولما انهزم المسلمون فى موقعة حنين ثبت رسول الله ، وأمر العباس أن ينادى :

أنا النبي لا كذب

أنا ابن عبد المطلب .

فعاد المسلمون وانتصروا . .

قاتل . . وجرح . . وهزم . . وانتصر . .



كان يؤمن بالرجال الأحرار الذين يصنعون النصر . .

عندما خرج فى غزوة بدر . . لم يخرج حتى استشار المسلمين واستقر رأيهم على القتال والتزموا به . . ولم يكن يرضى بانتزاع الموافقة العلنية من فوق المنبر لما فيه من إحراج . . بل كان فى الجيش نظام العرفاء . . قل ضباطا أو مسئولين سياسيين . . يطلب منهم التعرف على رأى الجنود ونقل رغباتهم التى لايحبون إعلانها أمام الجميع . .

وقاد رسول الله الجيش يوم بدر ، حتى وصل إلى موقع ما فأمرهم أن يعسكروا فيه ويتخذوا مواقعهم . .

وتقدم منه أحد الجنود فسأله : أهذا الموقع هو أمر من الله ليس لنا أن نتقدم عنه أو نتأخر .. أم هو الحرب والرأى والمكيدة . .؟»

وربما كان إيمان المسلمين بأن هذا الموقع من اختيار الله ، له تأثيره الفعال فى رفع معنوياتهم ، ولكن . . إن سيرة الرسول - كما رأينا - ليس المقصود بها هو الفترة الزمنية التى عاشها الرسول ، بل الزمن الذى ستعيشه الرسالة . .

وأهمية «غزوة بدر» ليست فى انتصار ثلثمائة مسلم على تسعمائة وخمسين مشركا .. إنها من الناحية العسكرية ، مجرد اشتباك يمكن أن يحدث فى أحد أحياء الزنوج بأمريكا .. أو إحدى قرى الصعيد ..

ولكن أهميتها الخالدة ، هى المبادئ التى أرستها ، والقيم التى أعزتها .. ومنها هذه القصة :

قال الرسول : « لا .. هو الحرب والرأى والمكيدة » أى من تدبير واختيار رسول الله

ولم يتردد الجندى المسلم .. اعترض .. انتقد ..

قال :

« فليس هذا بالموقع يارسول الله .. انهض حتى تنزل أول الماء .. .. الخ » .

أى اقترح موقعا آخر يعسكر فيه المسلمون ..

ومن المؤكد أن المؤرخ العسكرى كان سيؤيد الرسول ، لو أنه رفض الانتقال .. فهذه أول معركة يخوضها المسلمون . وأول قرار عسكرى يتخذه رسول الله ينتقده ويخطئه جندى عادى فى الجيش ؟

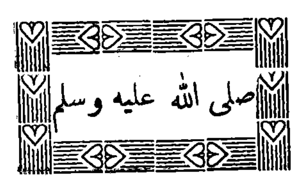
ما تأثير ذلك على معنويات الجند ؟ ..

ولكن رسول الله يعلم البشرية ، ولمئات القرون والأجيال .. فيبادر قائلا : الرأى ما أشرت به .. انهضوا » .

* * *

ويصدر أمره فيتحرك الجيش ، ويعسكر حيث أشار الجندى .. وينتصر جيش الأحرار ..

كان يأتيه الوحى من السماء .. وكان كما تصفه عائشة : « مارأيت رجلا أكثر استشارة للرجال من رسول الله ..



قالت عائشة مارأيت أحداأ شد عليه الوجع من رسول الله .

وكان يدخل يده فى قدح به ماء ثم يمسح به وجهه ويقول اللهم أعنى على سكرات الموت" . .

لما دفن قالت فاطمة ابنته : « يا أنس كيف طابت أنفسكم أن تحثوا على رسول الله التراب . . . »

وكان يدعو :

«اللهم إنى أعوذ بك من العجز والكسل والجبن والهرم والبخل وعذاب القبر .

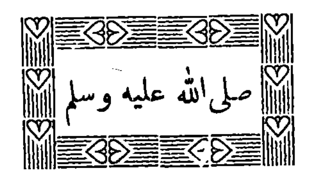
اللهم إنى أعوذ بك من الفقر والقلة والذلة . . وأعوذ بك من أن أظلم أو أظلم .

اللهم إنى أعوذ بك من قلب لايخشع ، ونفس لاتشبع ، وعلم لاينفع ، ودعوة لا يستجاب لها . . . »

آمين يا رسول الله .

وقال من ذكرت عنده فلم يصل على فدخل النار فأبعده الله . .

وقال من صلى على واحدة صلى الله عليه عشرا . .



حكايات عن عمر

ما أعظمه من راعٍ . . وما أعظمها رعية . .

وما أصدقها عقيدة أنجبت الراعى والرعية .

إذا كان الشاعر قد رأى أن من أعظم ما يبتلى به الفتى في أيام محنته أن يرى حسنا ما ليس بالحسن ! . . فإن أعظم من ذلك بلاء . . أن يرى الفتى ، أو ترى الأمم سيئا ما هو الحسن كل الحسن . . فتتنكر للعظمة في تاريخها ، وتنوء تحت ثقل ما تظنه نقط ضعف في فلسفتها . . وهي القوة كل القوة !

ويفسد خصومها عليها أمرها فيصورون مواقف المجد كأنها قضايا محرجة ، ويثيرون شكها في القيم الخالدة التي تنبع منها عظمتها وتشرق فيها روحها الحقيقية . .

وما أكثر ما زيف خصوم الإسلام تاريخنا ، وما أكثر ما نشروا من بلبلة حول أيامنا الخالدة ، وقيمنا التي ما زالت البشرية تتعثر محاولة الوصول إلى سفحها . .

وخلال قرون المحنة التي مر بها العالم الإسلامي ، في تخلفه المادي ، وانهزامه أمام حضارة أوروبا ، المنتشية بحديدها ونارها . . ومع

الإحساس بالهزيمة المادية ، استطاع علماء الغرب ومزيفوه أن يشككوا المثقفين المسلمين فى كثير من الحقائق ، على نحو جعل هؤلاء ينساقون خلف المبشرين والمستشرقين ، فيشكون فى أروع مواقفنا . . وبدلا من أن تكون هذه المواقف حجة لهم على خصوم الإسلام ، اذا بهم بتأثير السم الغربى يتخاذلون إلى حد الشك فى هذه المواقف والظن بأنها نقط ضعف تحتاج إلى تبرير . .

ومن هذه القضايا . . قضية الحكومة الإسلامية . . هل كانت عظمة هذا النظام نابعة من قوانينه ومن تكوينه الاجتماعى ، أم من عظمة حكامه وارتفاعهم إلى مستوى فوق طاقة البشر ؟

ومعنى الإجابة على السؤال بالشق الأول منه ، أن النظام صالح للتطبيق فى ذاته ، جدير بالمحاولة . . أما لو قلنا إن العظمة ترجع للرجال العظام ، رغم ما فى ذلك من إغراء لما فيه من تمجيد لمؤسسى الدين ورجاله الأوائل . . فإن ذلك يعنى أنه لا سبيل إلى عودة هذا النظام إلا بأن نفتش عن المهدى المنتظر الذى يملأها عدلا بعد أن ملئت ظلما . .

وقبل أن نجيب على هذا السؤال ، يجب أن نقرر حقيقة كثيراً ما يغفل عنها الدارسون . . ألا وهى نسبية الحكم على النظم . . فالذين عاشوا أيام النبوة والخلافة الرشيدة ، روعهم الانتقال إلى الحكم الأموى ، فانكروه ، وثاروا عليه ، ونقلوا عبر التاريخ غضبتهم هذه ،

حتى ليخيل للدراس اليوم أن معاوية كان طاغية أو حاكما مستبداً يظلم الأمة، وينكر عليها حقوقها . .

والحق أن الانتقال إلى عصر الأمويين ، بدا مروعا ومذهلا ولا يمكن قبوله للذين عاشوا عدل عمر وزهد علي . .

ولا شك أن الأمر يخالف هذه النتيجة التي نخرج بها من دراسة فترة الصدام الحاد بين الذين أرادوا للخلافة الراشدة أن تستمر ، وبين الذين رأوا أن الناس قد تغيروا ، وأن النظام الكامل لا يقوم على الحكومة الصالحة وحدها ، بل يقوم أولا على رعية صالحة . . وعرفوا انه لا معنى للعن الدهر . . فإن الناس تفسد وليس الدهر . .

نخطىء إذ نظلم هذا الحكم الذى وضع قاعدة ارتباط الحاكم بالمحكومين . . وصور ضرورة هذا الارتباط ومسئولية الحاكم فى المحافظة عليه ، إلى حد تشبيهه بأن : « لو كان بينى وبين الناس شعرة لما انقطعت . . إذا أرخوها شددتها ، وإذا شدوها أرخيتها . . »

وما أكثر الحكومات التى لا تكتفى بقطع الشعرة ، بل تنسف الجسور الحديدية بينها وبين شعوبها . .

وكما كان يقول فقهاء ومؤرخو المسلمين فى العصور التالية . . « لو رأيتم معاوية ، لقلتم أنه المهدى المنتظر »

فالحقيقة الأولى التى يجب أن نركز عليها ونعيها فى هذه الدراسة ، [هى] أن النظام الاسلامى الذى قام ابتداء من معاوية ، لم يكن أرقى

النظم فى عصره فحسب ، بل ولقرون عديدة . . بل ولا زالت أكثر جوانبه . وأكثر قيمه تتفوق على كل ما وصلت إليه البشرية فى تطورها . .

واننا نظلم هذا النظام عند ما نقارنه بفترة نادرة من عمر البشرية ، هى تلك الفترة التى عاشها المجتمع الإسلامى ، منذ أن هاجر الرسول إلى المدينة ليبنى لأول مرة مجتمعاً إسلامياً . . إلى أن قتل عمر . . أو إلى أن اختلف الناس حول عثمان . . ثم كانت تلك الفترة المخالفة لكل قوانين التطور عندما قامت حكومة على كرم الله وجهه ، ، عندما تفوقت الحكومة ربما لأول وآخر مرة ، على الشعب ، ، كانت حكومة « على » أعظم وأكبر من أن تطيقها أمته ، ، فملهم وملوه ، ، وكان يتعجل أشقاها تخلصه من هذه الرعية التى تظلم أمراءها !

حكومة عمر

من هنا فإن محاولة التعرف على خصائص هذه الفترة النادرة من عمر البشرية ، تتطلب دراسة حكومة عمر بن الخطاب ، والتكوين الاجتماعى للدولة التى حكمها . . ففيها وصل النظام إلى التطبيق الكامل ، بعد ماتم فى عهد الرسول وخليفته تشكيل المجتمع الإسلامى فى أرض العرب ، وتأمين حرية هذا المجتمع فى أن يفكر وأن ينظم وأن يحكم نفسه بنفسه ، ولا يمكن الحكم على مجتمع من المجتمعات إلا إذا أمن خطر التدخل الخارجى ، ولا يمكن أن تمتحن فلسفة إجتماعية إلا إذا أتيحت لها الفرصة لكى تمارس حقها فى التطبيق بحرية كاملة وأمن من خطر الإبادة الشاملة . .

وفى عهد عمر وصلت الدولة الإسلامية إلى قمة أمنها الداخلى الخارجى ، وأتيح للفلسفة الإسلامية أن تمتحن فى التطبيق ، لا من خلال العلاقات فى مجتمع المسلمين ، بل وكفلسفة توجه سلوك المؤمنين بها فى تعاملهم مع غير المؤمنين بالإسلام . .

ففى عهد عمر كان الاسلام ثائراً مغيراً ، وكان حاكما مسئولا ، ، وفى عهده ظهرت القضايا الاجتماعية والسياسية والاقتصادية ، التى امتحنت قدرة الفلسفة الاسلامية على التشريع لمواجهة ما يجدمن مشاكل

من هنا كان المؤرخون على حق فى تركيز اهتمامهم على دراسة الدولة العمرية ، فى دراستهم للفلسفة الاسلامية فى أكمل تطبيقاتها

ولكن المؤرخين يقعون فى خطأين أساسين :

● الأول هو دراسة الدولةالعمرية كظاهرة منفصلة ، وهى ليست أكثر من التطبيق الشامل للمبادىء التى رسخت وتشربتها النفوس وتخلقت بها فى المجتمع الاسلامى بالمدينة منذ العام الأول للهجرة

● الثانى ، ، هو استغراقهم فى تحليل شخصية عمر بن الخطاب رضى الله عنه . ومحاولة تفسير روعة الحكم بعظمة عمر وحدها

وإذا كانت الأمم المتعطشة للعدل ، لها العذر ، فى أن تتطلع إلى حلم لولا أنه حفظ بكل تفاصيله ، لما صدق الناس ، أن بشراً مثلهم ، قد تمتعوا بمثل هذا الحكم ، ،

البشرية معذورة إن اكتفت بنصيحة ابن عباس : أكثروا من ذكر عمر ، فإنكم إن ذكرتموه ذكرتم العدل ، وبذكر العدل تذكرون الله . . . »

ولكن المؤرخين ، والمسلمين منهم بالذات ، لا عذر لهم فى الوقوف

عند شخصية عمر ، فمصدر العظمة الحقيقى فى مجتمع عمر ينبعث من ثلاث حقائق :

● العقيده التى صاغت سلوك الأمة ، وسلوك الحاكم ، وحددت العلاقة بين الحاكم والأمة .

● الأمة التى كونها الاسلام ، وتعلمت على يد الرسول ، وعرفت واجباتها ، وحقوقها ، وما كانت لتقبل انحراف حاكم أو تفرط فى مثقال ذرة من حقوقها .

● شخصية عمر التى تشربت خلق الاسلام ، ووعت جوهره على يد خير البشر وسيد المرسلين . . فكان عمـــر نموذجا إسلاميا كاملا ، اتيحت له فرصة نادرة فى عمر التاريخ ، وهى تولى السلطة فترة زمنية كافية لامتحان أفضل فلسفة فى التطبيق ، بين ، وبجهود ، خير أمة أخرجت للناس . .

فالعهد العمرى هو مزاج هذه الحقائق الثلاث :

العقيـــدة

الأمـــة

الحاكم المسلم

أما العقيدة ، فإن مداد البحر لا يكفى للكتابة عنها .

وأما الحاكم المسلم ، فان ما يجب أن ينتبه إليه الدارس لشخصية

عمر هو الدور الذى لعبته العقيدة فى صياغة شخصيته وخلقه من جديد . . خياركم فى الجاهلية خياركم فى الإسلام . ولكن العقيدة تعيد صياغة المؤمن ، فتستأصل عناصر الشر ، وتتألق إمكانيات الخير ، وتفجر العبقرية الكامنة . .

وعمر المصارع فى الأسواق صاحب الخمر والنساء فى الجاهليه ، هو كله من صنع الإسلام ، صبغة الله ، ومن أحسن من الله صبغة ؟

عمر الذى صنع فى الجاهلية صنما من «عجوة» فلما جاع أكله . . يتفوق بالعقلية الإسلامية ، حتى يقطع جذع الشجرة الذى بايع المسلمون النبى تحته مخافة أن يفتن الناس ، ويقول للحجر الأسود : « والله إنى لأعلم أنك حجر لا تضر ولا تنفع ، ولولا أنى رأيت رسول الله يقبلك ما فعلت . . »

وعمر الذى زعموا أنه دفن ابنة له حية فى الجاهلية ، بالإسلام يصبح عمر أرق وأحن قلب عرفته البشرية بعد رسول الله . . حتى ليطوف ليلا على رعيته ، فإن سمع بكاء طفل لا ينام ، ولا يهدأ حتى يراجع أمه ويقرعها : « إنك لأم سوء ما بال طفلك يبكى ؟ » فترد المرأة كعادة رعية عمر فى الاحتجاج ، بمهاجمة رئيس الدولة . . « الله بيننا وبين عمر » !

فرض المرتبات للأطفال من سن الفطام ، فأنا أحاول أن أجبر الطفل على الفطام وهو يأبى . . »

يبكى عمر ويرتعد ويبيت الليل يؤنب نفسه : « ويلك ياعمر ، كم قتلت من أبناء المسلمين » .

وما أن لاح الفجر حتى هب ينادى : « لا تعجلوا اولادكم على الفطام .. قد فرضنا مرتبا لـكل طفل يولد فى الإسلام » ..

بالإسلام .. وحده .. تحول القلب الجاهلى إلى رحمة المسلم .. بإيمانه بدين الرحمة .

وحتى عند ما نقارن بين عمر قبل الإسلام ، وأى مسلم أو مسلمة نجد عمر هو الأضعف !

جارية عمر المسلمة .. أقوى من عمر .. يضربها حتى يكل ساعده، وتزهد نفسه ، وهى على إيمانها ، فيتركها قائلا : « انى اعتذر اليك .. أنى لم اتركك الاملالا .. » فترد جاريته بشجاعة المؤمنة : « هكذا فعل الله بك » .

وعندما توجه عمر إلى بيت اخته مهددا منذرا متوعدا .. تواجهه اخته باسلامها فتقهره ، بل وترفض أن تسلمه الصحيفة التى كتبت فيها الآيات ، الا ان اغتسل وتطهر .. ويخضع عمر ويذهب فيغتسل ويعود يقطر ماء .. ومع قطرات الماء يسجل اعترافه بتفوق ما فى الصحيفة عليه ، وتفوق من لهم حق تلاوتها عليه .. وعندئذ تسمح له أخته بأن يمس الصحيفة .. ويقهر إيمانها شركه وتنير الآيات قلبه .. فيصبح عمر المسلم كما يصفه رسول الله « ما سلك عمر طريقا الاسلك

الشيطان غيره »، «إن الشيطان يخاف من عمر »، « ما طلعت الشمس ولا غربت على رجل خير من عمر ».

ويقول ابن مسعود : « كان اسلام عمر فتحا ، وهجرته نصرا ، وإمارته رحمة . .

ويقول له زياد بن أبي سفيان : والله ما فى خلق الله من أتهيبه اكثر منك ».

ويتهم بعضهم خالدا بالثورة فيقول : اما وابن الخطاب حى فهيهات ».

و « عمر » أول من يعترف بفضل الإسلام عليه . . اذا أمر ابا سفيان ، فأطاع . . سجد لله شكرا وقال : الحمد لله الذى جعل ابن الخطاب يأمر ابا سفيان ببطح مكة فيطيع . . . ».

عمر هو نموذج الرجل العظيم ؛ تطلق العقيدة طاقات عظمته ، وتنير قلبه ، وتمنحه عبقرية المؤمن التى وصفها هو فأبدع : « لست بخب ، والخب لا يخدعنى ».

وما اظن أن البشرية قد تلمست يوما مثلما تتلمس اليوم السبيل إلى حاكم ليس بخب ، فلا يغرر بها ، ولا يمكر بها ، ولا الخب يخدعه ، فيضيع أمرها . .

رعية عمر

اما العامل الثالث فى تكوين عظمة العهد العمرى ، فهو كما قلنا ، رعية عمر . . تلك الرعية التى رباها رسول الله فى مجتمع المدينة ، والتى قاتلت معه فى سبيل الله وتعلمت على يديه ، أن تعرف الحق ، وتطالب بالحق ، وتفرض الحق . .

فهذه الحكايات عن عمر نحاول فيها أن نتلمس ملامح هذه الرعية . . الأمة التى صنعت مجتمعا هو اقرب محاولة للكمال . . اقرب مطابقة لآمال البشرية وأحلامها منذ أن انقسم الناس إلى حاكمين ومحكومين . .

جاءت اقمشة من اليمن ، فوزعت على المسلمين بالتساوى ، ونال عمر مثلما نال رجل الشارع . . وكان عمر طويلا يمشى بين الناس وكأنه راكب ! فظهر عمر على المنبر وقد ارتدى قميصا من هذا القماش، ثم خطب فدعا الناس إلى الجهاد . . فإذا بصوت ينطلق من ساحة المسجد يقول : « لاسمعا ولاطاعة ! » ويسأل عمر وسط صمت رهيب «لماذا ، يرحمك الله ؟ ! » فيقول الرجل فى غير تلعثم : « اخذت من القماش مثلما اخذنا فكيف فصلته قميصا وانت أطول منا . . لابد انك استأثرت علينا » .

ويجد عمر أن الرجل محق فى مساءلته ، فينادى أبنه عبد الله ويطالبه بالتفسير . . ويعلن عبد الله أنه تنازل عن نصيبه لابيه حتى يمكنه أن يفصل قميصا يستر عورته إذا ما صعد على المنبر يدبر أمور دولة ممتدة من البحر الأبيض إلى حدود الصين ! .

ويقتنع الرجل فيقول : « الآن نسمع . . ونطيع ! » . .

بهر المؤرخين موقف الحاكم فى القرن السابع ، يقبل المحاسبة ويدافع عن نفسه أمام محكمة الرأى العام . . فنسوا الرجل الذى تساءل واتهم وحاسب . . وخلع الطاعة لما توهم انحراف السلطة . . فى عصر عبدت فيه الحكام .. وساده الأكاسرة والقياصرة .. وشهد نيرون يحرق روما . . رغم تطور القانون الرومانى ! فلا يجد من يردعه أو يحاسبه

ولكن الرجل المسلم يرى أن شرعية الحكومة تسقط ، إذا ما استأثر رئيسها بنصف متر قماش ! . .

موقف عظيم أن يقبل الحاكم المحاسبة . .

وأعظم منه ، أمة تتمسك بالعدل وتصر عليه وتحاسب حاكمها وتواجهه بما يريبها . . وتطالبه بالتفسير .

* * *

يقف عمر على المنبر ، فيعلن أنه قرر عدم المغالاة فى المهور . . وهى فكرة راودت كثيراً من المصلحين . . ولكن امرأة من عامة المسلمين ترى فى اقتراح عمر اعتداء على حق المرأة ، ومخالفة لما تعتقد أنه تفسير الآية :

« وآتيتم إحداهن قنطارا فلا تأخذوا منه شيئا . . اتأخذونه بهتانا وإثما مبينا » . .

فترفع صوتها من مؤخرة المسجد قائلة :

ـ « ليس هذا من حقك ياعمر ! »

ويسأل عمر : « لماذا ؟ »

فتواجهه المرأة بالنص . . بالآية الكريمة فيتراجع عمر قائلا من فوق المنبر :

« أصابت امرأة واخطأ عمر » . . ثم يبكى قائلا :

« كل الناس أفقه منك ياعمر ؟ ! »

يقف المؤرخون عند عظمة الحاكم تخطئه امرأة من رعيته فينقد نفسه علنا ويتراجع عن قانون نوى إصداره ، بمجرد أن تشهر امرأة فى وجهه اعتراضا بعدم دستورية القانون . . الذى التزم بطاعته . .

عكف المؤرخون على هذا الموقف . . حتى أصبحت قولته «اخطأ عمر وأصابت امرأة» من الأقوال المأثورة الخالدة ولو انصفوا لخلدوا قولة المرأة «ليس هذا من حقك يا عمر ! !»

فأى عظمة أكبر من عظمة امرأة تجاهر برأيها فى مواجهة الحاكم ، ولا تقبل تشريعاته قضية مسلمة . .

وأى أمة تلك التى تعرف فيها المرأة حقوقها ، وتكتشف فورا تعارض القانون عند اعلانه مع هذه الحقوق فتدفع بعدم دستوريته . .

لو كانت أمة غير تلك التى رباها رسول الله ، ولو كان فقهاء المسلمين وقتها ، غير صحابته . . فمن يدرى ربما سكتوا عن معارضة عمر . . ولو تأخر الزمان . . فربما عكفوا على الاشادة بتطور الأسرة بعد تشريعات المهور ! !

* * *

خرج إلى خيام على بعد ٣ أميال من المدينة فرأى ناراً . . وقدرا (حلة) فوق النار وصبية يبكون . . سأل . . قالت امرأة : ضربنا البرد والليل ، قال : فما بال الصبية يبكون . . قالت : الجوع . . قال : وماذا فى القدر . . قالت : ماء اسكتهم به حتى يناموا . . الله بيننا وبين عمر . . فيقول رحمك الله وما يدرى عمر بكم . . تقول المرأة فى مواجهة رجل لا تعرفه : « سبحان الله ! يتولى أمرنا ويغفل عنا ؟ ؟ » ويفزع عمر مهرولا إلى بيت المال ويعود يحمل على كتفه الطعام فيطبخه بيده للصبية ، والمرأة لا تكف عن الحديث « جزاك الله خيراً . . أنت والله أولى بالحكم من أمير المؤمنين عمر » . . .

فيقول لها عمر « قولى خيراً . . إذا جئت غداً أمير المؤمنين ستجدينى هناك إن شاء الله » ورغم هذا التحذير - غير المقصود - من عمر ، لا تأبه المرأة وتستمر فى إبداء رأيها فى عمر ، وترشيح هذا الرجل ليحل محله . . لأنه لا يجوز أن يتولى الحكم من يغفل عن آلام رعاياه . .

كلاهما عظيم . . الحاكم الذى لا يغفل ويحمل الطعام للجائعين . . والمرأة البدوية التى تعرف مسئولية الحكم قبل ظهور نظريات الدولة الحارسة والمتدخلة بالف سنة ؟ !

* * *

وعاقب أبو موسى الأشعرى جنديا فى جيش العراق ، فحلق شعره فجمع الجندى الشعر وسافر به من العراق إلى المدينة بالحجاز . . ودخل على أمير المؤمنين فقذف بالشعر فى وجهه وقال : «هكذا يعاملنا رجالك»

تهلل عمر وقال « لأن يكون الناس كلهم فى مثل شجاعة هذا . . أحب إلى من كل ما فتحنا من بلاد » . .

ما أعظمك يا عمر . عرفت أنه بمثل هذا الجندى تفتح الأمصار وتنتصر الأمم . .

وماأعظمكأمة محمد ! يسافر الجندى من العراق للشام ليحتج أعنف ما يكون الاحتجاج . . على شعره الحليق . .

ولما وصل إلى العاصمة بساط كسرى (سجادة عجمى فاخرة) مساحتها ٣٦٠٠ ذراع مربع . . بعث بها الجند إلى أمير المؤمنين وقالوا ليكن لأمير المؤمنين وحده . . فأبى عمر أن يأخذه واستشار المسلمين . . فقام على بن أبى طالب عليه السلام ؛ فقال له : لماذا ينقلب علمك جهلا ، ويقينك شكا . . لماذا تتردد ، وليس لك من الدنيا إلا ما أعطيت فأمضيت ، أو لبست فأبليت ، أو أكلت فأفنيت . وإنك أن احتفظت به اليوم ، يأتى فى الغد من يستحل به ماليس له .

أى إن كانت حجة إفساد البساط بالتقسيم تبرر اليوم احتفاظ الحاكم به . . فسيأتى حكام يحتفظون بكل شىء بحجة أن عمر هو أيضاً استأثر . . فليمزق البساط وتبقى حقوق الشعوب غير ممزقة ولا مبددة .

قيل وأخذ على قطعة لم تكن أفضل القطع فباعها بعشرين ألفا ! .

عمر وخالد

تولى عمر الخلافة ، وخالد ، قائد عام القوات الإسلامية بالجبهة الغربية (الشام) . . وكان خالد وعمر على خلاف دائم خلال خلافة أبي بكر . .

كان عمر يرى أن خالدا يقوى الدولة ويضعف الشعب

ولكن كيف كان خلافهما . . كيف يختلف القادة من أمة محمد . . وأى قانون يحكم علاقتهم عندما يختلفون ؟

جاء خالد منتصراً مزهوا من حروب الردة ، وقد قضى على الفتنة ووحد الجزيرة العربية ، جاء يضع ريشات فى عمامته . . وفى طريقه إلى مقابلة أبى بكر مر بعمر ، فقام عمر ، فهاجمه ، وانتقده ، ثم خلع الريش فألقاه على الأرض وانتزع رمحه فحطمه وخالد لا يقاوم ولا يتكلم ، يظن أنه يفعل ذلك بأمر أبى بكر . . فيخضع ويطيع لأمر الدولة

ولكن لما دخل خالد على أبى بكر لم يعاتبه بل أثنى عليه وعينه على الجيش المتجه إلى العراق . . فخرج خالد متحديا لعمر وقال « هيا يا ابن (حنتمة) فعرف عمر أن أبا بكر أقره ، فانكسر ولم يتعرض له ولا رد عليه !

وعين أبو بكر خالدا قائدا على الجبهة الغربية ، مكان أبى عبيدة بن الجراح ، فكتب خالد إلى سلفه فى القيادة « أتانى كتاب خليفة رسول الله يامرنى بالسير إلى الشام وبالمقام على جندها ، والتولى لأمرها ، والله ما طلبت ذلك ولا أردته ، ولا كتبت إليه فيه . . وانت رحمك الله على حالك التى كنت عليها ، لا يعصى أمرك ، ولا يخالف رأيك ، ولا يقطع أمر دونك ، فانك سيد من سادات المسلمين ، لا ينكر فضلك ، ولا يستغنى عن رأيك . تمم الله ما بنا وبك من نعمة الإحسان ورحمنا واياك من عذاب النار » .

واستمر أبو عبيدة يقاتل تحت قيادة خالد ، فلما مات أبو بكر ، عزل عمر خالدا وكتب إلى أبى عبيدة يوليه القيادة العامة ؛ ووصل الخطاب أثناء حصار دمشق ، فكتم أبو عبيدة قرار تعيينه حتى تم الفتح ؛ فعاتبه خالد « يرحمك الله ما منعك أن تعلمنى حين جاءك » قال أبو عبيدة : « إنى كرهت أن أكسر عليك حربك ؛ وما سلطان الدنيا أريد ، ولا للدنيا أعمل ؛ وما ترى سيصير إلى زوال وانقطاع ؛ وإنما نحن إخوان ، وما يضر الرجل أن يليه أخوه فى دينه ودنياه » .

فى مثل هذه الامة ، كان عزل قائد الجيش ، ونقله من أعلى منصب

إلى مجرد جندى فى الجيش لا يحتاج إلى اجراءات أمن ولا إلى تدابير خاصة . . ولا مباغتة . .

واستمر خالد يفتح المدن ، وينتصر ، تحت قيادة أبى عبيدة ، حتى أصبح اسم خالد أسطورة . . ولو مات عمر وخالد فى الشام ، لربما تكرر ما حدث عندما مات عثمان ومعاوية على الشام . .

وبدأ خالد يتصرف تصرف قادة الجيوش المنتصرين . .

استحم بالكولونيا (خمر تركت فعادت غسولا غير خمر . .)

وزاره امراء العرب فأهداهم مالا أدهش عمر . . وقرر عزله . .

ولكن كيف ؟

أرسل « عمر » « بلالا » . . العبدالأسود . . لما أسلم كان سيده يربطه بحبل ويسلم الحبل للصبية يطوفون به طرقات المدينة ، ويوضع الحجر على صدره ويضربه سيده حتى يرحمه أبو بكر فيشتريه ويعتقه . .

أرسله عمر ليحاسب وينفذ قرار العزل فى أعظم قائد عسكرى عرفته البشرية منذ الاسكندر . .

وفى المسجد وأمام المسلمين ، سأل بلال خالدا عن مصدر المال الذى منحه لزائريه . . ودهش خالد ولم يجب ، عندئذ تقدم بلال خطوة أخرى فقال أن أمير المؤمنين قد أمر فى حالة رفضك الاجابة ، أن تقيد هكذا . . وفك عمامة خالد وقيد ذراعيه خلف ظهره بشالها . . وأعاد عليه السؤال ! .

ووسط سكون المسجد . . قال خالد : هو من مالى . . فيطلق بلال يديه ثم يعممه بيده وهو يقول : « نسمع ونطيع لولاتنا ، ونفخم ونخدم موالينا » .

وعزل خالد وجاء إلى المدينة ، وطبق عليه عمر قانون من أين لك هذا وصادر عشرين ألفا ظن أنها غير واضحة المصدر .

واختلى خالد بعمر فعاتبه على موقفه فقال عمر « يا خالد والله انك على كريم ، وإنك إلى لحبيب ، ولن تعاتبنى بعد اليوم على شىء أبداً » . وكان حريصا على أن يبرىء ساحة خالد ، ويؤكد أنه لم يعزله لخيانة . . « إنى لم أعزل خالدا عن سخط ولا خيانة ، ولكن الناس فتنوا به ، فخفت أن يوكلوا إليه ، ويبتلوا به ، فأحببت أن يعلموا أن الله هو الصانع ، وألا يكونو بعرض فتنة » .

وعندما مات خالد ، ولم يترك إلا فرسه وسلاحه ، نقد عمر نفسه فقال : «رحم الله أبا سليمان ، كان والله غير ما ظننا» .

ووقف مرة يعتذر عن خلع خالد ، فقاطعه ابن عم خالد : « والله ما أعذرت ياعمر ، ولقد نزعت عاملا استعمله رسول الله ، ووضعت لواء رفعه رسول الله ، وغمدت سيفا سـله الله ، وقطعت الرحم ، وحسدت ابن العم » .

كل هذا فى المسجد علانية على رؤوس الأشهاد . .

فرد أمير المؤمنين :

انك قريب القرابة ، حديث السن ، مغضب فى ابن عمك .

ولم يسمع بالقضاء القبض على ابن العم الطاعن فى تصرفات رئيس الدولة . .

ولم يتوقف المؤرخون طويلا عند هذا الطاعن الذى يعلن رأيه حتى ولو كان خطأ . .

وقالت أم خالد تنعيه : « أنت خير من ألف ألف من القوم » .

فقال عمر :

« صدقت والله إن كان لكذلك » . . .

وقال : « على مثل خالد فلتبك البواكى» . .

* * *

ولما انتشر الطاعون بالشام ، خاف على أبى عبيدة ، وكان على رأس الجيش هناك . . فهو « أمين الأمة » وكان يرشحه للخلافة بعده، فأراد أن يستدعيه للمدينة لينقذه من الوباء ، ولكنه كان يعرف أى نوع من الرجال ، أمة محمد ، فى تلك الأيام . . وما كان أبو عبيدة ليقبل الهرب من الوباء ، تاركا جنده ، فتحايل عمر ، ولعلها المرة الوحيدة التى لم يجاهر فيها برأيه ، كتب يحتال على انقاذ أبى عبيدة « أما بعد . . فإنى قد عرضت لى إليك حاجة أريد أن أشافهك فيها ، فعزمت عليك ، إذا نظرت فى كتابى هذا ألا تضعه من يدك حتى تقبل إلى » . . حجة وأمر يخلى كل مسئول من مسئوليته ، فيطير من أبشع طاعون عرفه العرب حتى ذلك الوقت . . ولكن هيهات ..قرأ أبو عبيدة الكتاب وقال يغفر الله لأمير المؤمنين . . وكتب إليه « أنى قد عرفت

حاجتك إلى وإنى فى جنده من المسلمين ، لا أجد بنفسى رغبة عنهم ، فلست أريد فراقهم فدعنى فى جندى » .

فلما وصل الكتاب إلى عمر بكى . .

ومات أبو عبيدة بالطاعون . . كما توقع ، وكما توقع له عمر . . وكانت خسارة المسلمين بوفاته فادحة . . ولكن أى خسارة للقيم وللبشرية كانت ستقع ، لو أن صحابة رسول الله ، قبلوا أن ينجو القائد بنفسه تاركا جنده للموت والوباء !

* * *

كانت علاقته بالرعية ، اتفاقا غير مكتوب ، صاغت بنوده العقيدة الإسلامية ، وأمة رباها الرسول وعلمها ، وصحابة قبسوا من نور النبوة قدر ما أتيح لكل منهم ، فهم لا يرضون من عمر انحرافا ، ولا يكتمونه نصيحة ، وهو لا يتردد فى مشورتهم ، ولا يطالب رعيته بأكثر مما يلزم به نفسه . .

لما خدع المصريون ابنه ! وسقوه الخمر ، وأفاق فى الصباح فذهب إلى عمرو بن العاص ، وطلب منه تنفيذ الحد عليه ، وهدده بإبلاغ أبيه لو أعفاه من العقوبة ! . . وربما هى المرة الوحيدة التى استغل فيها ابن لعمر نفوذ أبيه . . ولكن ليطبق عليه القانون ! . . وخاف عمرو ابن العاص من التهديد فجلد ابن عمر ولكن فى داخل الدار .. وبلغ الأمر عمر بن الخطاب فكتب خطابه القاسى إلى عمرو .. إلى العاصى بن العاصى الخ . . ثم أمر بأن يرسل ابنه على أعنف الصور إلى المدينة وهناك نفذ عليه القانون . . ثم مات ابنه . . وقيل من شدة الضرب .

مثل هذا الحاكم لا يطمع منحرف فى الإفلات من عقوبته ، ولا يخشى مواطن أن يشكو إليه كائنا من كان من ولاته .. فالذى لا يضن بابنه ، لن يضن بغيره فى حدود الله .. ومثل هذا الوالى لا يتردد المصرى أن يذهب من مصر إلى المدينة يشكو له ضربات من عصا نالها من ابن فاتح مصر فى القرن السابع الميلادى .. ولا يجرؤ عمرو على الاعتراض والمصرى يرفع عصا أمير المؤمنين ويضرب بها ابن حاكم مصر ..

كان إذا أراد سن عقوبة أو تحريم شىء ، بدأ بأهله فقال لهم : «إن الناس ينظرون إليكم نظرة الطائر للحم ، فإن سمعت أن أحدكم فعله .. ضاعفت له العقوبة

* * *

فهمه للسلطة أنها الإحساس بما تحسه الجماهير «كيف ألى أمورهم إن لم يمسنى ما يمسهم ؟ !»

كان أبيض اللون ، فلما جاء عام المجاعة ، ومنع نفسه من أكل اللحم والسمن واللبن ، اسود جلده ..

رأى فى يد ابنه الصغير بطيخة فى عام المجاعة .. فصاح فيه : «بخ ! بخ ! يا ابن أمير المؤمنين ، تأكل الفاكهة والمسلمون جائعون !»

فبكى الغلام وجرى هاربا .. وشهد الناس أنه اشتراها بحفنة من نوى .

واشترى ابنه عبد الله ماشية وتركها ترعى فى الأرض المؤممة مثل

سائر المسلمين ، ولكنه أمر ببيعها ، والاحتفاظ برأس ماله فقط ورد الفرق إلى بيت المسلمين . . : « يقول الناس إبل ابن أمير المؤمنين . . تنحوا لإبل أمير المؤمنين ، فترعى إبلك وتجوع إبل المسلمين . . وكان ينصح الوالى الذى يدعى أن ثروته قد نمت من التجارة . . أن يجلس بجوار أبيه وأمه ويتاجر . ، ليرى إن كان يربح أو لا . .

مثل هذا الوالى من حقه أن يلق جابر بن عبد الله يحمل رطلا من اللحم فيسأله ماهذا . . ويعتذر جابر « لحماً اشتهيته فاشتريته » فيرد أمير الزاهدين : « أكلما اشتهيت . . اشتريت ؟ ! »

وويل لأمة كلما اشتهى حكامها . . اشتروا . .

كان يكره أن ينفصل الحاكم عن الشعب مهما كانت صورة هذا الانفصال « بئس الوالى أنا إن أكلت أطايبها وأطعمت الناس عظامها».

دخل على حفصة فقدمت له طبقا فى مرق بارد ، وصبت فى (الشوربه) بعض الزيت . .

فقال لها : أدمان (غموسين) فى طبق واحد ؟ لا اذوقه حتى ألقى الله عز وجل »

ورفض أن يأكل صنفاً من الطعام لايستطيع كل المسلمين أكله.

* * *

كان أبغض ما يبغض الحجاب بين الحاكم والمحكومين . . أو انفصال الحاكم عن الشعب . .

سمع أن عمرو بن العاص بنى منبراً عالياً يخطب منه ، فكتب إليه: «ألا يكفيك أن تقف والمسلمون عند قدميك .. وأمره أن يكسره . .

وكتب له عمرو بن العاص ، يبشره بفتح مصر وبناء الفسطاط ، وقال أن الجند قد بنوا له داراً فى مصر . ، فكتب إليه : كيف يكون لرجل فى الحجاز بيت فى مصر . . ؟ ! اجعله سوقا للمسلمين » ..

سمع أن سعد بن أبى وقاص بنى دارا ، وكانت بالسوق ، فأراد أن يحجب عن نفسه أصوات الناس بالسوق ، فطلب من المهندس أن يجعل الباب مانعاً للصوت . .

وبلغ الأمر «عمر» . . فأرسل إليه محمد بن مسلمة وقال له : إذهب إلى القصر فأحرق بابه . . ثم عد إلى . »

وحمله رسالة تقول : « بلغنى أنك بنيت قصراً واتخذته حصناً ، ويسمى قصر سعد ، وجعلت بينك وبين الناس بابا . . (!) أنه ليس بقصرك ولكنه قصر الخبال . . أغلقه وانزل منزلا مما يلى بيوت الأموال ولا تجعل على قصرك بابا يمنع الناس من دخـــوله وتنفيهم به عن حقوقهم .

وتبين افتراء أهل العراق على سعد . .

كان قد نشأ جيل لم يعش نور النبوة ، ولا أدبه رسول الله . . وبدأت خيوط مأساة النهاية تنسج . .

قضاة

اشترى عمر فرسا من تاجر وأخذه ليجر به فأصيب الحصان . . فأراد عمر أن يرجعه . . وبدلا من أن يقبل التاجر شاكرا مؤكدا أن الحصان مصاب منذ أن ولد . . وأن اصابته وراثية ويبدى استعداده لدفع التعويض عن الازعاج الذى سببه حصانه للحكومة !.. وتعريض حياة الدولة للخطر . .

بالعكس . . رفض التاجر أن يسترد الحصان

فطلب عمر أن يحتكما . . واختار التاجر « شريكا » العراقى ليقضى بينهما . .

وذهبا اليه واستمع للقصة ثم حكم ضد أمير المؤمنين بنص قانونى مازال صالحا فى أرقى القوانين المعاصرة : « خذ ماابتعت أوردكما استلمت » ويسر عمر فيقول : « وهل القضاء الا هكذا ؟ » . . .

ثم عينه قاضيا على الكوفة . .

أيهما أروع . . ؟ ! . . القاضى يحكم على أمير المؤمنين أم أمير المؤمنين يرضيه أن يحكم عليه . . ويطمئن للقاضى يحكم على رئيس الدولة ، فيوليه القضاء ؟ . .

العقيدة هى الأعظم والأسمى . . لأنها علمت القاضى قول الحق . . وعلمت الحاكم قبوله . .

وعندما اشتكى اليهودى من الإمام على رضى الله عنه ، قال عمر لعلى وكان يجلس بجوراه : قم يا « ابا الحسن » فقف إلى جانب خصمك » . . حتى تتحقق المساواة امام القضاء . .

فظهر الغضب فى وجه على وهو ينفذ . . فسأله عمر لماذا غضبت يا على :

يقول الإمام : «ناديتنى بالكنية وهو تعظيم لم تمنحة لخصمى ! » .

وبعد ذلك بألف سنة كان النبلاء فى أوروبا يحاكمون أمام قضاء خاص يشكل من طبقتهم . .

رضى الله عن صحابة رسوله . . بهم شرفت البشرية . . ولولاهم لما كان لوجود البشرية معنى . . ولا كان ثمة أمل فى عدل . .

سأل عمر صاحب قضية بماذا حكم عليك زيد . .

قال بكذا . .

قال عمر لوكنت أنا لحكمت لك . .

قال صاحب القضية فرحا : فما الذى يمنعك أن ترده وأنت امير المؤمنين ؟ ! . . .

قال :

لوكنت أرده لكتاب الله أو سنة رسوله لرددته ، ولكنه رأى ارتأيته . . والرأى مشترك . .

* * *

وأبدى رأيا فصاح رجل : « هذا ما رأى الله ورأى عمر » .

فانتهره عمر وقال : « بئس ما قلت . . هذا ما رأى عمر فإن يكن صوابا فمن الله ، وإن يكن خطأ فمن عمر » .

ووجم برهة ثم قال : « السنة ما سنه الله ورسوله . . لاتجعلوا خطأ الرأى سنة للأمة » .

* * *

دخل عليه قاتل اخيه فقال له عمر : «والله لا أحبك حتى تحب الأرض الدم المراق عليها . . » .

وكان القاتل مسلما ثم ارتد ، وقتل احب الناس لعمر . . ثم عاد فأسلم ، فعادت اليه حقوقه كمواطن كاملة . . واستحال — بموجب الدستور الإسلامى — على عمر أن يتخذ ضده أى اجراء . .

ويعرف الرجل حقوقه التى كفلها له الإسلام فيسأل أمير المؤمنين ردا على قولته « والله لا أحبك حتى تحب الأرض الدم المراق عليها . . يسأله : « فهل يمنعنى ذلك حقا من حقوقى ؟ ! » .

ويجيب عمر : « لا والله ! » . .

فيرد القاتل : « فلا أبالى . . انما يبكى على الحب النساء ! » .

* * *

العدل . . يموت !

وبعد أن ملأ الدنيا عدلا . . لم يرض بالعدل الذى صنع . . فأعلن عن برنامج خطير . . « لو عشت لأخذت فضول أموال الأغنياء فرددتها على الفقراء . . ليس أحد أحق بهذا المال من أحد . . سألحق أواخر الناس بأوائلها . . وليأتين المرأة فى صنعاء نصيبها من هذا المال . ولأطوفن بالأمصار ، فأقيم بكل قطر شهرين . . فإنى أعلم أن للناس حوائج تقطع دونى ، أما عمالهم فلا يرفعونها إلى ، وأما الناس فلا يصلون إلى »

وكان برنامجه أكبر مما يتيح التاريخ . . وأعظم من طاقة الأمة ، فقد تبدل الناس غير الناس

سأل أحدهم على بن أبى طالب : لما اختلف الناس عليك ، ولم يختلفوا على عمر ؟ . . فأجابه . . لأن عمر كان خليفة على مثلى ، وأنا خليفة على مثلك . .

وكان حتما أن يموت عمر . .

حاوره لؤلؤة غلام فارسى مملوك للمغيرة بن شعبة . . ولم يعجب

رأى عمر ، العبد الأسير . طالبه عمر أن يصنع رحى تدور بالريح كان الغلام يزعم أنه قادر على صنعها ، فرد المملوك « لا صنعن لك رحى يتحدث بها المشرق والمغرب » وفهم عمر التهديد فقال « توعدنى العبد » . .

ولم يقبض على العبد . . ولا حقق معه . . ولو حدث ، لعرف الجواب على سؤال حائر حتى اليوم حول المؤامرة التى دبرت لقتل عمر وكان أطرافها الفرس واليهود . . ولربما نجا عمر من خنجر لؤلؤة . . وكم كانت خساره البشرية فادحة بموت عمر . . ولكن خسارتها كانت ستكون أفدح ، لو أن الاسلام قبل أن يؤخذ الناس بالظنون ، أو أن يعاقبوا قبل أن يذنبوا . .

ونفذ العبد وعده . . وقتل عمر . .

وقبل أن يموت سأل عن قاتله فلما تاكد أنه ليس عربيا ولا مسلما حمد الله وقال « ما كانت العرب لتقتلنى . . الحمد الله لن يحاجينى عند الله بسجدة سجدها قط ! . . . »

وقال لابنه استأذن من عائشة أن أدفن مع رسول الله . . ثم أعد عليها الاستئذان بعد موتى ، فربما تأذن لى الآن لسلطانى . .

وبكت عائشة وقالت . والله كنت أريده لنفسى ، ولأوثرنه به اليوم على نفسى . .

وأمر ابنه أن ينزله على الارض ويضع خده على الأرض . لعل

الله ينظر إلىّ فيرحمني .. ليت أمي لم تلدني .. ليتني كنت نسيا منسيا ! ويلي إن لم يغفر الله لي » . .

بكاه الناس جميعاً .. وما زالوا يبكونه .. وقال ابن مسعود : « كان حصنا للاسلام ، يدخل الناس فيه ولا يخرجون ، فلما مات انثلم الحصن ، فالناس يخرجون من الاسلام » . .

وقال أبو طلحة « ما من أهل بيت إلا ودخل عليهم بقتل عمر نقص في دينهم وفي دنياهم » . . وبكى سعيد بن زيد قائلا « على الاسلام أبكي .. إن موت عمر ثلم الاســـلام ثلمة لا تسد إلى يوم القيامة ».

وحملوا جثمانه فوقفوا به على باب عائشة وقال عبد الله بن عمر : « يستأذن عمر بن الخطاب أن يدفن مع صاحبيه » . . وردت عائشة : « ادخل بسلام » . .

ووضعوا رأسه عند كتفي أبي بكر ، كما كانوا قد وضعوا رأس أبي بكر عند كتفي رسول الله . .

المسلمون والسياسة

من الذى يحكم المسلمين ؟

وكيف يحكم ؟

ومن الذى يختار الحاكم ؟

من هم أهل الحل والعقد .

أى من الذى يملك حق ترشيح الحاكم وانتخابه . .

وبعد أن يحكم . . من الذى يحاسبه . . وما مدى حق الشعب فى محاكمته . . وهل يجوز عزله ؟

وهل يبيح الإسلام الثورة إذا ما استحال عزل الحاكم المنحرف بالطرق الدستورية . . ؟

بل ومتى يفرض الإسلام الثورة فرضا ، ويعاقب المسلمين إن سكتوا على الظلم ورضوا بانحراف المسئولين ؟ . .

هذه القضايا كانت تبدو لدارسى العلوم السياسية ، وكأنها ولدت فى القرنين الثامن عشر والتاسع عشر ، ولم يعرفها إلا الأوروبيون ! وأنها إن كانت قد وجدت على نحو ما ، ففى تاريخ الإغريق والرومان .

وساد الاعتقاد فترة أن المسلم الذى يفتش عن هذه القضايا فى تاريخنا الإسلامى ، إنما يحاول أن يحمل النصوص مالا تطيق ، وأن يتعسف فى تفسير الأحداث والمواقف التاريخية . . كمن يحاول أن يجد القنبلة الذرية فى آية : « ومن يفعل مثقال ذرة . . . »

وقد نجح المبشرون والدجالون فى تصوير الدولة الإسلامية بصورة تشبه الحكم البابوى ، فالخليفة ظل الله على الأرض ، يحكم بموجب الحق الالهى للملوك . . مستعيناً بسيف المعز وذهبه والعصبية القبلية فلا سياسة ولا قضايا سياسية . .

إلا أنه من المستحيل تصور استمرار الحضارة الإسلامية لاكثر من ألف سنة ، وهى تحكم العديد من الشعوب ، وتتمثل حضارات

هذه الشعوب ، فتطورها وتثريها فى تراثها الخالد ، ومن المستحيل أن تدور فى داخلها كل هذه الخلافات ، وتسفك كل هذه الدماء . . دون أن ينعكس ذلك فى شكل صراع سياسى . . ودون أن يفرز نظريات سياسية تبرر التقاتل وتسببه . . فمهما تكن قيمة الأسباب المادية لاختلاف الناس وتصارعهم فلا بد لهذا الخلاف من أن يعبر عن نفسه فى صورة نظريات وآراء وأفكار ومبادىء . . وما دام الخلاف يدور حول السلطة ، وهدف القتال هو الوصول إلى هذه السلطة فهو خلاف سياسى ، وهى نظريات سياسية ، تنتصر دائما النظرية الأقدر على شحذ سيوف أنصارها . .

فلما تعفف الهاشمى رضى الله عنه ، عن مباغتة جيش الخليفة ليلا خوفا من اراقة دماء المسلمين ، سأله قائد جنده دهشا « تريد الملك . . وتأبى القتل ؟ ! » . . وكان أن قتل الهاشمى ، وبقى الملك لخصمه . .

لابد إذن أن المسلمين كانت لهم فى دولتهم قضايا سياسية ، ولابد أن حضارتهم قد طرحت فكراً سياسياً ونظريات سياسية تدور حول السلطة ، الحكومة والشعب . . والعلاقة بينهما . .

ومن هنا فقد نشط بعض الباحثين فى السنين الأخيرة إلى البحث عن هذه النظريات . .

وحديثنا هنا يتناول كتابين :

نصوص الفكر السياسى الاسلامى » وهو تجميع نصوص من

الفقه الاسلامى ، جمعها « يوسف ايبش » وأحدث هذه النصوص لا يقل عمره عن تسعمائة سنة ! » ومع ذلك فهى تعكس خصوبة الفكر الاسلامى وتفتحه بغير حد ، واقدامه على المناقشة الحرة ؛ واحترام الدليل العقلى . .

والكتاب الثانى من تأليف الدكتور « ضياء الدين الريس » وهو النظريات السياسية الاسلامية » يحلل فيه النصوص ؛ ويقدم - ربما لاول مرة - دراسة متكاملة عن النظريات السياسية فى الاسلام . . بعد أن الح عليه سؤال ، طالما فكر فيه خلال دراسته لمادة العلوم السياسية فى أوروبا : « أين الفكر الاسلامى من هذا الانتاج الانسانى العام ، الم يكن فى الاسلام مفكرون سياسيون ؟ الم ينتج الاسلام تفكيراً سياسياً ؟

وعلى زماننا نحن الذين درسنا العلوم السياسية فى الجامعات المصرية ، كنا نجد فى كتب النظم السياسية فصلا خجولا عن الاسلام ، وهو فى الغالب منقول عن كتاب لمستشرق ، وما أكثر اجتهادات المستشرقين الخاطئة والمضللة . . ودائما أبدا كان هذا الفصل يلغى من المقرر ولا يمتحن فيه الطلبة . . بينما تصدع الرؤوس بنظريات لوك وهوبز . . وغـــيرهما ممن لا يصلون إلى مرتبة تلميذ فقيه من فقهاء المسلمين . .

ولقد تعودنا بتأثير الغزو الفكرى ، أن ننظر إلى التاريخ وكأنه موظف فى بلاط الحضارة الغربية ، فالحضارة تبدأ بالاغريق . وتنتهى

بالامريكان . . أما حضارات آسيا وأفريقيا وأمريكا الجنوبية . فلا وجود لها ولا تأثير لها على التطور الحضارى للانسان . . لأن الانسان عندهم هو الانسان الغربى وحده . . وبقية البشر هم مادة هذا الإنسان ووسيلته فى تشكيل الحضارة . . حتى ليصعب على الدارس الناشىء أن يتصور منشأ للعلوم إلا فى الغرب . . ويصعب أن يتصور وجود تيارات سياسية فى الفكر الاسلامى ..

ويمكن أن نقول أن الفكر السياسى ، بصفة عامة ، يلعب أحد دورين :

تبرير النظام القائم .. فلسفته وتنظيره والدفاع عنه .. أى خلق القاعدة الفكرية التى يستند إليها وجوده .. استنادا يقوم على الاقتناع الحر الواعى للجماهير . .

وليست هذه المهمة - دائما - بالمهمة المحافظة أو الرجعية . . بل هى فى مرحلة من المراحل تصبح مهمة تقدمية وثورية . . مادام النظام الذى تفلسفه وتدافع عنه ثوريا وتقدميا . .

● والمهمة الثانية للفكر السياسى ، هى الثورة على النظام القائم . . التشكيك فى شرعيته ، وإسقاط منطقه ، والدعوة للثورة عليه بتجريده من الشرعية ، وعزله عن اقتناع الجماهير . .

وأيضا ليس هذا الدور دائما بالدور التقدمى أو الثورى . . فقد يكون رجعيا أو مخربا . .

ويجب أن نعرف أن النظام السياسى ، لا يمكن تصوره قائما ومستقرا بغير استناد إلى قدر من الفكر السياسى يعطى انصاره مبررا ، ولو شكلى ، لدفاعهم عنه ، ويعطى الجماهير مبررا لتقبله . .

فمهما تكن دموية النظام ، فلا بد له من منطق .. ومهما تكن نوايا خصومه فلا بد لهم من منطق .. ذلك هو مايسمى عادة بالفكر السياسى إذا ما جنحنا إلى التبسيط الشديد ..

والفكر السياسى الاسلامى قد احتوى كل الآراء .. المحافظة والتقدمية والفوضوية .. وتصارعت داخل إطار الحضارة الاسلامية كل هذه الآراء فى فترة الازدهار ، فى جو من حرية الفكر واحترام الرأى يصعب تصديقه .. حتى ليمكن القول أن الفكر الاسلامى ، لم يعرف ما يسمى بالأرض الحرام أبداً ؛ بل ما كان المفكر الإسلامى يتحرج من مناقشة أى فرض ، أو تصور أى وضع ، أو طرح أية قضية للجدل والتجريح والطعن وصولا إلى الحقيقة والاقتناع العقلى . .

ولا شك أن الفكر الإسلامى قد اكتسب خصوبة ونماء من خلال تعرفه بالفلسفات العالمية . ولكن قاعدة حرية التفكير والتشجيع عليه ، جزء من صميم العقيدة الاسلامية ، حتى أن المسلمين الأوائل يحدثون رسول الله عن شك يجدونه فى نفوسهم ، فيقول عليه الصلاة والسلام أنه محض الايمان .

وتأمل كيف أعلن الامام أبو الحسن الأشعرى (٨٨٣ — ٩٤٢م) انشقاقه عن المعتزله ، ففيها صورة لما يجرى فى « هايد بارك » . . كما

تكشف القصة كيف كان المسجد ميدانا للصراع الفكرى والفلسفى . .

« كان أبو الحسن الأشعرى أول أمره معتزليا » ولكنه سأل أستاذه فى قضية تتعلق بمسئولية الانسان عن افعاله ، ولم يستطع أستاذه أن يقدم له جوابا مقنعا . . وقرر الأشعرى الانشقاق . . فكيف أعلن ذلك ؟

اعتلى مقعدا فى مسجد البصرة ونادى بأعلى صوته : « من عرفنى فقد عرفنى ، ومن لم يعرفنى فأنا أعرفه بنفسى ، أنا فلان ابن فلان . كنت أقول بخلق القرآن ، وان الله لاتراه الأبصار ، وأن الأفعال الشر أنا أفعلها ، وأنا تائب مقلع مقتعد للرد على المعتزلة ، مخرج لفضائحهم ، كاشف لمعايبهم » .

وكما هى العادة دائما كان « المراجع » الأشعرى أو « التحريض » كما يقال بلغة اليوم ، هو أشد خصوم المعتزلة « الحرفيين » وأقواهم حجة ضدهم . .

غير أن النصوص التى نعرضها تتوقف كثيراً عند هذه القضايا الفلسفية ، البالغة فى الخطورة . والتى لو فكر عقل أوروبى بها سرا بعد حادثة الأشعرى بخمسة قرون ، لمات رعبا من محاكم التفتيش . . ولكن الأشعرى يعلنها بأعلى صوته فى مسجد البصرة . . ويقعد للنقاش فيها . . ذلك أن الفكر الإسلامى ، لا يعترف بقيد عليه ، ولا يتخوف من ارتياد المجهول مادام قد سلحنا الله بالعقل وهدانا بالوحى . .

لماذا النظريات ؟

ويرجع الدكتور الريس نشأة النظريات السياسية فى الفكر الإسلامى إلى ثلاثة عوامل :

● أقام المسلمون نظاما سياسيا منذ أن استقر الاسلام بالمدينة..

وهذه قضية لا نظن اننا بحاجة إلى جهد لإثباتها ، وقد مارست حكومة النبى فى المدينة كافة الوظائف التى يطالب الناس بها الدولة الحديثة . . أو الدولة بصفة عامة منذ أن قامت الحكومات فى المجتمع البشرى . .

ولا شك أن القول بأن حكومة النبى كانت صفة عارضة أو ثانوية، وأن رسالته كانت دينية بحتة بمعنى أنها تنظم علاقة الانسان بالسماء ، قول ضعيف لا أساس له من التاريخ الاسلامى ، وهو قول غريب نبت غريبا وذوى غريبا . . فالمجتمع الاسلامى فى المدينة مارس حقوق السيادة ازاء القوى الخارجية ، فقاتلها ، وسالمها ، وعاهدها وأسفر إليها واستقبل سفاراتها . .

ومارس ساطات السيادة على أفراده فى جميع شئونهم العقائدية والشخصية والمالية والقانونية . .

وحول هذه الدولة ، وفى اطار هذا النظام - كان لا بد من ظهور الفكر السياسى . .

● السبب الثانى لظهور الفكر السياسى أو النظريات السياسية فى الإسلام

هو حق الاجتهاد . . فقد أعترف به مصـــدراً من مصادر القانون الاسلامي وهو مبدأ انفرد لإسلام بتقريره لم يسبق إليه ، ولم يلحق فيه أيضا إلا بعد مضى عهود طويلة بعد نحو ألف عام .. أى فى مطلع عهد النهضة فى أوربا حين بدأت حركة الاصلاح الدينى ونهض «لوثر» وأتباعه ينادون بحق الفرد فى فهم النصوص المأثورة ، وتكوين حكم لنفسه .

ووجه الخطورة فى هذا المبدأ الذى سنه الاسلام هو إقامة الصلة الدائمة بين تعاليم السماء وسلوك الانسان فى هذه الدنيا ، فإن مشاكل الحياة المتجددة والمتغيرة باستمرار ، ستضع الانسان أمام أحد أمرين :

• إما العجز عن استنباط حل لها ، لأنها لم ترد بحرفيتها فى النصوص ، أو لأن الحل الذى تقدمه الطائفة المحتكرة لتفسير النصوص الدينية . . وهى الكهنة . . تقدم حلولا لا ترضى أهل العصر أو لا تحل مشاكلهم . .

• أو أن يقطع الانسان صلته بالنصوص ، ويقيم لنفسه منهجا وتفكيراً منفصلا عن الدين ، وعلى عداء معه . . بل ويبدأ من نقض الدين . . وهو ما حدث فى الغرب . . بسبب احتكار الاكليروس لحق تفسير النصوص . . ومن طبيعة الحياة ، أن تتخطى حركتها طاقات أى فئة بعينها على التجدد ، فيتحتم أن تحل محلها باستمرار قوى جديدة ، فإن سد الطريق على هذه القوى ـ انفجر المجتمع أو تفسخ . .

أما الإسلام فقد ألغى فكرة الاكليروس . وأباح حق تفسير النصوص لكل قادر عليه من أمة المسلمين ، فأتاح للفكر المتطور المتجدد ، أن يتابع ويلاحق تطورات الحياة ، واحتياجات الناس . . واستحال بذلك تصور قيام تناقض لا يحل بين الدين والحياة ..

ولقد ذهب الاسلام فى الحض على التفكير ، واستنباط الرأى الذى يواجه كل ما يجد من جديد فى الحياة . . إلى حد الاثابة ولو على التفكير الخطأ . . فالحديث يقول : « للمجتهد ان أصاب أجران وأن أخطأ أجر »

وليس فى تاريخ الفكر مثل هذا الاغراء بالتفكير الحر .. فالخطأ ليس كفرا ولا انحرافا .. بل يثاب عليه المفكر أو المجتهد فما عذر المسلم إن قبل الغاء عقله أو اسقاط حقه فى التفكير ..

• والعامل الثالث الذى أدى إلى نشأة الفكر السياسى فى الاسلام .. هو تفويض الامة فى اختيار شكل الحكومة : فالإسلام قد رسم حدود الدين ، ونظم عبادة المسلمين وفى كثير من التفاصيل ، وأرسى القيم التى يقوم عليها سلوكهم ، ونظرتهم للوجود وللانسان : وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يعلم المسلمين أدق تفاصيل السلوك . ولكن إرادة الله شاءت أن يتوفى رسوله دون أن يضع قاعدة أو نظاما ما للحكم .. وتلك هى معجزة الاسلام .. فلو حدد رسول الله شكل الخلافة لالتزم به المسلمون ، وأصبح التبديل فيه أو تغييره خروجا على أوامر الدين ..

والاسلام صالح لكل زمان ومكان ، وتجربه التاريخ تثبت أنه لا يوجد فى تاريخ البشر نظامان للحكم متطابقان تمام التطابق . فلكل مجتمع ظروفه وقوانينه ، ولكل عصر مقتضياته ومفاهيمه واحتياجاته .. فما يتنافى مع صلاحية الاسلام لكل زمان ومكان ، وضع شكل جامد محدد لنظام الحكم .. ومن هنا كان اطلاق الاسلام حرية الاختيار للأمة ، لتصوغ وفق تعاليمه مقضيات عصرها ، وما يتفق مع مصالحها وامكانياتها ـ الاشكال الدستورية التى تحدد نظام الحكم فى مجتمعها ..

والذين عجزوا عن فهم هذه الحكمة فى رد الأمر للأمة حاولوا أن يجدوا تفسيراً لها .. كيف وضع الاسلام قواعد محددة لأدق تفاصيل الحياة .. ثم نراه يترك هذه القضية الهامة (كنظام الحكم) بدون تحديد ..

واجتهد المستشرقون فى التفسير ، يقول الدكتور الريس « زعموا أن مرض الرسول الأخير قد حال بينه وبين ذلك » ولم يسألوا أنفسهم وما الذى منع الرسول طوال السنين التى عاشها فى المدينة قبل مرضه الأخير ، من أن يضع هذا النظام ويلزم الصحابة به ؟ !

ويزعم « ارنولد » أن النبى حرص على عدم مخالفة التقاليدالعربية التى كانت تترك القبيلة حرة فى اختيار رئيسها ! وينفى «الدكتور الريس» أن تكون هذه تقاليد عامة أو موحدة فى القبائل ، كما ينفى خضوع الاسلام للتقاليد القبلية وهو الذى جاء يمحو التنظيم القبلى

والأحاديث الصحيحة عديدة عن وصف الرسول للخلافة من بعده وتنبؤه بتطورها ووصيته لمن يتولى أمور المسلمين ، ووصيته للمسلمين فى سلوكهم مع الامام .. كل ذلك يؤكد أنه لا النبي ولا المسلمون كانوا غافلين عن هذه القضية ، وعن حتمية مواجهتها يوما ما .. فهى لم تفاجئهم عند وفاة الرسول ، بل كانت معروفة ، وقد تركها رسول الله عن قصد .

ويخرج « الدكتور الريس » بأن الهدف كان مقصوداً ، والغاية كانت واضحة .. فترك الأمر بدون تحديد ، هو اعتراف بالرأى العام للجماعة ، أو كما نقول فى تعبيرنا الحديث (إرادة الأمة) وقد تجلى ذلك واضحا فى اجتماع السقيفة ..

ولا نرى تعارضا بين تفسير الدكتور ، بأن الأمر قد ترك تأكيدا لديموقراطية الحكم بان رد الأمر لما تقرره الأمة ، وبين قولنا أنه قد ترك لكى لا يوضع قيد على حركة التاريخ .. ذلك أن حركة التاريخ فى مجموعها تعبر عن مصالح الأمة ، والجماعة دائماً هى خير من ينطق باراده التاريخ ..

ولعلنا لا نبالغ إن قلنا إن اجتماع السقيفة كان أخطر اجتماع عقد فى التاريخ .. اجتماع كانت نتيجته وجود ٦٠٠ مليون مسلم .. وأكثر من أربعين دولة إسلامية فى العالم ، ولا نظن أن اجتماعا آخر قد أسفر عن مثل هذه النتيجة ..

وقد وضح فى هذا الاجتماع حقيقتان أو مبدآن أساسيان فى الفكر الإسلامى :

• إجماع قادة المسلمين الذين حضروه من المهاجرين والأنصار على ضرورة قيام حكم . . واختيار خليفة . . فلم يكن الأمر مفاجأة لهم ، بل كان قضية معروفة ومتفقا عليها . . تؤكد فهمهم للمسئولية الدنيوية التى كان يضطلع بها رسول الله ، وضرورة أن يتحملها بعـــده مسئول من بينهم .

• أن من حقهم اكتشاف أسلوب اختيار الحاكم ، وأن نصاً بغير ذلك غير موجود . . وإلا لأعلن فى الاجتماع وحسم الموقف . . والقول بغير ذلك ، إما يجعل هذا النص سريا لايعلمه كبار رجال الإسلام ممن حضر اجتماع السقيفة ، أو يشكك فى صدق إسلامهم — أستغفر الله — فقد علموا النص وخالفوه جميعا .

وقد دار اجتماع « السقيفة » على أعلى مستوى يمكن تخيله للديموقراطية والعمل السياسى . . مناقشة حادة ، تبودلت فيها الألفاظ القاسية . . والتهديد بتحريك الشارع . . أو العصيان . . ثم مبارزة بالنصوص الدستورية ، وتقاليد الأمة . . والصالح العام . . والوحدة الوطنية . . وضرورات الأمن . . ثم اقتراح . . وتصويت . . فخضوع الأقلية للأغلبية .

وفى اجتماع السقيفة وضعت بذور الفكر السياسى الإسلامى ، وما تفرع عنه من نظريات ، فقد استقر رأى المجتمعين على أن اختيار

الخليفة أو الحاكم يكون بالبيعة .. أى بالانتخاب .

ومنذ اجتماع السقيفة حتى بيعة (يزيد) لم يطرح قط مبدأ الوراثة كوسيلة لانتقال السلطة ، ولقد ظل هذا المبدأ راسخاً فى الضمير الإسلامى إلى القرن العشرين .

ورغم أن الخلافة أصبحت وراثية أو كما قال عبد الرحمن بن أبى بكر .. هرقلية .. «كلما مات هرقل ، قام هرقل» ..

وبالرغم من أن ممارسة الخلفاء والسلاطين والملوك المسلمين منذ معاوية إلى عبد الحميد عبر ١٢ قرنا كانت وفقا لمبدأ وراثة العرش . .

إلا أن رسوخ رفض مبدأ الوراثة كان يجبر الخلفاء على أخذ البيعة لولى العهد . . فالحرص على شكلية الانتخاب كانت تنبع من ذلك المبدأ الذى استقر فى ضمير الأمة ولو أنها حرمت من تطبيقه بقوة الملك .. وضرورات الزمان والمكان .

وروعة الفكر الإسلامى ، تتجلى ، فى رفضه اقرار هذا المبدأ وإصراره على استنكاره ولو على الصعيد الفكرى البحت . . وفى هذا الموقف وحده ماينأى به عن مرتبة الفكر التبريرى .

يقول أبو يعلى الفراء [١٠٦٥ م] : « ولا تستحق الامامة بالميراث لأن الإمامة تثبت بالاختيار ، وهذا يمنع أن تكون بالميراث .. ولأنها لو كانت تثبت بالإرث لوجب إذا مات الإمام وله ابن صغير أن يخلو ذلك العصر من إمام إلى أن يبلغ ذلك الصبي » .

وهنا يقف المؤمنون بالتفسير الدينى للتاريخ ليسجلوا نقطة تفوق لتفسيرهم .. فإن المذهب المادى فى تفسيره ، يقدم شواهد عديدة على تطور الفكر السياسى الغربى كانعكاس للتطور الاقتصادى فى المجتمع ، وتطور المصالح المتعارضة فيه ونموها:

فظهور نظريات حق الملوك الإلهى وتأييد سلطانهم المطلق وتأكيد شرعية مبدأ الوراثة ونظريات الولاء للملك كان مصاحبا للنمو الاقتصادى للبورجوازية (الرأسمالية) الوليدة وحاجتها إلى الدولة الموحدة ، وسلطة الملوك فى القضاء على التجزئة الإقليمية . . ويستحيل أن نجد فى هذه الفترة رأياً جادا يدعو إلى النظام الجمهورى أو يرفض مبدأ الوراثة للعرش انطلاقا من أسباب عقائدية أو اقتناع عقلى . . ثم تظهر الدعوات إلى المجالس النيابية وحق من يدفع الضريبة فى أن يشرع القانون إلى جانب الملك .. مع نمو هذه الطبقة . . حتى نصل إلى الفكر الجمهورى وسقوط النظام الملكى باستكمال نمو البورجوازية وتطلعها إلى تصفية الإقطاع والملكية والامتيازات الموروثة .

ولكننا نجد الفكر الإسلامى ، أكبر من أن يكون بحرد أحلام المصالح والتطورات ، فهو منذ البداية واضح الملامح . . وهو فى جميع العصور ورغم استحالة إقرار نظام لانتقال السلطة غير الوراثة وتأكيد التجربة التاريخية لكل الحركات التى ثارت ضد المبدأ أنه هو وحده النظام الذى تنتهى إليه عندما تصل إلى السلطة ..

رغم ذلك فقد ظل الفكر الإسلامى محتفظاً بشموخه ورفضه لمبدأ

الوراثة . ولم يحاول أى مفكر إسلامى أن يجعله النظام الشرعى السليم بل أقصى ماوصل إليه فى الواقعية هو قبوله :ـأمر لاسبيل إلى دفعه إلا بجلب شر أكبر من شر قبوله.

كـذلك لانذهب مذهب الحسن البصرى عندما يقول : « أفسد أمر هذه الأمة اثنان : « عمرو بن العاص » يوم أشار على « معاوية » برفع المصاحف ، و« المغيرة بن شعبة » حين أشار على « معاوية » بالبيعة ليزيد . . ولولا ذلك لـكانت شورى إلى يوم القيامة » .

لانذهب إلى هذا الرأى .فإن قوانين الحياة كانت تحتم أن تصل الخلافة إلى ماوصلت إليه ، فذلك النظام الذى وضعه المسلمون وأقاموه ثلاثين عاما . . كان أكبر من طاقة البشر ، كانت فيه نفحة من نور النبوة . . وما كان يقدر على إقامته وصيانته إلا صحابة رسول الله ..

وربما كان دوره فى التاريخ أن يكون حلماً للبشرية يؤكد لها دائماً أنه من الممكن للجنس البشرى أن يقيم فوق الأرض مثل هذا النظام .. فيدفعها إلى المحاولة .. ومن ثم التقدم .. أما أن تدركه ثانية .. فهيهات!

لما تغيرت الرعية ، أصبح من الضرورى أن يحكمهم نظام يتفق ومستواهم .. ويشفع للمغيرة ومعاوية أن أشد خصومهما ـ أعنى الشيعة ـ بايع عندهم الإمام لابنه .. أكثر من مرة .

الامامة

وأول القضايا بل أهم قضية ناقشها الفكر الإسلامى هى (الإمامة) أى كيف تقام الحكومة .. كيف يعين رئيس الدولة ؟ .. أو بالتعبير الفقهى « أنص هى أم اختيار ؟ »

وبالطبع كانت الشيعة هى التى أثارت السؤال لتثبت أنها نص ، وأن الأمة ليس لها حق الاختيار ، فقد اختار لها الله ورسوله .. ولكن الرأى الآخر ، لم يقف عند حد رفض النص .. فقد انقسم إلى عدة فرق ، وكذلك الشيعة ، انقسموا فى تحديد صيغة النص وطريقة انتقاله ، حتى وصلت الفرق إلى ٧٣ فرقة .

كان الخلاف بينهم يصل أحيانا إلى التقاتل ، بينما كان يتخذ فى بعض الأحيان روحا رياضية وتسامحا نادراً.

كان « اليمان بن الرباب» من زعماء الخوارج ، وكان له أخ يدعى

على بن رباب من غلاة الشيعة ، وكانا يجتمعان فى كل سنة ثلاثة أيام يتناظران ثم يفترقان !

وكل هذه المذاهب والتيارات قد نسبت أصولها واستندت إلى الكتاب والسنة . .

وجاء الإمام الشافعى ووضع مبدأ الإجماع .. وهو ما يمكن وصفه بالمبدأ الدستورى الذى يتقرر من إقرار الأمة له .. استنادا للحديث الشريف الذى يقول : «لا تجتمع أمتى على باطل»

فالحق مع الأمة أو مع الأغلبية دائماً . .

ولا عجب أن الفقيه الذى جعل هذا المبدأ مصدراً من مصادر التشريع هو الذى اختاره المصريون لينبعثوا له بشكواهم وعرائضهم ضد الحكام وحتى ضد ظلمهم لأنفسهم . . فهو كما يزال ينادى فى الدعاء عند العامة المصريين : «قاضى الشريعة» .. هو الذى أعلن منذ أكثر ألف سنة أن « الشعب لا يخطىء » وأن الشعب هو مصدر التشريع .

بل إنه باقرار مبدأ « الإجماع » أصبح هو وحده مصدر الشرعية لأى حكم ، لأن القرآن والسنة لم يحددا نظاما معينا للحكم وشكلا محدداً للحكومة .. فلم يبق إلا إجماع الأمة .. وهو ما وصل إليه المستشرق « جب » عندما قال أن نظام الخلافة يستند كلية إلى مبدأ الإجماع وحده .. وهكذا نرى أن أهل السنة ، بعكس ما توحيه لفظة السنة من اتباع السلف ، والميل إلى المحافظة ، نراهم أكثر

الاتجاهات تعبيراً عن ديموقراطية الإسلام ، وإيمانه بان الأمة هى وحدها صاحبة الحق فى اختيار ما تشاء من النظم ، وتنصيب من تراه أهلا لهذا المنصب أو ذاك ، ابتداء من الحاكم العام أو الإمام أو الخليفة أمير المؤمنين .

ولا يعنى قولنا أن نظام الخلافة هو من ابتكار المسلمين أنه نظام غير إسلامى فما الذى يستحق هذه الصفة إن لم يكن النظام الذى وضعه أبو بكر وعمر وعثمان وعلى .. صحابة رسول الله ، من نأخذ عنهم ديننا وسنة نبينا .. غير أن المقصود هو نفى صفة القدسية عن الحاكم .

وقد استند الفكر الإسلامى (السنة والخوارج وفروعها) فى نفى الوراثة كوسيلة لانتقال الإمامة أو السلطة إلى انعدام النص ، فإن وفاة الرسول دون أن يعهد بالخلافة لأحد قد أعطى الحق كاملا للأمة فى الاختيار ..

فالباقلانى (١٠١٣) يقول : «وإن سأل سائل فقال : ما الدليل على ما تذهبون إليه من أن الاختيار للأمة .. قيل له : الدليل على هذا أنه إذا اختفى النص صح الاختيار ، والذى يدل على ابطال النص ، أنه لو نص النبي على إمام بعينه وفرض طاعته على الأمة دون غيره وقال لهم : هذا خليفتى والإمام من بعدى ، فاسمعوا له وأطيعوا ، لكان لا يخلو أن يكون قال ذلك وفرضه بمحضر من الصحابة أو الجمهور منهم ولوجب أن يقع لنا العلم ضرورة »

فانتفاء النص أكد حقوق الأمة فى الاختيار .. وانطلاقا من هذا المبدأ رفض المفكرون الاسلاميون مبدأ وراثة الخلافة لأنه يلغى حق الأمة فى الاختيار ..

وإن كان هذا لم يمنع من قيام تيار له قوته وشأنه يؤمن بمبدأ الوراثة ، استنادا إلى النص فى اعتقاده ، غير أن هذا التيار لا يشكل المجرى الأساسى لحركة الفكر الاسلامى ، وإن كان يؤكد خصوبة وتنوع هذا الفكر واحتواءه اشتى التيارات السياسية ..

ويرى بعض المستشرقين تناقضا ، أو قل نزعة توفيقية فى اجتهادات الفقهاء فى القرون المتأخرة من الحضارة الاسلامية ، إذ يرون فى هذه الاجتهادات محاولة لمجاراة السلطة ، وإسباغ الشرعية على الأمر الواقع ، الذى لا شك أنه كان يبتعد قليلا أو كثيراً عن القيم والمبادىء الاسلامية فى صدر الاسلام ، فيما يتعلق بصفات الحاكم وشروط توليته ، وطبيعة الحكم ..

وصحيح أن الفقهاء قد أفتوا بشرعية الطاعة للحاكم الظالم الفاجر .. ولكن ليس عن ممالأة للسلطة ولا لمجرد الافتاء بشرعيتها كسبا لرضاها ودفعاً لاذاها ، فالفقه الاسلامى لم يكن يفتقر أبداً إلى مواقف تعد ذروة فى الشجاعة الأدبية ، والذود عن العقيده ، ولا شك أن فقيها يضرب ويسجن لأنه يرفض أن يتولى منصب القضاء مخافة أن يخطىء .. ما كان ليجبن عن الافتاء بخلع الخليفة إن رأى فى ذلك صحة إسلامه أو مصلحة المسلمين ..

كذلك من يتحمل التعذيب ، حتى لايتقول على كلام الله إن كان مخلوقا أولا . . ما كان ليجبن فى قضية السلطة . .

غير أن الفقهاء كانوا ينطلقون من قاعـــدة إسلامية ، ويضعون مصلحة الأمة الاسلامية نصب أعينهم عندما أفتوا بشرعية السلطة القائمة على القوة وحدها . .

روى عن الامام أحمد بن حنبل :

« ومن غلب عليهم بالسيف حتى صار خليفة وسمى أمير المؤمنين ، فلا يحل لأحد يؤمن بالله واليوم الآخر أن يبيت ولا يراه اماما ، برا كان أو فاجراً . . . »

وسئل فى الامام يخرج عليه من يطلب الملك فيكون مع هذا قوم ومع هذا قوم ، قال : « تكون الجمعة مع من غلب » ، واحتج بأن عبد الله ابن عمر « صلى بأهل المدينة فى زمن الحيرة وقال : نحن مع من غلب » .

ولعلنا ، بعكس ما يبدو من ظاهر النصوص ، نجد فى هذا الفقه . . اقرارا بشرعية الثورة ، والوضع الذى ينشأ عنها . . غير أن الفكرة خلف هذه الفلسفة الواقعية كما يتضح من النصوص التى نستعرضها . . هى الحرص على وحدة الأمة أو الوحدة الوطنية إن صحت التسمية . .

يرى عبد القادر البغدادى (١٠٢٨) أن الخلافة من « حق أفضل المرشحين » فإن عرض للأمة خوف فتنة من عقدها للافضل جاز لهم عقدها للمفضول ..

ويجب أن ندرك أبعاد الافتاء بعدم شرعية الامام ، لنصل إلى

ادراك سليم لتحفظ الفقهاء فى هذا الشأن .. لأن الافتاء بعدم شرعية الحاكم يسقط شرعية كل التصرفات القانونية فى المجتمع، ويبطل عدداً من الفرائض الدينية . .

ولهذا أجاز الفقهاء قيام امامين إذا ما كان يفصل بينهما « بحر مانع » أى حاجز جغرافى يحول دون الاتصال . . وهذا يؤكد الصفة البشرية للخليفة ، فلو كان نائبا عن الله أو تتقمصه روح ما . . لما جاز أن يمنع البحر أو الجبل امتداد ظل الله ، ولا جاز أن يتجزأ روح القدس . .

خليفـة من ؟

وناقش المسلمون صفة هذا الحاكم . . أهو يحكم بموجب حق التفويض الالهى . . الذى استندت إليه الملكيات المستبدة فى الشرق القديم وأوربا الاقطاع ؟

ام يحكم بقوة التفويض الذى يمنحه له الشعب عند انتخابه ؟

هل هو خليفة الله . . أم خليفة المسلمين ، خليفة رسول الله ؟

لقد وردت فى الفكر السياسى الاسلامى فى العصور الأخيرة بعض التعبيرات التى تصف الخليفة بأنه خليفة الله ، أو حتى ظل الله على الأرض . .

فالغزالى (١١١١ م) يصف الخليفة بأنه « خليفة الله على الخلق »

وقد رفض عثمان رضى الله عنه أن يخلع نفسه من الخلافة قائلا :

« ما كنت لأخلـــع قميصا ألبسنيه الله »

ولو أن القاضى أبو يعلى الفراء : (٩٩٠ - ١٠٦٥) قد استدل بهذه الحادثة على مفهوم عكسى فهو يقول : « فلو لم يكن من حقه أن يعتزل لما طلبوا منه ذلك »

ولكن الفكر السياسى الاسلامى فى مجموعه ، وبالذات فى عصوره الأولى ، حريص كل الحرص . . واضح كل الوضوح . . فى نفى فكرة الحق الالهى . .

فالحكم وظيفة مدنية بحتة، والحاكم لا تتقمصه أى صفة غير بشرية . . ولا يستند لأى سلطة إلا سلطة العقد الذى ينشأ بين الحاكمين والمحكومين عند توليه الحكم وفى حدود الدستور . . أى الشريعة . .

وفى فجر الحضارة الاسلامية طرحت قضية لقب الحاكم .. أهو خليفة الله .. أم خليفة رسول الله ..

يقول أبو الحسن الماوردى (٩٧٥ / ١٠٥٨) : « ويسمى خليفة لأنه خلف رسول الله صلى الله عليه وسلم فى أمته ، فيجوز أن يقال يا خليفة رسول الله ، وعلى الاطلاق ، فيقال : الخليفة .. واختلفوا هل يجوز أن يقال يا خليفة الله ؟ فجوزه بعضهم لقيامه بحقوقه فى خلقه، ولقوله تعالى : « وهو الذى جعلكم خلائف الأرض ورفع بعضكم فوق بعض درجات »

وامتنع جمهور العلماء (أى الأغلبية العظمى) عن جواز ذلك ، ونسبوا قائله إلى الفجور .. وقالوا إن « الخليفة » لمن يغيب أو يموت

والله لا يغيب ولا يموت . . وقد قيل لابى بكر الصديق : يا خليفة الله، فقال : لست بخليفة الله ، ولكن خليفة رسول الله »

ومعروف أن المسلمين أرادوا تسمية عمر بن الخطاب « خليفة خليفة رسول الله » فاستثقل الامر ، وفكر فى المستقبل ، وكيف سيحمل كل خليفة طابورا من خليفة خليفة .. بعدد الذين سبقوه ، فاقترح أحدهم لقب أمير المؤمنين .. فكرمت الأمة نفسها بالايمان .. إذ كرمت الخليفة بالامارة !

وسمع عمر بن لخطاب رجلا يقول له : يأخلية الله ، فنهره قائلا : خالف الله بك » ..

وأهمية هذه القضية أنها تسقط عن الحاكم كل ادعاء بالعصمة أو ارتفاع فوق مستوى البشر .. وبالتالى فكل أحكامه وقراراته قابلة للمناقشة والتصويب والتخطئة .. لأن رسول الله وهو النبى المعصوم يعلم المسلمين فيقول فيما لم ينزل به الوحى : « إنما أنا بشر مثلكم أخطىء وأصيب »

فما من خليفة له يستطيع أن يدعى العصمة أو ينسب معارضه إلى الكفر ، أو يفرض على الناس طاعته باعتباره « ظل الله على الأرض» .. وهو الخطأ الذى يقع فيه كثير من المستشرقين عند ما يتحدثون عن « بابا الاسلام »

وقد حرم الرسول طاعة ولى الأمر فيما خالف الدين أو ما فيه ضرر بين ، أو إضرار بالمسلمين ..

ومن هنا قرر المسلمون أن الحاكم غير معصوم ، ولا يشترط فيه العصمة من الخطأ ..

يقول الباقلانى (١٠١٣ م) :

« والخليفة فى جميع ما يتولاه وكيل للأمة ونائب عنها ، وهى من ورائه فى تسديده وتقويمه وإذكاره وتنبيهه ، وأخذ الحق منه إذا وجب عليه ، وخلعه والاستبدال به متى اقترف ما يوجب خلعه ، فليس يحتاج مع ذلك إلى أن يكون معصوما .. ويدل على هذا اعتراف الخلفاء الراشدين بأنهم غير معصومين ، وترك إنكار الأمة أو واحد منهم تولى الأمر مع اعترافهم بنفى العصمة عنهم ، هذا أبو بكر يقول : « أطيعونى ما أطعت الله ، فإذا عصيت الله فلا طاعة لى عليكم » وعمر يقول : « رحم الله أمرأ أهدى إلينا عيوبنا » ، « ولولا على لهلك عمر » ، « ولولا معاذ لهلك عمر » ..

ويستدل الباقلانى من هذا على أن الخلفاء اعترفوا بإمكانية بل ووقوعهم فعلا فى الخطأ .. وأن الأمة لم تفترض فيهم العصمة من الخطأ ولا ادعاها أحد منهم .. كما نستدل نحن على ارتباط الطاعة بالتزام الخليفة للدستور الذى يحكم بموجبه وهو تعاليم الدين ، وقبولهم مبدأ المحاسبة والتقويم بل والعزل عند الانحراف ..

وعبد الظاهر البغدادى « ١٠٣٨ » يقول :

« وأصحابنا مع أكثر الأمة .. ان العصمة من شروط النبوة

والرسالة ، وليست من شروط الامامه (الحكم) . . وإنما يشترط فيها عدالة ظاهرة ، فمتى أقام فى الظاهر على موافقة الشريعة كان أمره فى الامامة منتظما . . ومتى زاغ عن ذلك كانت الأمة عيارا عليه فى العدول به من خطئه إلى الصواب (أى رفض التشريعات والقوانين والقرارات التى يصدرها) أو فى العدول عنه إلى غيره . .

إن انكار عصمة الحاكم هو قاعدة راسخة من قواعد الديموقراطية . فالنظم الملكية الاستبدادية تنطلق من نظرية الملك لايخطىء . وبالتالى تنتفى الامكانية ـ ولو النظرية ـ لحق النقد أو النقد الذاتى . .

والحاكم فى الإسلام هو مثل الأمة ينفذ إرادتها ، ويخضع لهذه الارادة . . فهى تحتاج لعبقريته بقدر ماتحتاج لديموقراطيته ، واحترامه لارادة الشعب .

وتعبير « وكيل » الأمة الذى يستخدمه فقهاء المسلمين . . تعبير دقيق لأن الوكيل ليس له ان يتصرف الا فى حدود الوكالة التى يمنحها له الموكل .

والارتباط واضح بين انعدام «العصمة» وبين حق الأمة فى محاسبة الحاكم وعزله . . بل ومحاكمته . .

وعمر بن الخطاب ينصح بقتل الحاكم المنحرف . . فيراجعه طلحة : هلا قلت « يعزلوه » ! أى الاكتفاء بخلعه ، ولكن عمر رضى الله عنه يقول : « لا . . القتل أنكل لمن بعده »

أى فيه ردع وإرهاب للذى يتولى الحـكم بعده . فلا يكرر سيرته . .

والذى يشرع قتل الحاكم المنحرف ، هو حاكم فعلا . . وليس بثائر أو فوضوى !

وفى هذه النصوص التى اختارها الدكتور يوسف ايبش من اجتهادات ثمانية من علماء الإسلام . نجد الاجماع على حق الخلع ، باستثناء الذين جعلوا الامامة وظيفة دينية . . وافترضوا العصمة فى الامام ، ورأوا ان توليته تتم بموجب الحق الالهى . . بحكم نسبه أو تقمص روح فيه . .

وعلى أية حال فلأن هذا التيار لم تتح له قط فرصة حكم جماعة المسلمين ، فإن فلسفته لم تمارس سلطة شل ارادة الأمه فى عزل الخليفة بقد رما كانت دعوة دائمة لرفض الظلم وخلع القائمين بالأمر ونقد حكمهم والثورة عليهم . .

وقد رد « الرازى » على المتسائلين عن دور الإرادة الإلهية فى اختيار الحاكم ، إذا ما تركنا الأمر لاختيار الناس .. « ألا يجوز أن يكون اختيار الأمة شخصا معينا ، يكشف عن كونه اختيار الله تعالى » ..

وهو بذلك يردد الشعار الذى رفعته الثورات فى أوربا بعد ألف عام ! .. عندما قالت « إن إرادة الشعب من إرادة الله» . بل إن شيخنا يمضى أبعد من ذلك .. فيجعل إرادة الله هى إرادة الشعب ، ويجعلنا نتعرف على إرادة الله من إرادة الشعب ..

وهذا هو الاصل فى رأى رفاعة رافع الطهطاوى عندما قال « فإن كون الملك ملكا باختيار رعيته له لا ينافى كون هذا صدر من الله تعالى على سبيل التفضل والإحسان » .

واضح أن « رفاعة » ينطلق من مفهوم الرازى وينطلق الجميع من الفهم الاسلامى للقدر ، ذلك الفهم الرائع الذى عبر عنه عمر بن الخطاب بقوله لأبى عبيدة .. أن من يطلق إبله فى الأرض الخصبة يفعل ذلك بقضاء الله ، ومن يسىء اختيار المرعى يفعل ذلك بقضاء الله .. !

ولكن الدجال يعلق على كلمة الطهطاوى بقوله : « ولعل هذا أبلغ درس يمكن أن يقدم للمصريين عن نظرية الحق الإلهى والحق الطبيعى فى الفلسفة السياسية والاجتماعية » .

وكما رأينا لا وجود لما يسمى بالحق الإلهى فى الفكر الإسلامى أو فى المجرى الأساسى لهذا الفكر .. أو فيما طبق فى نظام الحكم الاسلامى ، وشكل تاريخه العام ..

بل إن عبارة الرازى أكثر تقدما من عبارة الطهطاوى ، وهذا طبيعى ، فقد كنا أكثر ازدهارا فى عصر الرازى منا فى عصر الطهطاوى ..

قانون حضارى

ويقول « الدكتور الريس » إن المسلمين كانوا حريصين على اختيار لقب للحاكم يميز بينهم وبين النظم الرجعية المحيطة بهم ، هذه النظم التى كانت مؤسسة على القوة ، وتسير بسياسة القهر والغلبة والجبروت ، وغايتها استعباد الشعوب أو استغلالها من أجل خدمة مصالح الحكام من أفراد أو طبقات..

وكان المثلان البارزان لأمثال تلك الحكومات هما دولتا « الأكاسرة » فى الشرق ، « والقياصرة » فى الغرب .. ولذا فإن هذا النوع من نظم الحكم عرف عند المسلمين فى ذلك العصر بأنه « الكسروية » و « القيصرية » وكان يقال له أيضاً : « الملك العضوض » ويراد به هذا النوع من الحكم الاستبدادى القائم على الوارثة ، والمستند الى القوة وإذلال الأمة .

فكان الملك فى الصورة مبغضا إلى الأمة الاسلامية الناشئة .. وكانوا يدركون أن الخلافة التى جاء بها الاسلام كانت نظاما جديدا مغايرا كل المغايرة لنظم الامبراطورية أو الملكية التى كانت معروفة فى ذلك الوقت.

وهذه الحقيقة ، هى أحد قوانين نشوء وانهيار الحضارات .. فما من دولة ناشئة استطاعت أن تبنى حضارة جديدة وتعيد تشكيل التاريخ ، إذا ما بدأت بالاعجاب بالحضارات السابقة المنافسة لها . .

إن هذه التبعية الروحية[1] التى تبدأ بالاعجاب ومحاولة نقل حضارات الآخرين . . والرضا كل الرضا بالانتساب إليهم . . هذه التبعية ، لا تخلق حافزا للتفوق ، ولا تمكن المجتمع الناشىء الذى هو بالحتمية أقل تقدما وأكثر بدائية ، لا تمكنه من التفوق على الحضارات القديمة ، العريقة ، وهزيمتها .

لذلك فعندما ظهرت الحضارة الإسلامية ، مع الفارق الشاسع بين التخلف المادى للمجتمع العربى وتقدم المجتمعين الرومانى والفارسى . . كان عامل النصر للعرب هو العقيدة الإسلامية ، التى — نمت ضمن ما نمت - احساس التفوق عند العربى ، احساسه بأنه سيشيد نظاما أفضل وأسمى من النظم القائمة والتى يحاربها ..

ولنتخيل ما الذى كان يمكن أن يحققه العرب ، لو ان كل أمانيهم قد انحصرت فى اقامة مجتمع متحضر على مثال المجتمع الرومى أو الفارسى؟ ربما كان الأمر قد انتهى إلى محمية رومية أو فارسية ! . .

فالبداية السليمة لكل حضارة تريد أن تنتزع مكانها تحت الشمس ، هى رفض الحضارات المعاصرة ، والإيمان بأنها ستمنح الإنسان نظاما

---

(١) راجع كتابنا : « القومية والغزو الفكرى »

أوقيا أفضل، سمى .. حتى لو اضطرتها قوانين المجتمع وأحكام الواقع، لاقامة نظام فيه الكثير من النظم المعاصرة ..

ولقد أقام المسلمون خلال السنوات الحاسمة التى اصطدموا فيها بالحضارات المحيطة وبنوا دولتهم، وقضوا نهائيا ولعدة قرون على الخطر الخارجى .. أقاموا نظاما جديدا مختلفا كل الاختلاف عن النظم التى عرفتها البشرية .. نظاما تحول فى النهاية إلى مايفوق قدرات الأمة ويتخطى إمكانيات العصر .. ولعلها المرة الأولى فى التاريخ التى أصبح فيها النظام أكبر من الناس ..

وينقل الدكتور الريس عن ابن خلدون تحليله لتحويل الخلافة إلى الملك، بفعل القوانين الاجتماعية، ولكنه كان ملكا يهدف إلى الحق لا إلى الباطل .. وتطورت النظم إلى أن أصبح « ملكا عضوضا » كما تنبأ الرسول . ويربط ابن خلدون بين ضياع رسم الخلافة، وذهاب عصبية العرب وفناء جيلهم وتلاشى أحوالهم وبقى الأمر ملكا بحتا كما كان الشأن فى ملوك العجم بالمشرق .. »

وهذا يؤكد اعتزاز ابن خلدون بالعرب، وإدراكه أنه نظام يحمل الطابع العربى .

وهنا لا نقر « الدكتور الريس » على نقده للدكتور طه حسين، عندما وصف الخلافة بأنها نظام عربى إسلامى خالص لم يسبق العرب إليه ولم يقلدوا بعد ذلك فيه .. فإننا نعتقد أن هذه الجملة أدق تعبير . وأن طريقة النفى التى ذهب إليها طه حسين، ورغم اعتراض الدكتور

الرئيس ، هى الطريقة الوحيدة الممكنة لتحديد طبيعة هذا النظام الفريد والرائع الذى أقامه الخلفاء الراشدون والذى لا مثيل له فيما سبق ولا ما لحق ..

ولا شك أنه بقدر ما كان نظام الخلافة هو التجسيد الدقيق لفكر الإسلام وقيمه ومثله ، فلا شك أنه قد حمل ملامح الشخصية العربية والتراث العربى .. كما يتشكل الماء بشكل الاناء دون أن يتغير جوهره ..

أهل الحل والعقد

وينطلق الفكر الإسلامى فيبحث فى من لهم حق الترشيح لمنصب الخلافة .. أو الشروط الواجب توفرها فى المرشح لهذا المنصب .. ومن الذى يرشحه ..

وهنا نرى الفكر السياسى الاسلامى يصل إلى الذروة فى الخصوبة والتنوع .. من الذين حصروا الحكم فى قبيلة واحدة لها وحدها حق الترشيح لهذا المنصب ..

فزعم الكعبى أن القرشى أولى بها من الذى يصلح لها من غير قبيلة قريش ..

ثم تطور البعض إلى حصرها فى عائلة واحده .. بل ونسل شخص بعنيه ..

إلى الذين روجوا لآراء فوضوية ، نفت الحاجة إلى حكومة على الاطلاق .. وكان هذا رأيا قويا إلى درجة أن المؤلفين فى النظريات

السياسية من فقهاء المسلمين ، كانوا يبدأون بمناقشة الذين ينكرون الحاجة إلى الحكومة . . ويخبرنا « عبدالقادر البغدادى » (١٠٣٨ م) أن ابا بكر الأصم : رأى أن « الناس لو كفوا عن التظالم لاستغنوا عن الامام » .

وقد رد عليهم الفقهاء بأن الاضرار التى تترتب على انعدام الحكومة هى الفوضى ، والتقاتل ، وسفك الدماء ، وضياع الحقوق ، وعدم الدفاع عن الإسلام ، وابطال الجهاد ، وفقد أو طان الإسلام ، ووقوعها فريسة فى يد الاعداء . . . » .

فهو لم يرفض مناقشة هذا الرأى بحجة أن الدين يأمر بذلك ، أو أن أوائل المسلمين فعلوا ذلك فلزم الاتباع . . بل ناقشه بالحجة والمنطق محددا وظائف الدولة الحارسة كما عرفها الفكر الأوروبى بعد ذلك بأكثر من ألف سنة . . الأمن ، والقضاء ، والدفاع الخارجى . .

ونفى « هشام القوطى » شرعية الحكومة فى فترة الثورة . . وأنكر الخوارج حق قريش فى الاستئثار بحق الترشيح لمنصب رئيس الدولة فزعموا « أن الامامة صالحة فى كل صنف من الناس ، وانما هى للصالح الذى يحسن القيام بها . . ولهذا بايعوا « نافع بن الازرق » ثم لقطرى ابن الفجاءه ولنجدة وعطية وليس أحدهم قرشيا . . » .

ويتطرف بعضهم فى رفضه للارستوقراطية ، وتخوفه من احتكار الحكم فى قبيلة بعينها ، فيضع الضمانات ضد مرشحها :

فقال ضرار : « إذا استوى الحال فى القرشى والأعجمى . .

فالأعجمى أولى بها . . والمولى أولى بها من الصميم . . » ويقدم تفسيرا غاية فى الذكاء ، فالثانى يسهل خلعه إذا انحرف . . لأن شوكته أو عصبيته أضعف . . تماما كالضمانات التى يطالب بها اليساريون اليوم ضد مرشحى الطبقات القوية النفوذ أو المال . .

وهذا الخلاف حول الشروط المطلوبة فى المرشح للامامة ، لايعنى أن ننفى «الإسلامية» عن بعضها ، ولا يعنى تطبيق المسلمين لأحد الآراء تكفيرا للآراء الأخرى ، فكلها تيارات تنبع من جوهر الفكر الإسلامى ، وكما قلنا فإن تنوعها وتعددها يعكس قابلية هذا الفكر للتجدد . . وقدرته على الملاءمة بين المثل والواقع . . أو بين آمال الناس وقدراتهم على تحقيق هذه الآمال .

وناقش الفكر الإسلامى قضية : من هم الذين يملكون حق ترشيح الخليفة .. أو بالتعبير الإسلامى الشائع : « أهل الحل والعقد » الذين لهم حق ترشيح الحاكم وليس تنصيبه .

ومن الثابت أن المسلمين قد جربوا خلال الثلاثين عاما التى تلت وفاة الرسول كافة الأشكال الممكنة لترشيح الحاكم .. من اختيار النخبة أو الطليعة ، إلى ترشيح الحاكم القائم لخليفته .. إلى الانتخاب من بين عدد محدود .. إلى ترشيح الجماهير للخليفة وفرضها مرشحها بقوة الشارع ..

إلا أن الفكر الإسلامى فى جوهره يؤكد حق الأمة فى الانتخاب،

فأ اهل الحل والعقد، أو النخبة التى تتولى الترشيح ، هى القيادة السياسية للمجتمع..لنقل انها الحزب الشيوعى مثلا الذى يرشح رئيس الحكومة. أو هم أعضاء الحزب الجمهورى أو الديموقراطى الذين يختارون المرشح لرئاسة الولايات المتحدة ، أو أعضاء مجلس الأمة يرشحون رئيس الجمهورية للاستفتاء الشعبي ..

فهى القيـــادة السياسية للمجتمع التى تملك ترشيح الحاكم وليس تنصيبه . فهى القيادة التى بوسعها أن تحقق الوحدة الوطنية ، ويفترض أنها القادرة على إقناع الجماهير .. وهى قيادة سياسية ، بمعنى أنها تتغير بتغير توازن القوى السياسية والاجتماعية فى المجتمع . .

يقول أبو يعلى الفراء (١٠٦٥) :

« أما أهل الاختيار فيعتبر فيهم ثلاثة شروط : أحدها العدالة ، والثانى العلم ، الذى يتوصل به إلى معرفة من لإمامة يستحق ، والثالث أن يكون من أهل الرأى والتدبير المؤدين إلى اختيار من هو للامامة أصلح .

وليس لمن كان فى بلده ميزة على غيره من أهل البلاد يتقدم بها ، وإنما صار من يختص ببلد الامام متوليا لعقد الامامة لسبق علمه بموته ، ولأن من يصلح للامامه فى الغالب موجودون فى بلده » (أى مقر الحكم)

كيف نعجز عن رؤية هذا النضج فى التفكير السياسى . . ليس

لبلد ولا لعصبية ميزة .. ولكن ضرورات الأمن والسياسة تحتم أن يبادر أول من يبلغهم النبأ بإجراءات تأمين الانتقال السلمى للسلطة .. وملاحظة ذكية تلك التى تعتبر أن أصلح المرشحين يوجدون فى العاصمة مركز النشاط السياسى ، فليس افتئاتا ولا استئثارا أن يكون المرشح دائما من المدينة وقت وفاة الخليفة ؛ لأن طبيعة العمل السياسى تقتضى وجود القيادات السياسية - غالباً - حيث يكون مقر الحكم .

يقول الفراء :

« فإذا اجتمع أهل الحل والعقد على الاختيار تصفحوا أحوال أهل الامامة الموجود فيهم شروطها فقدموا للبيعة منهم أكثرهم فضلا ، وأكملهم شروطا » .

والامام الغزالى صريح فى تفسير معنى أهل الحل والعقد ، وتوضيح الأهمية السياسية لترشيحاتهم باعتبارهم يمثلون الرأى العام ويعبرون عن إرادة الجماهير وبذلك يحققون الوحدة الوطنية . . فإذا فقدوا هذه الصفة فلا يؤيد ترشيحهم حتى ولو كان ترشيح عمر بن الخطاب رضى الله عنه لأبى بكر الصديق !

فالإمام الغزالى يقول : « يكتفى بشخص واحد يعقد البيعة للامام إذا كان ذلك الواحد مطاعا ذا شوكة لا تطال . . وإذا كان إذا مال إلى جانب ، مال بسببه الجماهير إلى هذا الجانب . . ولم يخالفه إلا من لا يكترث بمخالفته » .

فالشخص الواحد المتبوع المطاع الموصوف بهذه الصفة إذا بايع

كنى ، إذ فى موافقته موافقة الجماهير . . فإذا لم يحصل هذا الغرض الا لشخصين أو ثلاثة فلابد من اتفاقهم ،وليس المقصود أعيان المبايعين.. ونحن لا نقول لما بايع عمر أبا بكر رضى الله عنهما ، انعقدت الامامة له بمجرد بيعته .. ولو لم يبايعه غير عمر وبقى كافة الخلق مخالفين ، أو انقسموا انقساما متكافئاً لا يتميز فيه غالب من مغلوب لما انعقدت الامامة » .

فاشتراط تعبير « أهل الحل والعقد » عن ، إرادة الجماهير واضح لا يحتمل التأويل . وكما أن هذا التعبير كان ينطبق على مجموعة من زعماء المسلمين ، فإنه يمكن أن ينطبق اليوم على جهاز أو تنظيم أو مؤسسة بعينها ما دامت تمثل ارادة الجماهير وتسيطر على اتجاهاتها ..

وأكد أبو بكر رضى الله عنه حق الجماهير فى رفض ترشيح أهل الحل والعقد منذ اللحظة التى تم فيها اختيار حاكم لأول مرة فى تاريخ المسلمين ..

فعندما رشحه أهل الحل والعقد فى السقيفة خرج إلى المسلمين .. فقال :

« يا أيها الناس ، قد أقيلكم ببيعتى (أى أتنازل عن الترشيح) هل من كاره » .

فجاءته الموافقة بالاجماع ..

فالأمة لها حق الانتخاب وحق المحاسبة.. يقول أبو بكر : « لقد

وليتمونى أمركم ولست بخيركم فان استقمت فأعينونى . . وإن رأيتم فىّ أعوجاجا فقومونى . . »

فيعده أحدهم بأن يقوم اعوجاجه بالسيف . .

هذا هو اول خطاب عرش معروف فى تاريخ العالم . . يطلب رئيس الدولة مراقبة الرعية لسلوكه ، ومعاونته فى السياسة الصالحة ، ثم تقويمه فى السياسة المنحرفة أو الخاطئة . .

فتؤكد له الرعية أنها تواجه الانحراف بالسيف . . لا بالوعظ والشكوى . .

ويوافق رئيس الدولة بل يحمد الله أن جعل فى أمة محمد من يقوم الانحراف بالسيف . .

وقد أكد عمر حق الأمة المطلق فى قرار هذا الترشيح أو رفضه بقوله : « من بايع رجلا عن غير مشورة من المسلمين ، فإنه لا بيعة له ، ونصح بقتله هو ومن بايعه .

فالعصبية التى تحدث عنها ابن خلدون ، هى القوة التى تستطيع فرض الوحدة الوطنية بفرض مرشحها ، والفرض لا يكون بعصا الغلب وحدها ، بل لابد له من عصا الاقتناع والرضا ..

ومن هنا فان انتقاد « الدكتور الريس » لنظرية العصبية عند ابن خلدون ، غير واضح الأسباب .. ولا نذهب نحن مذهبه ..

لأن العصبية قد تكون ـ فى مرحلة معينة ـ القوة العسكرية ، أو النفوذ

القبلى ، أو العائلى ، وقد تكون فى مرحلة أخرى القوة الاقتصادية ، أو السياسية والاجتماعية ، التى تشكل الأغلبية والقيادة السياسية للمجتمع . .

فابن خلدون كان عبقريا فى اكتشاف قانون العصبية ، وما زال قانونه صالحا لتفسير قضية السلطة . . إنه يحتوى على نظرية ديكتاتورية الأغلبية أو ديكتاتورية الشعب . .

وهو قد ارتفع به إلى المستوى السياسى . . فلم يعد قضية دم أزرق أو حق مقدس لقبيلة بعينها لأن النبى منها ، بل لأن لها الزعامة السياسية وهى تكفل وحده الامة . . فلما فقدت هذه الصفة ، انتقلت العصبية إلى القوى الجديدة .

حق العزل

والأمة التي تملك أن تعين الخليفة ، تملك أن تعزله . وإقرار مبدأ العزل في الفكر الإسلامي ، ينفي كل صفة لا هوتية عن شاغل المنصب فهو موظف عام يقوم بمهام دينية وسياسية. هو رئيس دولة . . وحاكم زمني . . يختار بارادة الأمة ، ويستمر في السلطة برضاها ، ولها حق عزله فيعود فردا كما كان ، أو تحاكمه وتوقع عليه ما شاءت من العقوبات . . الأمر الذي ينفي تماما أنه « بابا الاسلام » . . فهو يعزل ويعدم وينصب غيره وهو حي . . بل ويمكن كما نرى أن يوجد أكثر من امام في وقت واحد :

يقول القاضي أبو بكر الباقلاني (١٠١٣) :

فإن قال قائل : « وما الذي يوجب خلع الإمام عندكم ؟ قيل له : يوجب ذلك أمور ، منها :

- كفر بعد إيمان

- تركه إقامة الصلاة والدعاء إلى ذلك .

- ومنها عند كثير من الناس ، فسقه وظلمه بغصب الأموال وضرب الأبشار وتناول النفوس المحرمة وتضييع الحقوق وتعطيل الحدود .

- ومما يوجب خلع الإمام تطابق الجنون عليه وذهاب تمييزه

- وكذلك إذا عرض له أمر يقطع عن النظر فى مصالح المسلمين والنهوض بما نصب لأجله أو عن بعضه ، لأنه إنما أقيم لهذه الأمور ، فاذا عطل وجب خلعه ونصب غيره .

- وكذلك إذا حصل مأسوراً فى يد العدو إلى مدة يخاف معها الضرر الداخل على الأمة ، ويئس من خلاصه . . وجب الاستبدال به»

والباقلانى عندما يدين قتلة عثمان رضى الله عنه بعرض آراء يمكن أن توصف بغير تحرج بأنها قمة فى الديموقراطية والثورية . . بالرغم من أنه لا يمكن وصف الباقلانى بالتطرف . . أو نسبته للمذاهب الشاذة كالخوارج مثلا . . فهو من أئمة السنة . .

وهو يحلل حادثة قتل عثمان رضى الله عنه فيقول :

« على أنه لو ثبت عليه أمر يستحق به خلع الطاعة ويجب به زوال العدالة . . لم يكن ذلك مبيحا قتله على ذلك الوجه ، لأنه لم يحم داراً

ويمتنع على المسلمين . . ولا نصب حربا بينه وبين من سار إليه . .فقد كان يجب عليهم القبض عليه لما أخذوه وتمكنوا من داره وحريمه أو حبسه وإبعاده . . أو أخذه بغاية الإرهاب بخلع نفسه لو كان مستحقا للخلع ..فأما أن يقاتل على ذلك الوجه وهو غير ناصب للحرب فضلال وظلم لا محالة » .

لا أظن أن قانونيا أو ثوريا يستطيع أن يضيف إلى ذلك سطراً أو أن يعارض منه حرفا . .

فالخليفة إذا انحرف جاز إلقاء القبض عليه ، ومحاكمته ، واجباره على الاستقالة أو خلعه . . فإذا احتمى ورفض النزول على إرادة القانون . . حق قتاله حتى يلق القبض عليه . .

ولكن ما دام لم يستخدم القوة ، ولم يمتنع على المعارضة - فمن حقه أن يظفر بالمحاكمة القانونية التي تباح لأى متهم .

وفى كل دساتير العالم الحديث توضع بنود خاصة تنظم محاكمة رئيس الدولة ، وتجعل لسلطة بعينها حق توجيه الاتهام له . .

وقد أجمع الفقهاء على أن الأمة هى مصدر السلطات ،وقيام الخليفة لا يسلبها هذا الحق ، واستقر الرأى على جواز استقالة الخليفة أو عزله . .

وذهب « ضرار » من المعتزلة إلى أنه إذا تساوى حبشى وقرشى فى الصفات المطلوبة للحاكم وجب اختيار الحبشى لأنه يسهل خلعه إذا انحرف . .

والأمة مسئولة عن انحراف الحاكم، يقول رسول الله .. « إن الله لا يعذب العامة بعمل الخاصة ، حتى يروا المنكر بين ظهرانيهم ، وهم قادرون على أن ينكروه فلا ينكرونه »

وقوله : « ما أقر قوم المنكر بين أظهرهم إلا عمهم الله بعذاب محتضر »

ويستخلص « الدكتور الريس » من ذلك ضرورة قيام هيئة لها الرقابة على الحاكمين ، أى « برلمان » .

ولاشك أن أمة يعاقبها الله ، إذا ما جبنت عن الثورة على انحراف المسئولين ، لا شك أنها أمة يفترض فيها الحرية والمسئولية ، وأنها هى وحدها المصدر الوحيد للشرعية .

والحاكم مطالب بأن يقيم حكمه على الشورى ، والرازى رحمه الله يقف على معنى من أجمل المعانى فى نزول آية الشورى « وشاورهم فى الأمر» .. فهذه الآية قد نزلت عقب غزوة أحد ، ونزولها بالذات عقب هذه الغزوة يؤكد حرص الإسلام على الديموقراطية وكراهيته للاستبداد بالرأى . فى هذه الغزوة بالذات كان رأى المسلمين خلاف رأى الرسول ، فقد أصروا على الخروج بينما كان رأية التحصن بالمدينة . . وكانت هزيمة . . ومثل هذا الحدث قد يعطى مبررا لاى حاكم مستبد عبر التاريخ ، لكى يرفض رأى العامة لانه خاطىء . . ومنعا لذلك نزلت آية الشورى ، وفى أعقاب غزوة أحد بالذات ، لتقطع الطريق على من يحاول الانتقاص من رأى أمة ،أو الافتئات على حقوقها ..

حكومة المسلمين

ويثير الدكتور الريس سؤالا هاما لعله كان محور الجدل فى مطلع هذا القرن . . وهو مدى التزام المسلمين بإقامة « الحكم الإسلامى » ومهما تكن أدلة النقاش ، فلا شك أن الرأى الذى كان ينادى بضرورة قيام الحكم الإسلامى عندما كانت السلطة فى يد الاحتلال الفرنسى والايطالى والانجليزى والهولندى والبلجيكى فى الوطن الإسلامى ، لاشك أن هذا الرأى كان هو الرأى الثورى . . والفلسفة التى تعطى ثورة التحرير دافعا قويا . . وتربطها بحركة الجماهير وإيمانها . . إنها على الأقل كانت ترفض الحكم الاستعمارى . . غير الإسلامى . . وتحرض الجماهير ضده . .

بينما كانت الآراء المعارضة تشكل لونا من قبول السلطة الأجنبية الاستعمارية .

فإذا أضفنا إلى ذلك أنه ما من شكل معين لنظام الحكم قد

فرض علينا .. الأمر الذى لو كان لهدد بشل تطورنا ، وهو مالا خوف منه ،لأن الصحابة ـ كما رأينا ـ أقاموا خلال ٣٠ عاما كافة الاشكال المتصورة لقيام السلطة وانتقالها ، ومارسوا حق نقد السلطة والثورة عليها .

فلم تكن الدعوة إلى الحكومة الإسلامية ، خلال سنوات الاحتلال الأجنبي ، تعنى الدعوة إلى قيام شكل بعينه من نظم الحكم .. إنما كانت تعنى أولا وقبل كل شيء إسقاط السلطة الاستعمارية ، ورفض حكمها غير الإسلامى ..

ومن المؤكد أن المسلمين فى الهند وأندونيسيا وأفريقيا كانوا على رأس القوى المقاومة للغزو الاستعمارى الاوربى ..

وهكذا نرى أى زيف قد فرض علينا ، عندما صور أعداء « الحكم الإسلامى » بصورة التقدميين الثوريين ، بينما كانوا فى الحقيقة يعطون المبرر أو الشرعية للحكم الأجنبى .. فما دام المسلمون غير ملزمين بإقامة حكم إسلامى ، ولا يلزم أن يحكمهم مسلم ـ فلا عليهم إن حكمهم كرومر أو جرازيانى

وكم فى تاريخنا من زيف .. وأكاذيب ..

محمد رسول الله

هذا كتاب أحببت أن أعرفك به ، وأن نطوف صفحاته معا .. مؤلفه لا يحاول أن يعلمنا كما يفعل مكسيم رودنسون ، بل يحاول أن يفهم ، ويحاول أن يُفهم مواطنيه من أبناء الحضارة الغربية . .

ومؤلفه « ألفونس ايتين دينيه » هو ابن للحضارة الغربية ،أتيحت له فرصة التأمل ودراسة الدين الإسلامى ، فاكتشف أى زيف روجته الأقلام الصليبية خلال قرون المواجهة بين الغرب والشرق الاسلامى ..

وعرف أن ما لقنوه له عن موضوعية النظرة الغربية ، ليس إلا خداعا سرعان ما يتخلون عنه إذا ما كان البحث يتعلق بالاسلام ، خصمهم الحضارى ..

و «الفونس ايتين دينيه » ولد فى باريس ١٨٦١ فى قمة ازدهار الحضارة الغربية ، وتألق النظام الرأسمالى وتوفى فى ١٩٢٩ ، فى العام الذى بدأ وجه هذا النظام فيه كالحا كثيبا عام الأزمة الاقتصادية الطاحنة التى ألقت بالحضارة الغربية إلى الديكتاتورية . . ديكتاتورية اليمين الفاشية ، وديكتاتورية اليسار الشيوعية . .

وقد عاش دينيه فترة تألق الحضاره الغربية وسيطرتها المطلقة على مصير الدنيا ، عندما كان يبدو خلود هذه السيطرة ، واستحالة مقاومتها فضلا عن هزيمتها ، ومن هنا فقد بدد رحمه الله وغفر له ، الكثير من وقته وجهده فى التشفع لنا عند سادة الدنيا الغربيين ، وإثبات حسن نوايا الشرق واستحقاقه نظرة عطف من الوصى الجاحد القاسى القلب . .

وهو من كبار المصورين الذين تحتفظ المتاحف الكبرى بلوحاتهم وقد تخصص فى رسم الشرق والانسان العربى .ولعله من خلال محاولته تفهم الإنسان العربى عرف الاسلام فآمن به وأسلم . . وقد وضع كتابه هذا عن حياة الرسول . . زينه باللوحات الفنية الملونة . . ولكن ـ للأسف ـ خلت الطبعة العربية من هذه اللوحات مع أنها قد لا تقل أهمية عن الكلمات ..

وقد بدأ المترجمان للكتاب فضيلة الشيخ عبد الحليم محمود وابنه د . محمد عبد الحليم . . عرضهما له باستعراض سريع رغم استغراقه ٥٨ صفحة . . لفكرة الغرب عن الاسلام من خلال الكتابة الصليبية المتعصبة ، ومن خلال محاولات بعض الشامخين فى الفكر الغربى أن أن يتحرروا من أسر هذه النظرة ، ويفكروا موضوعيا فى الإسلام وفى شخصيةالرسول عليه الصلاة والسلام . . وهى مقدمة كان لا بدمنها لكى نفهم التراث الفكرى الذى يكون عقلية المواطن فى الغرب ، ويغرس فى نفسهالعداء والنفور والعجز عن فهم الإسلام . . ثم لندرك صعوبة الوصول بالجهد الذاتى إلى تعرف حقيقة الاسلام . .

وأذكر أنني قرأت فى كتاب « ملوك وجمال » أن « أرامكوا » فتحت مدرسة لتخريج أمريكيين يعملون فى الجزيرة العربية، وبدأت كأى مدرسة بالتعرف على المعلومات العامة لدى طلبتها الذين تقدموا بالذات للعمل فى البلاد العربية الإسلامية . . ويروى المؤلف أن السؤال الذى طرح هو « ماهو الاسلام » و « من هو النبي محمد » . .

وكانت الاجابات !

صحيح ان الأمريكيين شعب الطرائف والغرائب، ولكنها فى اعتقادى تعكس مستوى المعرفة المتاح للمثقفين العاديين فى أمريكا ـ فمثل هذه الوظيفة لا يتقدم لها رجل الشارع . بل إنسان على قدر معين من الثقافة والاهتمام بالاسلام ! . .

أجابوا والعهدة على المؤلف . . إجابات من هذا الطراز :

أحدهم أجاب أن الاسلام لعبة تشبه البريدج ! .. وآخر قال أنه طائفة غامضة تكونت فى الجنوب كفرع لجمعية « كوكلكس كلان » . . وآخر ظن أنه طائفة ماسونية أمريكيه جديدة . .

أما « محمد » فهو الرجل الذى كتب « ألف ليلة وليلة » .

وآخر قال أنه قسيس زنجى أمريكى يعارض الأب ديفين فى نيويورك ! . .

وآخر كان شديد الثقافة فقال : « محمد رجل له علاقة بجبل ما . . ربما ذهب إلى الجبل . . أو ذهب الجبل إليه » إشارة إلى مثل سخيف فى

الفلكلور المسيحى الغربى يقول « إذا لم يذهب الجبل إلى محمد فإن محمداً يجب أن يذهب إلى الجبل ! » .

وبعد أن يعلق المؤلف « جراند بتلر » على هذا الجهل المتفشى بين مواطنيه يتولى هو تعريفهم بالاسلام على وجهه الصحيح . . هكذا :

« قال الملاك : أوه محمـــد ! . : أنت نبى الله . . وأنا جبريل . . اكتب كلمات الله ! . . (أكتب وليس اقرأ) .

كيف يكتب محمد . . وهو الذى لا يعرف حتى القراءة . .

وذهب محمد إلى زوجته التى طمأنته وأكدت له أنه نبى . .

وفى المرة الثانية كتب محمد ما أمره الملاك أن يكتب !

ماهى أركان الاسلام ؟ . . يعلمهم الأخ جوانت بتلر :

المسلم يجب أن يعترف يومياً أنه لا إله إلا الله ومحمد نبيه.. ويجب أن يصلى خمس مرات يومياً فى الصباح وفى الظهر .. وفى المساء . . وفى الليل . . وقبل النوم . . !

الزكاة وهى ٢٫٥٪ من دخله السنوى (!) .

وصوم رمضان أن لا يأكل ولا يشرب من شروق الشمس حتى غروبها . .

وإذا أمكن يحج مرة إلى مكة المقدسة ، حيث يكون من حقه أن يحمل لقب حاج ، وهو يضعه فى مرتبة أعلى قليلا من أقرانه[1] . .

---

(١) ملولا وجمال (نيويورك ١٩٦٠) ص ١٧ ـ ١٨ ـ ١٩ ـ ٢٠

ولا يعنى ذلك أن الغرب لا يدرى شيئاً عن الإسلام . . بالعكس لقد كان لديه دائماً أبداً متخصصون على درجة عالية من الفهم والمعرفة للاسلام كعدو حضارى ، ولكن التعبئة الأيدلوجية المطلوبة لغزو ديار المسلمين واستعبادهم تطلب إلى جانب الفهم الدقيق لدى القيادات ، تجهيلا واسع النطاق لدى الجماهير ، حتى يمكن حشدهم وتوجيههم لمقاتلة الوثنيين المتخلفين المحمديين! . .

من هنا كانت صعوبة وصول المواطن الغربى إلى تصور حقيقى لطبيعة الإسلام وشخصية الرسول ، وكانت عظمة الإسلام فى استطاعة تعاليمه أن تخترق حجب الجهل والتزييف هذه ، وعظم المجهود الذى بذلته بعض الشخصيات النبيلة لتتفهم هذه التعاليم . .

فيعرفنا الكتاب بالكونت هنرى دى كاسترى ، المستعمر الفرنسى الذى هزته كبرياء الجزائريين عندما يمارسون شعائر الاسلام . . وراعه أنهم يستطيعون الوقوف بين يدى الله بمجرد نزولهم من فوق ظهور الجواد فى أية بقعة من الصحراء يبدأون فيها الصلاة ! . . ويبدو أنه لم يعلم أنه بوسعهم أن يصلوا ، أى أن يقفوا بين يدى الله ، حتى وهم على ظهور خيلهم . .

ومن خلال حياته فى بلاد الاسلام استطاع الكونت أن يكتشف سخافات وتزييف ما كتب فى فرنسا عن الاسلام . .

يقول الكونت : « من الغريب قولهم أن محمداً الذى هو عدو الأصنام ومبيد الأوثان كان يدعو الناس لعبادته فى صورة وثن من

ذهب ! وزعموا أن صورة « ماهوم » (يعنى النبى محمداً) كانت تصنع من أنفس الأحجار والمعادن بأحكم صنع وأدق إتقان . .

أليس من الطبيعى أن يظل مجمع الكرادلة متهماً للمسلمين بأنهم عبدة أوثان إلى عامين مضيا . . عندما عفا عنا وأعلن نقلنا من دائرة الوثنيين إلى دائرة الذين يعبدون إلهاً . . بالرغم من أن ديننا قد وصل إلى الذروة فى التوحيد ، بل لا يمكن القول أن هناك عقيدة أخرى قد وصلت فى التوحيد إلى ما وصل إليه ، بل وديننا يكره مجرد اقتناء صورة ، ولم يجرؤ فنان مسلم على رسم صورة لأحد الصحابة فضلا عن رسول الله إلى الآن . .

ولكن هذا نموذج مما زيفته الحضارة الغربية على الاسلام . .

ويفسر الكونت دى كاسترى هذا التزييف ، بأنهم ما كانوا يقصدون الحقائق التاريخية بل حفظ روح البغضاء فى نفوس الغربيين ويؤكد أن روح البغضاء هذه لم تسد القرون الوسطى وحدها ، بل مازالت سائدة عند الغربيين ، وكان سلاحهم الوحيد هو إشباع خصمهم سباً وشتما ، وتحريف النقل عنه مااستطاعوا . .

وأتعب الكونت نفسه فى الرد على العديد من الافتراءات مثل الزعم بان الرسول لم يكن أميا وإلا لما اختارته خديجة للمتاجرة لها فى الشام ، فيؤكد الكونت أنه يوجد وكلاء للكثير من التجار أميون . بل لعل الكونت لو عاش لعرف أن صاحب أكبر بنك فى الجزيرة

العربية . . أمى . . لايعرف من الكتابة إلا الامضاء ، وهو من أنجح الاقتصاديين . .

ويرد ردا بارعا على الزعم بأن محمدا عليه الصلاة والسلام عرف التوحيد من اطلاعه على التوراة والإنجيل . . فيقول الكونت : لوأنه فعل لما اهتدى إلىالتوحيد قط !

ثم ينتقل المترجمان إلى « كارلايل » صاحب كتاب الأبطال الذى يكتب عن رسول الله فيقول : « من العار أن يصغى إنسان متمدين من أبناء هذا الجيل إلى وهم القائلين أن دين الاسلام كذب وأن محمدا لم يكن على حق . . . »

« لقد آن لنا أن نحارب هذه الادعاءات السخيفة المخجلة فالرسالة التى دعا إليها هذا النبى ، ظلت سراجا منيرا ، أربعة عشر قرنا من الزمان ، لملايين كثيرة من الناس . فهل من المعقول أن تكون هذه الرسالة التى عاشت عليها هذه الملايين وماتت مجرد أكذوبة ؟ . . لو أن الكذب يروج عند الخلق هذا الرواج الكبير لأصبحت الحياة سخفا وعبثا وكان الأجدر بها ألا توجد »

ومنطق كارليل : « هل رأيتم رجلا كاذبا يستطيع أن يخلق دينا ، ويتعهده بالنشر بهذه الصورة ؟ إن الرجل الكاذب لا يستطيع أن يبنى بيتا من الطوب ، لجهله بخصائص مواد البناء ، وإذا بناه فما ذلك الذى يبنيه إلا كومة من أخلاط هذه المواد . فما بالك بالذى يبنى بيتا دعائمه هذه القرون العديدة ، وتسكنه هذه الملايين الكثيرة من الناس »

وحجة كارليل قوية . . ومنطقية فى الفهم الغربى للأمور . . فإن محك صدق الشيء نجاحه . . وقد يرد عليها ـ ولو أننا لا نلتزم بها ـ بأن بوذا وكونفشيوس قد أسسا دينا تعتنقه ملايين أكثر ولقرون أطول.. ولكن يرد على ذلك بدراسة لظروف العزلة التى أحاطت بالبوذية ومكنتها من الانفراد ، بينما ظهر الإسلام فى قلب المركز الدينى للعالم وتعرض لحرب شعواء بمختلف الأسلحة، ثم بقى وصمد وانتشر . .

ويختتم كارليل بحثه عن رسول الله قائلا :

هكذا تكون العظمة . . !

هكذا تكون البطولة . . !

وهكذا تكون العبقرية !

أما « تولستوى » فإن الكتاب يقدم حقيقة لعلها غير معروفة لأبناء هذا الجيل ، وهى سر قرار الحرمان الذى أصدره البابا ضده ، والغريب أنه على كثرة ما كتب عن تولستوى ، حتى شتائم زوجته ، فانه من النادر أن نعثر على تسجيل لرأيه فى الإسلام وفى رسول الله . . بل وخطاب الشيخ محمد عبده له . .

يقول تولستوى :

« لاريب أن هذا النبى من كبار الرجال المصلحين الذين خدموا الهيئة الاجتماعية خدمة جليلة . ويكفيه فخرا أنه هدى أمة برمتها إلى

نور الحق ، وجعلها تجنح للسلام ، وتكف عن سفك الدماء وتقديم الضحايا . .

ويكفيه فخرا : أنه فتح طريق الرقى والتقـــدم ، وهذا عمل عظيم لا يفوز به إلا شخص أوتى قوة وحكمة وعلما ، ورجل مثله جدير بالاحترام والإجلال . . . ! !

وقد كتب له الشيخ محمد عبده :

« أيها الحكيم الجليل مسيو تولستوى

لم نحظ بمعرفة شخصك ، لكننا لم نحرم التعارف مع روحك . سطع علينا نور من أفكارك ،وأشرقت فى آفاقنا شموس من آرائك ، ألفت بين نفوس العقلاء ونفسك، ونظرت نظرة فى الدين مزقت حجب التقاليد ، وصلت بها إلى حقيقة التوحيد .

وكما كان وجودك توبيخا من الله للاغنياء ، وكان مددا من عنايته للضعفاء وللفقراء . وإن أرفع مجد بلغته ، وأكبر جزاء نلته على متاعبك فى النصح والارشاد ، هو هذا الذى سماه الغافلون بالحرمان والابعاد ، فليس ما حصل لك من رؤساء الدين ، سوى اعتراف منهم أعلنوه للناس أنك لست من القوم الضالين . فاحمد الله على أن فارقوك فى أقوالهم . . كما كنت فارقتهم فى عقائدهم »

أما اللورد هيدلى ، فقد فكر وصلى ٤٠ سنه حتى اكتشف أن « الدين المحمدى » هو الذى يجعل الانسان يعبد الله وحده كل الوقت وليس فى أيام مخصوصة . .

واكتشف أن الاسلام هو الدين العالمى حقا . . ولو أنه خرج من ذلك بنتيجة غريبة لا نقره عليها ، وربما طرحها بحسن نيه لاغراء الانجليز باعتناق الاسلام ! !

« أيمكن اذن ، أن يوجد دين يمكن للعالم الإنسانى من أن يجمع أمره على عبادة الله الواحـــد الحقيق ، الذى هو فوق الجميع ، وأمام الجميع ، بطريقة سهلة خالية من الحشو . . فكر لحظة أنه لو أصبح كل فرد فى الامبراطورية الانجليزية محمديا حقيقيا بقلبه وروحه لأصبحت إدارة الأحكام أسهل من ذلك ، لأن الناس سيعملون بدين حقيقى » .

ويضع اللورد إصبعه على سر إعجاز الإسلام ، وهو رفع الحجاب بين الأرض والسماء .

« ليس هناك فى الاسلام إلا إله واحد نعبده ونتبعه ، إنه أمام الجميع وفوق الجميع ، وليس هناك قدوس آخر نشركه معه ، إنه لمن المدهش حقا أن تكون المخلوقات البشرية ذوات العقول والألباب على هذا القدر من الغباوة ، فيسمحون للمعتقدات والحيل الكهنوتية أن تحجب عن نظرهم رؤية السماء ، رؤية أبيهم القهار المتصل دوما بكل مخلوقاته سواء كانوا عاديين أم أولياء مقدسين» .

« مفتاح السماء موجود دائما فى مكانه ، ويمكن إدارته لأذل وأقل المخلوقات ، دون أية مساعدة من نبى أو كاهن أو ملك . إنه كالهواء الذى نستنشقه مجانا لكل خلق الله . . »

ويدهش اللورد من أولئك الذين يبشرون باسم السماء ثم يروجون

الاكاذيب . . ! ، ليس فى وسع الانسان ، فى الحقيقة ، إلا أن يعتقد أن مدعى وناسجى هذه الافتراءات ، لم يتعلموا حتى ولا أول مبادىء دينهم ، وإلا لما استطاعو أن ينشروا فى جميع أنحاء العالم ، تقارير يعرفون أنها محض كذب واختلاق »

وهو موقف يحتاج حقا إلى دراسة عميقة . . كيف يقبل رجل دين أن يهـــدى الناس إلى ما يعتقد أنه الحق والصدق ، بالاكاذيب والافتراءات ؟! . . وهل يعقل أن رجال الدين هؤلاء ـ على سعة معرفة بعضهم ـ يصدقون هذه الافتراءات ، ولا يكلفون أنفسهم مؤونة دراسة دين نصبوا أنفسهم لمحاربته . . أم أن الحقيقة نسبية ، والناس تحدد علاقتها بالحقيقة مسبقا ، من خلال الموقع الذى يقفون فيه وينظرون إلى الحقيقة من زاويته ؟! .

ويبدو أن تاريخ الغرب الحديث حافل بالذين وصلوا إلى الاسلام بجهودهم الخاصة ، ويبدو أيضاً أن ستارا رهيبا من النسيان قد ضرب على هؤلاء ، وأن جهات عديدة فى الوطن العربى تنفق أموالها فى تعريفنا بأى شىء ، إلا بالذين كتبوا عن إيمان واقتناع وفهم عن الاسلام ونبى الاسلام .

فيعرفنا الكتاب بالشيخ « عبد الواحد يحي » أو « رينيه جينو » قبل أن يسلم . . والذى ــ كما يقول الكتاب ــ ترجمت كتبه إلى معظم اللغات ـ حتى لغة « الهند الصينية » ـ إلا اللغة العربية[1] . . ، « ورينيه

(١) الجامعة العربية اتخذت قرارا بترجمة الأعمال الكاملة لشكسبير . . ودار الكاتب عاكفة على ترجمة الأعمال الكاملة لدستوفسكى ! .

جينو » وصل إلى الاسلام من خلال بحثه عن نص مقدس لم يشبه تحريف أو تبديل ، ومن خلال دراسة تاريخية وعلمية وصل إلى أن القرآن هو وحده الوثيقة التى لم يصبها أى تحريف أو تبديل ..

ثم نصل إلى دينيه .. ولكن قبل أن نتحدث عن دينيه يجب أن نقف قليلا حول مغزى إسلام هؤلاء الذين يمثلون نخبة المثقفين فى الحضاره الغربية .. إنهم يمثلون حالة نادرة من حالات الانتصار العقائدى .

فالحضارة الغربية فى هذه الفترةالتى أسلم فيها هؤلاء - ونعنى من القرن التاسع عشر إلى مطلع القرن العشرين — كانت تمارس مجدا لم تعرفه حضارة من قبلها ، قد ركعت عند قدميها كل الحضارات وكل الشعوب .. الكلمة كلمتها بغير منازع فى مصير الانسان .. تفوق ساحق فى جميع الميادين .. أمام تخلف مزر بكل المقاييس ..

وليس إلا فى الاسلام وحده ، نجد ظاهرة اعتناق القاهر المنتصر عقيدة المقهورين .. ولاشك أن الذى يستشف عظمة الإسلام وسمو تعاليمه وصدق رسالته ، من خلال حياة المسلمين فى آسيا وأفريقيا فى القرن التاسع عشر .. وهو القادم من باريس أو لندن أو برلين .. لاشك أن ذلك يؤكد عظمة هذه التعاليم وتفوقها الساحق ، كما يؤكد شفافية وموضوعية ذلك الذى اراد الله له الهداية ..

وقد اكتشف « دينيه » ! أن العقيدة المحدية لاتقف عقبة فى سبيل

التفكير ، فقد يكون المرء صحيح الاسلام ، وفى الوقت نفسه حـر التفكير » .

« وكما أن الإسلام قد صلح — منذ نشأته — لجميع الشعوب والأجناس ، فهو صالح كذلك لكل أنواع العلميات وجميع درجات المدنيات » .

يقول دينيه « لوكان الإسلام الحقيقى معروفا فى أوروبا لكان من المحتمل أن ينال — أكثر من أى دين آخر — من العطف والتأييد من جراء روح التدين التى نجمت عن الحرب الكبرى ، فإنه — والحق يقال — يلائم جميع ميول معتنقيه على اختلاف مشاربهم » .

وقد تولى « دينية » مناقشة قومه فعقد مقارنة بين مفهوم الله عندنا وصورته كما تقدمه التوراة . يقول :

«الدين الإسلامى هو الدين الوحيد الذى لم يتخذ فيه الاله شكلا بشريا أو ما إلى ذلك من الأشكال . أما فى المسيحية فإن لفظة « الله » تحيطها تلك الصورة الآدمية لرجل شيخ طاعن فى السن قد بانت عليه جميع دلائل الكبر والشيخوخة والانحلال ، فمن تجاعيد بالوجه غائرة إلى لحية بيضاء مرسلة مهملة تثير فى النفس ذكرى الموت والفناء . ونسمع القوم يصيحون « ليحيا الله » فلا نرى للغرابة محلا ، ولا تعجب لصيحتهم وهم ينظرون إلى رمز الأبدية الدائمة وقد تمثل أمامهم شيخا هرما قد بلغ أرذل العمر ، فكيف لا يخشون عليه من الهلاك والفناء ؟ وكيف لا يطلبون له الحياة ؟ ... » .

وقد علق مسيو « كازانوفا » أحد كبار أساتذة الكوليج دى فرانس على موقف الاسلام من العلم فقال : « يعتقد الكثيرون منا أن المسلمين لا يستطيعون تمثل آرائنا وهضم أفكارنا . . يعتقدون ذلك وينسون أن نبي الإسلام هو القائل بأن فضل العلم خير من فضل العبادة ! فأى رئيس دينى كبير ، أو أى قس من القساوسة العظام، كانت له الجرأة أن يقول مثل هذا القول القوى الفاصل ؟ . . هذا القول الذى هو عنوان حياتنا الفكرية الحاضرة . . ولكن أليس العهد بقريب يوم كانت الكافة عندنا من أهل العقول تنظر إلى مثل هذا الشعار كأنه رمز العار ومجلبة الشنار » .

وعلى عكس ما يروجه الدجال عن تأثير الحروب الصليبية نجد الأشراف من رجال أوربا يعترفون بفضل العرب . يقول العالم المسيحى المتدين « بارتلمى سان هيلار » :

« إن العرب هم الذين يرجع إليهم الفضل على سادات أوربا وفرسانها ، فى القرون الوسطى ، فى تعديل عاداتهم الخشنة وتلطيفها ، ثم تعليمهم رقة العاطفة ، وتهذيب نفوسهم ، والرفعة بها إلى حيث الإنسانية والنبالة . وكل ذلك دون أن يصيبهم ضعف ينقص من فروسيتهم وشجاعتهم شيئاً » .

ثم ننتقل إلى الكتاب ذاته ، وهو سيرة عادية لرسول الله صلوات الله عليه وسلامه ، جمعها المؤلف من كتب السيرة ، ولا أرى القارئ العربي يستفيد كثيراً منها ، فأى مرجع عربي يرجحها ، خاصة وأن المترجمين لم يحاولا التعليق أو الشرح أو التحقيق ، وأيضا لأنها لم تخل من آثار المستشرقين هنا أو هناك .. بل الغريب أن المترجمين على مكانتهما العلمية يعترفان أنهما ترجما أحاديث نسبها دينيه لرسول الله ، وأعجزهما الوصول إلى أصلها العربي .. ولا ندرى كيف سمحا لنفسهما بترجمة ونشر أحاديث وهما لا يعرفان لها أصلا ! . .

إن إعجابنا بقدرة « دينيه » على هداية نفسه لا يعنى أن نتعلم منه ديننا ، أو نجعل منه الصحيح السابع فى السُّنة ! .. ومن يحقق الحديث إن لم يفعل عميد كلية من كليات الأزهر ، وإمام من أئمة التصوف ! ! ألا يحق لنا أن نخشى قارئا من الذين يتخطفون الكلام ، يأتى بعد عدة سنين فيقول عن محمد عن عبد الحليم عن الفونس دينيه أن رسول الله .. استغفر الله العظيم ..

ورغم ما التزم به دينيه فى مقدمة دراسته عن سيرة الرسول من

رفض المعجزات . . إلا أنه سرعان ما استهوته الخوارق شأنها مع العقلية الغربية ، واضطرب منهجه بين قبول المعجزات ، وبين البحث لها عن تفسير علمى ، وهو فى اعتقــــادى شر الحلول ، فإما أن نقبل المعجزات ، ما دمنا قد سلمنا بوجود قوة خارج القوانين الطبيعية . . من معجزاتها هذا الاستمرار ، وهذه الحتمية فى قوانين الطبيعة ، غير أن هذه الارادة العليا لا يعجزها أن تعترض روتينية ورتابة القوانين الطبيعية فتحدث من الأفعال ما تشاء . .

وإما أن نرفض الخوارق جملة ، وننظر إلى الدين نظرة عقلانية بحتة فى حدود ما وصل إلى علمنا من قوانين الوجود والحركة . . والاسلام لا يعجزه اقناعك بأى الأسلوبين اخترت . .

فلن تستوقفنا السيرة طويلا ، بقدر ما نتوقف عند بعض الملامح التى جذبت هذا العقل الغربى إلى الاسلام . .

« والميزة الخاصة التى يمتاز بها حج المسلمين هى عدم وجود تلك المعابد الكثيرة ذوات القباب الضيقة التى تحبس الأرواح ، وتقفها فى وثبتها إلى الخالق ، فتبقيها على الأرض رهن رحمة القسيس .

ويمتاز أيضا بانعدام جيش القديسين العرمرم ، الذى تشغل عبادته عن عبادة « الاله الخالد » الذى ينسى عادة فى مثل تلك الأوقات. وأخيراً ، فالذى يمتاز به الاسلام ، انعدام القسس ، ورجال الدين على اختلاف درجاتهم الذين يتحاسدون ويتنافسون فى اجتذاب الحجاج،

والاستيلاء على أمكنة الحج لإرضاء وتمجيد طوائفهم ، أو درجات كهونتهم .

فى مكة لايعبد إلا الله الواحد الصمد . فإن كان الحجاج يحاولون بعث ذكريات إبراهيم ومحمد ، فانما يكون ذلك ليقووا شعلة إيمانهم متبعين سنة نبيهم ، ولا يصلى المؤمنون أبداً لأولئك الأنبياء كما يصلى المسيحيون لقديسهم ، بل إنهم ليدعون لهم برحمة الله . »

ويتحدث عن الانتصار الاسلامى الفريد فى نوعه :

« ففى أقل من مائة عام ورغم قلة عددهم ، استطاع العرب الأمجاد وقد اندفعو ، لأول مرة فى تاريخهم ، خارج حدود جزيرتهم المحرومة من مواهب النعم ، أن يستولوا على أغلب بقاع العالم المتحضر القديم ، من الهند إلى الأندلس » .

« وقد شغلت ، فى قوة ، هذه القصة المجيدة تفكير أعظم عباقرة عصرنا هذا ، أعنى نابليون ، الذى كان ينظر دائماً إلى الاسلام باهتمام ومودة ، فيقول عن نفسه فى إحدى خطبه المشهورة بمصر : أنه مسلم موحد . و يذكر الاسلام فى أواخر أيامه فيرى أنه ، إذا طرحنا جانبا الظروف العرضية التى تأتى بالعجائب ، فلا بد أن يكون فى نشأة الاسلام سر لا نعلمه ، وأن هناك علة أولى مجهولة جعلت الإسلام ينتصر بشكل عجيب على المسيحية ، وربما كانت هذه العلة الأولى المجهولة : أن هؤلاء القوم الذين وثبوا فجأة من أعماق الصحارى ، قد صهرتهم ، قبل ذلك ، حروب داخلية عنيفة طويلة ، تكونت خلالها أخلاق قوية ومواهب

عبقرية وحماس لا يقهر ، أو ربما كانت هذه العلة شيئاً آخر من هذا القبيل . »

ولذلك كان نابليون يعلم أن وراء خمول العالم الاسلامى ، فى فترة الانحطاط خزائن لامثيل لها من القوة الفعالة الكامنة ، فحاول ، فى مناسبات متعددة ، أن يستميل المسلمين إلى جانبه ببعض المعاهدات، وكان يؤمن بأنه إذا وفق فى ذلك يستطيع أن يوقظ الاسلام من سباته وأن يغير بمعونته وجه الأرض قاطبة » .

« ولم يكن نابليون مخطئاً فى ظنه ، فقد كانت الحروب الداخلية ، حقاً ، سبباً فى إظهار سجايا البطولة عند العرب ، ولكنها ، إلى جانب ذلك كانت حجر عثرة فى سبيل كل تقدم وكل نظام ، ولولا نبوة محمد لظل هؤلاء الجنود البواسل إلى آخر الزمن فى صحاريهم لايشغلهم سوى الفتن المتوارثة .

على أية حال مهما تكن نوايا نابليون الحقيقية ، فإن عبقريته قد كشفت الطاقة الهائلة التى يفجرها الاسلام فى معتنقيه ، ولا شك أن هذه النصوص تثبت تهافت التفسير الذى يدعى أن نابليون جاء إلينا يحمل مبادىء الثورة الفرنسية ، وأراد أن يقيم قومية علمانية . . إنه الشواهد والنصوص تؤكد أنه لم ينظر إلينا إلا كمسلمين ، وأنه عندما فكر فى الاستعانة بنا فقد انطلق هذا التفكير من قوتنا كمسلمين قبل كل شىء . .

كذلك نجد « الفونس دينيه » معجبـــا بالحضارة العربية والفن

العربى . . قد ملأه بهذا الاعجاب إيمانه بالإسلام . . وهذا يؤكد ما نذهب إليه من أن الاسلام هو وحده الذى يحقق عزة العرب ، ويجمع القلوب حولهم ، وأن الذين يحاولون تجريد العروبة من الاسلام يضمرون شرا للعروبة لا يقل عن بغضهم للاسلام . .

ويستعرض « دينيه » بعد ذلك فضل الحضارة العربية على أوربا .. بشواهد وأدلة وحقائق علمية تخرس كل دجال . .

العرب هم الذين اكتشفوا « الكحول وحامض الكبريتيك أساس علم الكيمياء ، وأهم العمليات الأساسية فى هذا العلم كالتقطير ، تطبيق الكيمياء فى ميدانى الصيدلة والصناعات ، وخاصة فيما يتعلق باستخراج المعادن وصناعة الفولاذ ، والصباغة وغير ذلك . . صناعة الورق من الخرق ، الاستعاضة به عن رق الغزال وورق البردى والحرير الصينى ، ومن المحتمل أنهم أول من استخدم البوصلة فى الملاحة ، ومن المحقق أنهم أدخلوا هذا الاختراع الاساسى فى أوروبا — وأخيرا فهم الذين اكتشفوا الأسلحة النارية ففى عام ١٢٠٥ استخدم الأمير يعقوب المدفعية فى حصار مدينة المهدية ، وفى عام ١٢٧٣ استخدمها السلطان أبو سيف فى حصار مدينة سجلماسة ، وقد حضر كونت دربى وكونت سالسبرى الإنجليزيان فى حصار مدينة الجزيرة التى دافع عنها العرب بالمدافع ، فشاهدوا نتائج استخدام البارود ، فنقلا ذلك الاختراع إلى بلادهم فاستخدمه الانجليز فى معركة كريش بعد ذلك بأربع سنوات . . »

ويقول الفونس دينيه « ولعل أثر المسلمين فى ميدان الفكر أخطر

شأنا ، فقد دعا عيسى إلى المساواة والأخوة ، أما محمد فقد وفق إلى « تحقيق » المساواة والأخوة بين المؤمنين أثناء حياته .

وقد عارض « ابن رشد » وحدة الوجود القديمة ، والتجسيم المسيحى بعقيدة الايمان بالله وحده فى الاسلام ، وتحمس أحرار الفكر فى العصر الوسيط الأوروبى لشروحه لأرسطو ، وإن كانت هذه الشروح مصبوغة بصبغة إسلامية قوية . ويمكن أن نعتبر ' بحق ' أن التيار الفكرى الذى نشأ عن هذا التحمس لابن رشد كان أصل التفكير المنطقى الحديث ' فضلا عن كونه من أصول الاصلاح الدينى .»

ويطرح «دينيه» سؤالا هاما .. لماذا ينكر الغرب كل أثر للاسلام .. ولماذا ينكر هذا الأثر « علماء يبدو أن روحهم العلمية تخرج بهم عن كل تعصب دينى .»

ويجيب على سؤاله : « إن الواقع يشهد بأن حرية الرأى مسألة ظاهرية أكثر منها حقيقية ، وأن الإنسان ليس حر التفكير على الاطلاق كما يشاء فى مسائل معينة ، ثم إن التعصب الموروث لدى المسيحيين ضد الإسلام وأتباعه ، قد عاش فيهم دهورا طويلة ، حتى أصبح جزءاً من كيانهم .

« فاذا أضفنا إلى هذا التعصب الدينى تعصبا آخر هو أيضا موروث تزيده الأجيال المتتالية تمكنا من النفوس بفضل مناهج الدراسات القديمة التى تسير عليها مدارسنا ، وهو أن كل العلوم والآداب الماضية يرجع الفضل فيها إلى الاغريق واللاتين وحدهم ، أدركنا فى يسر كيف

ينكر الناس عامة، ذلك الأثر العظيم الذى كان للعرب فى تاريخ الحضارة الأوروبية.

«وسوف يبدو دائما لبعض العقول أنه من المهانة أن تدين أوروبا المسيحية للمسلمين باخراجها من ظلمات البربرية والتوحش»

صدقت يا ألفونس وبررت، وإذا كان تعصب أوروبا وحقدها على الإسلام والمسلمين يفسران انكارها لدور العرب.. فان نفس الحقد مع العمالة يكمنان خلف محاولة البعض من غير الاور بيين أن ينسبا أمجاد العرب إلى أصول لا تينية وإغريقية!..

ثم ينتقل بنا الفونس إلى وضع المسلمين الحالى، ويتوقف طويلا فى أسى عند تخلف المسلمين الراجع إلى رفضهم التعامل بالربا.. وينصحنا فى تألم صادق: «ولكن القرض أصبح اليوم من المقومات الأساسية فى كل المشاريع الضخمة، وأصبحت «البنوك» صاحبة السلطة الحقيقية فى العالم، ولذا وجد المسلمون أنفسهم، مؤقتا، يسيرون إلى الافلاس الاقتصادى والسياسى بسبب تفسيرهم المبالغ فيه لآيات الربا»

ولاشك أننا نفتقد رأى المترجمين فى هذا الرأى، ولكنهما اكتفيا بملاحظة هامشية أعلنا فيها أن الاسلام يحرم الفائدة مهما كانت نسبتها!

ووضع الأمر على هذا النحو يوحى كأن ديننا يوقعنا فى موقف لافكاك منه، أولا حيلة لنا فيه..

وكان من الضرورى مناقشة ما هو مجتمع «التعاون والأخوة

والتعاطف ، وكيف يترجم ذلك فى ميـــدان الاقتصاد . .

ولقد ناقشنا موضوع الربا فى ردنا على مكسيم رودنسون ١ .

ومن الغريب أن يجد ألفونس أن سر تخلفنا فى مطلع القرن العشرين هو تحريم الربا ! . . ليته قال لنا أين وجد هؤلاء المسلمين الذين لا يتعاملون بالربا ويرفضون فتح بنك ! . . ليتهم وجدوا . . إذن لـكان لنا شأن آخر . .

مع من إذن كانت كل هذه البنوك الاجنبية تتعامل إلا مع أصحاب البلاد المسلمين . . وبمـاذا كانت تتعامل إلا بالربا ؟ . .

ولو عاش ألفونس إلى نهاية عام ١٩٢٩ وما بعدها من سنوات الأزمة لرأى أى كارثة سببها نظام البنوك للحضارة الرأسمالية . .

على أية حال إن « الفونس » عندما أسلم لم ينفصل عن أوروبا ولا فرنسا بالذات ، وهو أراد أن يهدى أوروبا إلى الاسلام .

« فإذا دخل الاسلام فى الحضارة الاوربية بفضل اشتراكه العظيم فى الحوادث فسيتضح سناه الحقيق ، وستعرف الأمم المختلفة حقيقته التى حجبت عنهم زمنا ، وسيمد الـكل يده لمحالفته ، متنافسين فى ذلك ، لأن قيمته قد خبروها ، وعرفوا ما يستكن فيه من وسائل القوة التى لا حد لها ولا نفاد . .

---

(١) الفصل السابع « الاسلام والرأسمالية »

«ولو نهض أتباع محمد عليه السلام وأفاقوا من سباتهم العميق لرجع لهم عزهم السالف وتاريخهم المجيد، وصاروا أمة لاتعرف الجور في معاملتها لكل رعاياها، لا فرق بين مسلم ومسيحى ويهودى، وتبوءوا مكانهم الذى يليق بمجدهم إن شاء الله.» ...

أما نحن فلا نطمع فى هداية الغرب - الآن على الأقل - بل نريد أن نبعث الايمان فى الشرق لينهض فيحرر نفسه، وينفض غبار التخلف عن قيمه، لتهدى بنورها من يهديه الله..

من مقدمة كتاب

للأمم عند نهضتها علامات لايخطئها الدارسون ، وللحضارات عند بعثها وتجددها شواهد لا يغفلها المؤرخون . . وربما كان أهمها — فى اعتقادى — الالتفات إلى التراث . . الايمان بالأسلاف ، ومن ثم اليقين بقدرة الأحفاد على الابداع . . فما من حضارةقد ازدهرت ولاأمة قد بعثت ، على سب قديمها ، ولعن تراثها ، وعدم احترامه . . أو حتى توديعه بكلمات تأبين مبعثها إيمان قائلها بأن « إكرام الميت دفنه » ! .

ويستطيع المؤرخ أن يجد تلازما بين انتفاضاتناالسياسيةوالاجتماعية وحركة بعث التراث . . بل إننا نرى أن البعث الحقيقى لم يتحقق لأننا لم نستلهم بعد روح تراثنا ولا استطعنا أن نضعه فى مكانه الحقيقى من مكونات الفكر العربى المعاصر . .

والدعوة إلى بعث التراث تثير دائما عاصفة من النقد من جانب أعداء العروبة ، أعداء الإسلام . . لأن كشف أمجاد الماضى ، يغرى دائما ، بالاعتزاز بنسبة الحاضر إليه ، ويدعم الدعوة لبناء الشخصية العربية بهدى الإسلام ونوره . .

وقد هاجم أعداء تراثنا ، أعداء كياننا العربى ، هاجموا عملية بعث التراث » أى نقله من ورق أصفر إلى ورق أبيض » كما يصفونها . .

وهو وصف غير صادق ، لأن التراث وقتها لم يكن مطبوعا أوحتى مخطوطا على ورق أصفر كما يزعمون ، بل كان نهبا مشاعا لغير العرب يحتكره المستشرقون ، فيخفون فى متاحفهم ، ومكتباتهم وخزائن القصور والكنائس ما شاءوا ، ويحرفون ماحلا لهم ، ويطبعون ما عنَّ لهم بتشويه مقصود تثيره روح التعصب والصليبية المتوارثه ، أو بتشويه مبعثه سوء الفهم والعجز عن استشفاف روح حضارة مختلفة . .

يومها كان الجانب الأكبر من التراث فى أيدى أعـــداء الإسلام والعرب . . لأنه نهب.

فهم أولا استعاروا هذا التراث كطالبى علم ، قرأوه بالعربية ، ثم ترجموه . . ثم لمـا استولوا على العالم الإسلامى ، وكانت لهم الغلبة المادية منذ القرن السادس عشر ، بدأوا عملية نهب مسلح ، أو باستغلال حالة التخلف والفقر فى الوطن الإسلامى ، فنقلوا معظم المخطوطات إلى بلادهم . .

ومن هنا كان المسلمون المخلصون ، وأبناء العروبة الصادقون ، محقين كل الحق فى ضرورة أن يعاد نشر هذا التراث ، أو بمعنى أصح أن ينشر لأنه كان اشبه بالآثار المصرية فى القرن الثامن أو التاسع عشر ، قد تعرض لعمليات تخريب وانهيار لولا روعته وشموخه لمـا بقى منه شىء . .

كان من الضرورى أن يعاد جمع الأشتات المبعثرة ، ويعاد ترميمها وضبطها حتى نصل إلى أقرب صورها الصحيحة . . وهى عملية لم تتم حتى الآن رغم كل مايقال عن الاهتمام بالتراث . .

ولأن الهجوم على التراث الآن لم يعد ممكنا ، بعد أن استقل العالم الاسلامى ، واختفت دار المندوب السامى ، ولم يعد بوسع دولة صليبية أن تحشد البوارج عند سواحلنا بحجة حماية التحفظات الأربعة!

لذا فإن الهجوم على نشر التراث بدأ يأخذ نغمة الرغبة لافى نقله من ورق أصفر إلى ورق أبيض . . بل إخراج روائعه . .

وهم كاذبون . .

لأنهم لايؤمنون أبدا بهذا التراث ، وهم يرون أن عيوبنا الفكرية المعاصرة إنما تأصلت فينا «عبر ألفى سنة من الفقر الثقافى والعزلة الثقافية عن ثقافات الامم الاخرى» .

ما هو تراثنا ؟ .

هو ثمرة الألفى عام هـــذه . .

أى ثمرة «الفقر الثقافى والعزلة» ! . . أهذا تراث يحرص عليه ؟ .

أو يدعى كاتب هذا القول أنه حريص عليه؟ . .

لا . . الفقر الثقافى لاتراث له . . ولاغناء فى بعثه ، سواء على ورق أصفر أو أحمر . . إنمــا لأننا بدأنا حركة البعث بإعادة ترميم ونشر وفهم أغنى تراث خلفته أمة لأحفادها . . فان ذلك يثير جنون وفزع

أعداء العروبة والإسلام ، فيعودون يحتالون زاعمين أن المسلسلات التليفزيونية عن عمر بن الخطاب أجدى من تحقيق سيرته ! .

ولا نسمح لأنفسنا بأن نسقط فى شرك هذه المقارنة . . فلا بد أن تستكمل الأمة معرفتها بتراثها الثقافى ، ولا بد أن يتعلم المثقفون فيها قراءة هذا التراث وفهمه ، وسبرغوره ، واستشفاف روحه ، ولا بد أن تعيش قيم هذا التراث فى نفوسهم . . ولا بد أن يتمثلوا هذه المعانى ثم تأتى عملية الخلق ، إنتاج أعمال فنية تتفق وعصرهم ، وتعيد تقديم قيم حضارتهم فى شكل يصل إلى عقول معاصريهم ، ويعكس خلود وتفوق هذه القيم . .

هذا قانون عام فى بعث الحضارات وانهيارها . . حتى الشيوعية عندما وصلت إلى السلطة وأرادت أن تبنى دولة وتبعث أمتها ، اعتزت بالاسلاف ، وغفرت خطاياهم . ورغم كل ما كتبه البلاشفة ضد الاستعمار ، نجدهم قد برروا استعمار آسيا السوفيتية وحده فى عصر القيصرية ، لأنه كان السبيل إلى ما تنعم به شعوب آسيا السوفيتية الآن من فضل النظام السوفيتى . !

ولعل مثال الحضارة الغربية أقرب لفهم أولئك الذين يلعنون تراثهم.. ألم تكن بداية نهضتها فى العودة إلى تراثها الإغريقى والرومانى . . رغم بعد العهد بين أوربا الحديثة وأسلافها من الإغريق والرومان . . ورغم انقراض هذا التراث ، حتى لقد تلمسوه عند المسلمين ، وتعلموه من العرب.. من ترجماتهم وشروحهم . . رغم اختلاف لغاتهم عن اللغة

التي اخرجت هذا التراث . . ورغم تغير العقيدة الدينية التي أفرزته . .

ورغم ذلك كله ، فقد كانت هذه العودة هي البداية الصحيحة للبعث الأوربي .. بينما كان التنكر لهذا التراث ، ومطاردته ولعنه ، بأمر الكنيسة ، هو بداية العصور الوسطى المظلمة ، وانهيار الحضارة الغربية . .

ويوم رجعت أوربا إلى تراثها ، دارسة متعلمة ، باعثة فيه الحياة ، لم يقل أحد أن هذه العودة تعني السلفية ، وأن دعاتها سلفيون ، يؤخرون عجلة التاريخ والتطور ، وينبشون قبور الماضي لإخراج ما يعجب العامة ! .

وما زال هذا التراث يلقى الاحترام والعناية من مفكري أوروبا رغم كل ما أبدعته الحضارة الغربية المعاصرة .

وعندما نرى اسطورة مثل « اوديب » تثمر كل هذا الخلق الفني على مر العصور ، وتعدد الأدباء الذين عالجوها على تباين مذاهبهم . . فان هذا لا يعني عظمة الأسطورة في حد ذاتها ، بقدر ما ينبيء عن عظمة الفنانين والمفكرين الذين يأخذون هذه النواة فيكسونها ديباجة براقة من علمهم وفكرهم ، ويقدمونها في كل مرة على نحو مخالف ومفهوم جديد .

وما أحفل تراثنا بالأساطير ! ولكنه عجز الأحفاد لا فقر الأجداد . ولذلك لم نأبه بزعم الزاعم أنه يود لو كتب عن شذوذ « الحسن

«ابن هانىء » ، أو الحاد شيخ المعرة ، خوفا من أن ينعق الناعقون . ضحكنا لهذا الزعم ، وتمثلنا بالمثل المصرى الدارج : « قصر ديل يا أزعر » . . فان شذوذ « أبى نواس » لم نعرفه إلا مما أثبته السلف ، والروايات عن شك أبى العلاء . . أثبتها هؤلاء السلف دون أن تفزعهم مخالفتها للعقيدة ، فقد كانت أمانتهم العلمية فوق كل مظنة . . وتقديسهم للفكر أروع ما فى حضارتهم .

المهم أن نقدم جديدا يثرى حاضرنا ، ويورق من نفس جذور دوحتنا العربية الاسلامية . . فكل تناول للتراث فى إطار الاعتزاز بالعروبة والاسلام وبهدف إثراء الفكر العربى الاسلامى ، هو تناول مطلوب ومرغوب ومثاب .. أما أن يحول البعض هذا التناول إلى معاول يحاول بها أن يهدم الدوحة الشامخة ، أو أن يدعونا إلى إغفال تاريخنا وعبادة تاريخ وأسلاف الآخرين ـ فهو تآمر صريح ، لا ضد تاريخنا وحده ، بل وأساسا ضد مستقبلنا ..

إن أول خطوة على طريق المجد ، هى دراسة واعية للطريق الذى قطعناه ، ومعرفة بالطاقات التى فجرها الايمان فى قلوب أجدادنا ، وإيمان برسالتنا إلى الانسانية كلها .

* * *

---

(١) هذا هو نص رأينا بحروفه نشرناه فى مجلة الرواد الليبية فى سبتمبر ١٩٦٥ أى قبل مقال الدجال بثلاث سنوات ! .

هذا حديث أرجو ألا أكون قد أطلت فيه ، وقد اخترت أن أحدثك عن كتاب ، لعل أضعف ما فيه هو اسمه : « صبح الأعشى فى صناعة الإنشا » . .

ولكن . . لا عليك من هذه السجعة التى تحمل بصمات عصر مؤلفه لا فكره . . وهو كتاب يستحق الخلود الذى ناله . .

ولست بمحدثك عن الكتاب كله ، فهو يقع فى ٦٤٧٣ صفحة من القطع الكبير ، بطباعة القاهرة . . فتأمل كم كان يشغل بخط الناسخين على الكاغد ؛ لتعلم فضيلة من فضائل أمتنا . . وهى شغفها بالقراءة . . واحترامها للثقافة . . إذ يروى « المؤلف » أن الكتاب راج فى حياته ، وهى على حد قوله ، ظاهرة نادرة فى زمانهم ، إذ كان « قلما التأليف والنسخ يتسابقان فى ميدان الطرس إلى الكتابة » .

ولم يكن فى عصرهم مؤسسات تشترى الكتب للمجاملة ، ولا دور نشر تروج ما لا يروج . . بل كان إقبال الناس وتسابقهم على نسخ ٦٤٧٣ صفحة بحروفنا اليوم .. دليلا على روعة المؤلف وثقافة القراء ،

فلا تروعنك أرقام توزيع الكتب الأوربية اليوم ، وتستدل منها ، إذا قارنتها بحظ الكتاب العربى ، على تفوق العقلية الافرنجية . . أبداً . . كل ما فى الأمر ، أننا فى مرحلة التخلف ، وفيها تبلدت العقول ، بل حتى الغرائز . .

إن الافرنجى يقرأ الآن ، بعد أن جعلت الطباعة والصناعة من الكتاب تحفة أنيقة رشيقة ، ومن القراءة متعة حسية كما هى متعة عقلية . . أما نحن فقد قرأنا ونسخنا وألفنا ، يوم كانت القراءة معاناة . فقد أحصى صاحب دار نشر . . « ابن النديم » مؤلفات المثقفين المسلمين بمئات الألوف عدا . . يوم كان التأليف معجزة ، يوم لم يكن فى أوربا كلها ألف نسخة من الإنجيل . . ودع عنك الكتب الأخرى . . وما تزال قائمة المطبوعات التى أصدرتها « دار نشر » ابن النديم أحفل وأخلد قائمة من نوعها . .

وعندما نسمع عن مئات الألوف من المخطوطات العربية التى تملأ مكتبات ومتاحف وكنائس العالم كله . . فلنتذكر أنها الدليل الخالد على تعلق هذه الأمة بالثقافة ، وحبهـــا للمعرفة واحترامها للكاتب والكتاب . .

وحسبك أن تتأمل هذا الكتاب الذى هو دائرة معارف كاملة ، يتناول اللغة ، ثم التاريخ الإسلامى ، وفلسفة الحكم ، وقيام الدول الإسلامية وزوالها ، ثم ترتيب وتبويب لجميع المعلومات الجغرافية بفروعها الحديثة ، البشرية ، والاقتصادية . . الخ وتلخيص لعدد هائل من الكتب ، مع تمحيص لرواياتها ، وتجميع لما تناثر منها فى شتى المراجع . .

تأمل هذه المراجع التى عالجها ، والتى أشار إليها ونقل عنها ، لتقف أمام سؤال ضخم هو : كيف كان يحتفظ بالمراجع .. وكلها منسوخة .. كيف كان يرتبها فى مجلسه إذا أراد الكتابة وهى بحاجة إلى ما يعادل مساحة ميدان كبير ! .. أم كانت لهم عقول غير عقولنا تعى فلا تنسى ..

واخترت هذا الكتاب ، لأنه أيضا ، جاء فى أمسية حضارتنا ، لأن مؤلفه شرع فى تأليفه سنة ٧٩١ هجرية أى منذ ستة قرون .. يوم بدأت شمسنا فى الانحدار .. فهو يحمل طابع الغروب ، وجهد النهار كله ، وأيضا تعبه وميله لإغفاءة الليل ..

مؤلفه : « أبو العباس أحمد القلقشندى » .. مصرى المولد ، ولد فى قرية « قلقشندة » بمحافظة القليوبية ، قبل أن تصبح محافظة طبعا .. سليل المهاجرين من بنى بدر بن فزارة ، عبر ثمانية قرون .. درس فى الإسكندرية ، وعندما بلغ الحادية والعشرين من عمره ، أجيز بالفتيا والتدريس ، أجازه الشيخ سراج الدين أبو حفص الشهير بابن الملقن .. أجازه بالفتيا والتدريس على مذهب الإمام الشافعى .

وكانت هذه الإجازة شهادة رسمية ، ولست أدرى إن كان ابن الملقن يمكن وصفه بأنه عميد جامعة الاسكندرية ، فى ذلك الوقت ، إلا أن رسمية الشهادة لا مجال للشك فيها ، لأنها كتبت بخط القاضى تاج الدين بن غنوم موقع الحكم العزيز بمدينة الاسكندرية .. ويؤكد جديتها أنها اشترطت على صاحبنا القلقشندى ، ألا يفتى إلا فى حدود مؤلفات أستاذه ابن الملقن ، وما ثبتت صحته كالكتب الصحاح الستة ومسند الشافعى ، ومسند الامام أحمد بن حنبل .

لم تكن الأمور فوضى كما هى اليوم، يفتى التلاميذ، فضلا عن الذين أجيزوا، فى أخطر القضايا. وتطالب الفتيات بأن يفتح لهن باب الاجتهاد لتغيير نظام الزواج والطلاق، قبل أن يعرفن نواقض الوضوء!

وفى سنة ٧٩١ هجرية التحق بديوان الانشاء، فكتب رسالة صغيرة فى التعريف بواجبات وصفات وظيفته .. إلا أنه عاد فرأى أن يتوسع فيها ويشرحها، فكان هذا الكتاب الذى استغرق تأليفه ٢٣ سنة .. يعيش حتى يرث الله الأرض ومن عليها .. وليس هذا الكتاب بمؤلفه الوحيد، بل له عدة مؤلفات، منها ما وجد ومنها ما فقد ..

وأريد أن أقف، ولو فى عجالة شديدة، على بعض اللمحات فى مقدمة الكتاب التى كتبها القلقشندى:

تأمل تواضعه واحترامه لجهد الذين سبقوه فى فنه، فهو ليس كالطامحين فى عصرنا، الذين يحسبون أن الطريق إلى المجد لا سبيل إليه إلا على جثث السابقين. فيكرسون جهودهم لتحطيم الجيل القديم، فلا يبقى على الحطام إلا الحطام ..

أما القلقشندى فيشيد بمؤلفات: «ملك الكتابة وإمامها، وسلطان البلاغة ومالك زمامها، المقر الشهابى أحمد بن فضل الله العدوى العربى»

« فكتابه أنفس الكتب المصنفة فى هذا الباب عقدا ، وأعدلها طريقة وأعذبها ورداً . . . » « ثم تلاه المقر التقوى ابن ناظر الجيش ، رحمه الله » فاشتهر ذكره وعز وجوده ، ووقع الضن به حتى بخل باعارته من عرف كرمه وجوده » !

ثم يعتذر عن إقدامه على التأليف ، وتعلقه « بحبال هذه الصنعة . . وإن لم أكن بمطلوبها مليا ، وانتسابى إلى أهلها .. وإن كنت فى النسبة إليها دعيا » .

ويدعو كل من يملك معرفة أن يتقدم بنقده البناء كما نقول نحن اليوم : « فرحم الله من وقف على سهو أو خطأ فأصلحه ، عاذرا لا عاذلا ، ومنيلا لا نائلا . فليس المبرأ من الخطأ الا من وقى الله وعصم » .

ثم يعلمنا القلقشندى أخوة الفن ، وتضامن أبناء المهنة الواحدة لأنه : « إذا كنا نحفظ من يمت الينا بالانساب الجسمية التى لا تعارف بينها ، فأولى بنا أن نحفظ من مت الينا بالانساب النفسانية التى يصح فيها التعارف .. ولذلك قال الحسن بن وهب : « الكتابة نفس واحدة مجزأة فى أبدان متفرقة »

وما أظن أن أحداً قد سبق القلقشندى أو الحسن بن وهب إلى أجمل من هذا التعريف بأخوة الفكر ، التى تتفوق على أخوة الدم . . ووحدة الفن ، أو وحدة المعرفة التى تتكامل وتتام أجزاؤها من

خلال تعدد الكتاب وتنوعهم . .

« ومن تمام آداب الكاتب وكمالها ، أن يعرف حقوق مشايخ الصناعة وأئمتها ، الذين فتحوا أبوابها ، وذللوا سبلها ، وسهلوا طرقها ، ويعاملهم بالإنصاف فيما أعملوا فيه خواطرهم ، وأتعبوا فيه روياتهم ، فينزلهم منازلهم ، ولا يبخسهم حقوقهم » « وان نبا الزمان برجل منكم فاعطفوا عليه وواسوه حتى يرجع إليه حاله ؛ وإن أقعد أحدكم الكبر عن مكسبه ولقاء اخوانه ، فزوروه وعظموه وشاوروه ، واستظهروا بفضل تجربته وقدم معرفته »

وهذا ما قلنا فى أول الحديث ، ان كل دعوة للبناء والنماء لا بد أن تهتم بالأساس والجذور ، بالأسلاف ، فتنطلق من احترامهم ، وتقدير ما بذلوه من جهد ، وتلتزم بالنظرة الموضوعية التى يطالبنا بها القلقشندى ، النظرة التى تضع فى الاعتبار ظروف عصرهم وحجم المعرفة المتاحة لهم . .

ومرة أخرى تتجلى عبقرية الفنان التى تتخطى حدود الزمان والمكان . لكأن القلقشندى يطل علينا عبر القرون ليردد الشكوى الخالدة ، شكوى الأصلاء من الدخلاء ، شكوى الفنان من المرتزقة ، فيتحدث عن المتسللين إلى صناعة الكتابة الذين يعتمدون على المظاهر والصلات الخفية :

« فاذا رأى من نفسه أن خطه قد جاد أدنى جودة ، أصلح بزته ،

وركب برذونه أو بغلته ، وسعى فى الدخول إلى ديوان الانشاء والانضمام إلى أهله»

وتكون النتيجة هى ما نراه فى كل عصر وزمان : « ولعل الكتابة إنما يحصل ذمها بسبب هؤلاء وأمثالهم »

وانحطاط مستوى الكتابة يرجعه القلقشندى إلى فساد السلطة وجهلها حتى : « صار العلم لديهم حشفا ، والاديب محارفا ، والمعرفة منكرة ، والفضيلة منقصة ، والصمت لكنة ، والفصاحة هجنة ، اجتنبت الآداب اجتناب المحارم ، وهجرت العلوم هجر كبار المآثم » . .

وهكذا ترى أنه حتى منذ ستة قرون ، كان لدى الكتاب ما يشكونه من فساد الزمان وتدهور القيم الأدبية . .

وبفساد السلطة ينتشر الجهل ، وبانتشار الجهل تنهار الأمم . . والقلقشندى كان من حظه أن يرى بداية النهاية . . ولعل هذا يفسر ظهور النفاق : « فالعادة الجارية فى أدب خدمة الرؤساء أن يصوبوا ما يرتكبونه من خطأ ، ويحسنوا ما يواقعونه من قبح »

وقد نقول أن هذا ليس بالنفاق ، بل اكتشاف مبكر لدور أجهزة الإعلام فى العصر الحديث ، ولون من التزام الموظف العمومى برأى الدولة لا رأيه الخاص ، والتزامه بالدفاع عن سياسة حكومته وتبرير مواقفها مهما يكن رأيه فى هذه السياسة . . ويعزز هذا الرأى اشتراط القلقشندى فى كاتب الإنشاء : « الاخلاص للسلطان والنصح فى خدمته ، باطلاعه على كل التقارير ، فلا يستر عنه دقيقا ولا جليلا

من أحوال مافوضه إليه » . ويطالبه فى نفس الوقت بألا يضحى بمصلحة الشعب من أجل السلطان : « فلا يحمله فرط النصح له على الاضرار برعيته ، ولا الرغبة فى إثبات حقه على تضييع حقوقها ، ولاالقيام بما يجب له دونمايجب لها » .. لكأنما يطالبه بان يلتزم حرفية وروح الدستور ، بما يحفظ حق الدولة ، وحق الشعب . . لماذا ؟ هنا يعلن القلقشندى مبدأ رائعا فى فهم العلاقة بين الشعب والدولة ، أو الرعية والحاكم بلغة عصرهم ، يقول : «فإنها به ، وهو بها » . .

وهو يطالب الموظف بشكر السلطان ، لا بالخطب والمقالات والاناشيد ؛ لأن «الاكثار منه داخل فى حكم الملق» «وإنما يظهر شكر الخادم من أفعاله »

وهو مطالب بالوفاء للسلطان عند إقبال الدنيا أو إدبارها . لا أن يبيعه لأول واثب ، «ويجعل قدحه فى الذاهب سبيله إلى قلب الواثب» !

ثم يحدثنا عن شروط التعيين فى هذا المنصب الخطير ، وأحسبنى لا أذهب بعيدا ، لوقلت إن كاتب الإنشاء يعادل اليوم رئيس الديوان الملكى ، أو مدير مكتب رئيس الجمهورية . . لأن ديوان الإنشاء كان يقوم بالمهارة التى يختص بها صاحب هذا المنصب اليوم . .

وشروط التعيين بعضها يحتمه القانون ، وهى عشرة ، منها الجنسية والدين . . وقد أوضح « أبو العباس القلقشندى » شرط الدين توضيحا رائعا ، عندما ربطه بالصراع القومى ، فقد أشار إلى استعانة

الخلفاء بغير المسلمين . . وفسر ذلك بالوضع العالمى وقتها . . قال : « ولكن هؤلاء (أى غير المسلمين) لم يكن لهم ذكر ولا مملكة ، وليس منهم محارب لأهل الاسلام ، ولا لهم دولة قائمة فتخشى غائلته وتخاف عاقبته »

فليس الأمر مبعثه تعصب عنصرى أو دينى .. بل ضرورة قومية .. لأنه عند ما ظهرت دول الفرنجة ، وأصبحت تهدد الوطن العربى ، وبادرتنا بصليبيتها ، أصبح الدين عاملا أساسيا فى تحديد الولاء . . وأصبح من غير المعقول أن يلى هذا المنصب الخطير غير مسلم . .

ويضيف القلقشندى إلى شروط التعيين القانونية والعرفية ، ضرورة إلمام رئيس الديوان بالحالة الفكرية للشعب ، واتساع معرفته لتشمل الفولكلور ، « حتى يحتاج إلى معرفة ما تقوله النادبة بين النساء ، والماشطة عند جلوة العروس ؟ وإلى ما يقوله المنادى فى السوق على السلعة ، فما ظنك بما فوق هذا ؟ وذلك لأنه مؤهل أن يهيم فى كل واد فيحتاج إلى أن يتعلق بكل فن . . . »

وقد كان القلقشندى ، كما اشترط على نفسه ، وأشهد أن معلوماته الجغرافية والتاريخية عن الدول الإفريقية بالذات ، تصحح الكثير من معلوماتنا حتى اليوم . .

ولا شك أن مثل هذا الكاتب ، لا بد أنه يعمل فى جهاز دقيق له تقاليده ونظمه . . بل لا نذهب بعيداً فى فخرنا ، لو قلنا أنه يحدثنا عن أسس الدولة الحديثة . .

فإذا بعثت الدولة بخطاب ، أرسل على سركى ، أو «أوراق الطريق» «ويترك اسمه وتاريخ سفره والجهة التى توجه إليها ، والشغل الذى توجه بسببه ، بدفتر الديوان » .

فاذا كانت الرسالة مستعجلة ، وسترسل عن طريق البريد الجوى ، أى بالحمام الزاجل ، فتكتب من نسختين ، وتؤرخان بساعة كتابتها من النهار ، ويعلق كل منهما فى جناح طائر من الحمام الرسائل ويرسلان ، ولايكتنى بواحد ، لاحتمال أن يعرض له عارض يمنعه من الوصول إلى مقصده ، فاذا وصل الطائر إلى البرج الذى وجه إليه ، وأمسكه البراج ، وأخذ البطاقة من جناحه وعلقه بجناح طائر من حمام البرج ، وعلى ذلك ينتهى إلى برج القلعة . . . » .

ولا تظن أن الحمام الزاجل كان بجرد هواية أو « تقليعة » . . بل هو نظام بريدى دقيق ، له أبراج على محطات محددة المسافة ، وحمام مدرب يديره مشرفون أكفاء أمناء وفق نظام غاية فى الدقة .

وكان على كاتب الانشاء . . أو رئيس ديوان الإنشاء أن يدير جهاز مخابرات غاية فى الدقة ، حتمته الحروب الصليبية ، فكان يدير نشاط « الفداوية » وهم كما يفهم من القلقشندى ، بقية من الاسماعلية ، كان سلطان مصر يستخدمهم فى إرهاب خصومه أو حتى فى اغتيالهم .

وعليه « أن يحترز عن أن تعرف جواسيسه بعضهم بعضا ، لاسيما عند التوجه للمهمات . وإن استطاع أن لا يجعل بينه وبينهم واسطة

فعل ، وعليه أن يصغى إلى مايلقيه إليه كل من جواسيسه وعيونه ، وإن اختلفت أخبارهم ، ويأخذ بالأحوط فيما يؤديه إليه اجتهاده من ذلك، ولا يجعل اختلافهم ذنباً لأحد منهم. فقد تختلف أخبارهم وكل منهم صادق فيما يقوله ».

إلا أن جواسيسهم لم يكونوا مأجورين .. بل عقائديين - إن استعرنا هذه اللفظة البغيضة - لأن القلقشندى يوصى رئيس الديوان « بأن يوبخ المنحرف منهم بتذكيره أمر الآخرة ، وما فى ممالأة العدو والخيانة من الوبال فى الآخرة » .

ياليت بعض أجهزة المخابرات فى بعض الدول العربية طبعت « صبح الأعشى فى صناعة الإنشا » بدلا من « الحكومة الخفية » . . وياليتهم آمنوا بعذاب الآخرة ..

بل وصلت مخابرات أسلافنا إلى درجة عالية من الكفاءة والتنظيم، فعرفوا الجاسوس المزدوج ، فيحولون جاسوس العدو إلى عميل لهم « فحينئذ يلقى إليه مايراد تبليغه إلى صاحبه الأول مما فيه المكيدة ، فيوصله إليه ، فيكون أقرب لقبوله من بلوغه له من غيره ممن يتهمه » .

ولابد لهذه الدولة المحكمة التدبير من أرشيفات دقيقة تضبط حركتها وتجعل من تجاربها خبرات متوارثة ، ومن كفاءات موظفيها تقاليد وتراثا للدولة .. فيقول القلقشندى :

« لابد فى الديوان من تذاكر تشتمل على مهمات الأمور التى تنهى فى ضمن الكتب ، ويظن أنه ربما سئل عنها ، أو احتيج إليها ، فيكون

استخراجها من هذه التذاكر أيسر من التنقيب عنها من الأضابير . . »

« وأن يضع فى الديوان دفترا بألقاب الولاة وغيرهم ، من ذوى الخدمة ، وكتابة أسمائهم ، وترتيب مخاطبتهم ، ومتى تغير شيء منه كتبه تحته ، ومتى صرف ، كتب عليه : صرف بتاريخ كذا ، واستخدم عوضا عنه فلان بتاريخ كذا . . »

« أن يضع فى الديوان الحوادث العظيمة وما يتلوها مما يجرى فى جميع المملكة ويذكر كلا منها فى تاريخه . . »

« أن يعمل فهرساً للكتب الصادرة والواردة ، ويكتب تحت اسم كل من ورد من جهته : كتاب ورد بتاريخ كذا ، ويشير إلى مضمونه إشارة تدل عليه . . »

« أن يعمل فهرسة لترجمة مايترجمه من الكتب الواردة على الديوان بغير اللسان العربى من الرومى والفرنجى وغيرهما مصرحا بمعنى كل كتاب ومن ترجمه . . » .

أرأيت أن كل خصائص الدولة الحديثة كانت لدينا وقبل أوروبا بعدة قرون . . فلما تخلفنا وانهارت حضارتنا تحولت هذه الخصائص إلى بيروقراطية نعانى منها حتى الآن . . فلم يبق من حضارة الأسلاف إلا « السركى » و « الصادر » و « الوارد » !

الإسلام والحبشة

﴿ اتركو الأحباش ماتركوكم ﴾

« حديث شريف »

ربما كان موقف الحبشة فى الأمم المتحدة ، ومن العدوان الإسرائيلى بصفة عامة ، مفاجأة لكثير من ذوى النوايا الحسنة ؟

ولكنه لم يكن كذلك للذين يعرفون الدور الذى تلعبه المصالح الاستعمارية فى شرق أفريقيا . ولا المخطط الغربى ـ الصهيونى الذى يتسلل إلى الحبشة منذ القرن الثالث عشر ! . . والارتباطات التى خططت لاستخدام هذه الدولة ضد العرب والإسلام منذ الحروب الصليبية .

إن المخطط الأمريكى المنتشى بخمرة النصر الصهيونى ، يفكر فى تعميم هذا النموذج الإسرائيلى . . أى خلق عدد من « كلاب الحراسة » هى دول مرتبطة به ، متعارضة مع التكوين الطبيعى للمنطقة المحيطة بها ، تقوم على القهر العنصرى ، وتحكم الأقلية فى الأغلبية ، ويتغلغل فيها النفوذ الصهيونى . . ومن خلال عزلتها هذه تتحول إلى مايشبه الحاميات الاستعمارية التى كانت تنشأ عند الشواطىء فى القرن السابع عشر لضرب الحركات الوطنية ومد النفوذ الاستعمارى . .

إن جنوب أفريقيا يشكل نموذجاً إسرائيلياً ممتازا فى جنوب

أفريقيا . . أقلية عنصرية ، غريبة عن الأرض والشعب، تحكم بالإرهاب وحده . .

وجمهورية « بيافرا » هى تجربة لما يمكن أن يدبر فى غرب أفريقيا، وإذا كان العنصريون فى جنوب أفريقيا لديهم فى جلودهم وأصولهم مايقنعهم بانفصالهم عن الارض التى يستغلونها ، والشعب الذى يفرضون حكمهم عليه . . فإن المخطط الصهيونى الاستعمارى يعمل على خلق شعور بالانفصال لدى الذين لاتميزهم جلودهم ولا أصولهم . . ومن المثير حقاً أن نسمع زعماء بيافرا يعلنون أنهم من نسل إسرائيلى ! . .

أما فى شرق أفريقيا ، فإن الولايات المتحدة الامريكية قد تعهدت المشروع منذ الخمسينيات . . وليس سرا أنه توجد قاعدة أمريكية فى أسمرة تستخدمها الولايات المتحـــدة كقاعدة ذرية وقاعدة لإطلاق الصواريخ الموجهة ، وهذه القاعدة موجهة أساسا لدول شرق أفريقيا والجنوب العربى . . وهناك تأكيدات بأن الحكومة الحبشية تضع مصوع تحت تصرف الأسطول الامريكى . .

ومن المؤكد أن للاسرائيليين سيطرتهم النامة على اقتصاديات أرتيريا ، وتغلغلهم واضح داخل القصر . .

وإذا كانت تغذية روح الانفصال قد احتاجت فى حالة بيافرا إلى خلق فكرة النسب الإسرائيلى . . فإن هذا النسب موجود منذ قرون ، ولنفس الهدف ، فالاسطورة موجودة بالفعل ، اخترعها كاهن منافق إسمه « نسكلا هيانوت » لملك اسمه « يكونواملاك » .

واسم الكاهن ، والاسم الذى اخترعه للملك ، يؤكدان أنه أفاق خبيث من الملمين باللغة العربية بعض الإلمام .. فقد تنبأ للملك بأنه سيتولى العرش ، وسماه « يكونوا ملاك » ، أى يكون ملكا ! .. وواضح أنها جملة عربية كتبها من يجهل صحة الضبط فى اللغة العربية .

وتزعم الأسطورة أن هذا الملك ينحدر من سلالة الملكة بلقيس والملك سليمان ملك اليهود .. وأن جده هو « منليك » الذى عاد من أورشليم ومعه نفر من بنى إسرائيل . ولتأكيد صفته الإسرائيلية ، وخصائصه الإسرائيلية ، تنسب الأسطورة له أنه سرق من بيت المقدس « تابوت العهد » سرقه من أبيه الملك سليمان الذى كان يعرف لغة النمل ، ويحبس الجن فى قماقم من حديد .. ولكنه لم يعرف كيف يحمى الصندوق من ابنه !

وحمل نيليك الصندوق إلى الحبشة ، وأطلق على « أكسوم » العاصمة اسم « أرض صهيون الجديدة » .. ولعل شعار الصهيونية من الفرات إلى النيل .. يقصد « النيل الأزرق » فى أقصى الجنوب بالحبشة ! ..

ويرفض كتاب : « الاسلام والحبشة » هذه الأسطورة ويقول المؤلف المهندس فتحى غيث : « أنه من العجيب فى الحبشة المسيحية شدة تمسكهم بعلاقاتهم (المزعومة) مع اليهود وتفاخرهم بها ، والاحتفاظ بنجمة داود رمزا لهم ، وهو أمر لم نعهده فى أى وسط مسيحى آخر » .

ويفند هذه المزاعم عن النسب الاسرائيلى لملوك الحبشة بقوله :

« لا يوجد بين المراجع المعتمدة ، مايؤيد انحدار العائلة الملكية الحبشية من نسل سليمان عليه السلام ، اللهم إلا ما تقوله العائلة المالكة عن نفسها » . . بل ليس هناك أى مرجع معتمد يؤيد وجود شخصية « منليك » وعلى ذلك فان الأرجح أن القصة موضوعة . .

ورغم الدعاية التى تركز على هذه الأسطورة التى ظهرت مع الحروب الصليبية ، بهدف فصل الحبشة عن المحيط العربى ، وتحويلها إلى أسفين يطعن القوى الإسلامية من الخلف خدمة للمصالح الصليبية .. ثم أعيد بعثها مع الغزو الاستعمارى للقارة .. ويجرى التركيز عليها بعنف فى هذه الأيام خدمة للمصالح الصهيونية التى تحاول أن تمزق كل الروابط الأفريقية التى تربط الأحباش مسلمين ومسيحيين بالعرب . .

رغم كل الدعاية التى تركز على هذه الأسطورة الآن ، سواء لإضفاء صفة خاصة على العائلة المالكة ، أو لتدعيم التعاون مع إسرائيل باعتبارهم أولاد عم رغم الاختلاف الفاضح فى اللون ..

رغم ذلك فإن واقع الحياة فى الحبشه يكذبها .. فاليهود فى الحبشة الذين اندمجوا مع السكان بعد أن هاجروا إليها من مصر والجزيرة العربية أصبحوا يسمون « الفلاشة » ، وهم لا يزيد عددهم على ستين ألفا والفلاشة باللغة الحبشية معناها الغرباء .. ومن غير المعقول فى شعب ينحدر من صلب سليمان شخصيا أن يسمى اليهود « الغرباء ؟ »

ولو أنهم أحفاد سليمان حقاً لما كان اعتناقهم للمسيحية قد تم بهذه السهولة التى انتشرت بها فى الحبشة ، ولما تقبلوا بمثل هذه السرعة لعن اليهود فى صلاتهم .. الأقرب للتصديق تعصبهم لليهودية ورفض الدين الجديد الذى يطالب بلعن اليهود وأولادهم وأحفادهم ..

الحبشة والعرب

ويستعرض المؤلف علاقة الحبشة مع العرب ، وعلى وجه التحديد علاقة العرب بحكام الحبشة ، هذه العلاقة التى تحكمها من ناحية العرب وصية الرسول صلى الله عليه وسلم : « اتركوا الأحباش ما تركوكم »

وهذا الالتزام من جانب العرب ، هو الذى يفسر كيف بقيت الهضبة الاتيوبية وحدها كالجزيرة وسط محيط عربى وإسلامى فى طوال أربعة عشر قرنا ، سادت خلالها علاقات التعايش السلمى ، وأحيانا الصداقة المتينة ، يدعمها أن كنيسة الحبشة أفريقية مرتبطة بكبرى الكنائس العربية ، وأعرق كنائس العالم . الكنيسة المصرية ..

ولكن هذه العلاقة ، لم تخل فى بعض المراحل من اضطرابات والتحامات . . كانت دائما من أصابع أجنبية . . أصابع الاستعمار الغربى تحاول أن تحرك الحبشة ضد جيرانها .. فتلزم هؤلاء الجيران ألا يتركوا الاحباش ما دام الأحباش لم يتركوهم .

والمتتبع لتاريخ الصدام بين الحبشة والعرب، يجده دائما يأتى من الجانب غير العربى .. وبتأثير المصالح الأجنبية البعيدة عن مصلحة العرب والأفريقيين

فأول صدام مشهور ومعروف كان بناء على تعليمات من الإمبراطورية الرومانية .. أوعزت إلى الأحباش بغزو الجزيرة العربية وهدم الكعبة .. ولقى الأحباش هناك هزيمة خالدة .. ومعجزة الهية .. ويشاء الله أن يكون عام الفيل، عام الغزو الفاشل هذا، هو عام مولد الرسول عليه الصلاة والسلام.

ومع ظهور العرب على المسرح العالمى بظهور الإسلام .. بدأت علاقات طيبة للغاية مع الأحباش . . وسواء أصحت الروايات الإسلامية والتى يؤيدها عدد من المصادر الغربية عن ملك الحبشة على عهد الرسول . . أنه قد أسلم . . أو أنه احتفظ بعلاقته الطيبة وأكرم المهاجرين المسلمين، لنشوئه بين قبيلة عربية فى صدر حياته . . ولأنه استطاع أن يفهم الترابط ووحدة الأصل بين الدينين السماويين . . المسيحية والإسلام، كما يروى عنه عندما سمع قصة المسيح ومريم فى القرآن . . فأشار بإصبعيه وقال: هذا الدين والمسيحية كهذين . . أى متماثلان، فاستنكر ذلك رجال البلاط . . (طبيعى) فقال لهم: ولو كرهتم .. ! ؟

سواء أصحت هذه الرواية أم تلك . . فان من الثابت أن النجاشى كان يتمتع بمحبة خاصة لدى المسلمين، حتى أن الرسول كرمه بمالم يحظ

به أى حاكم آخر ، فقد صلى عليه رسول الله صلاة الغائب عندما بلغه نبأ وفاته . . ووصفه بأنه « ملك لا يظلم عنده أحد »

ومن الغريب ، بل المريب ، أنه فى الوقت الذى تنسج فيه المصادر الغربية والصهيونية الاساطير حول نسب ملوك الحبشة ، بهدف ربطهم بالقوى المعادية لنا ، وعزلهم عن العرب . .

فى نفس الوقت نرى بعض الذين يحملون الجنسية العربية يؤلفون الكتب للتشكيك فى اتصال المسلمين بملك الحبشة ، بل فى وجود تلك الصلة أصلا . . بل يبلغ الفجور بأحدهم أن يدعى أن النبى اختار الحبشة لهجرة المسلمين الأوائل . . لكراهية الأحباش للعرب ! . . فكأن رسول الله كان يستعدى على العرب ! . .

يقول كتاب « الإسلام والحبشة » : « قرأنا لبعض الكتاب تحليلا يشككون فيه حتى بوصول المهاجرين إلى النجاشى وعاصمة ملكه ، ويحاولون إثبات نزول هؤلاء المهاجرين عند أحد الملوك التوابع يقال له (بحر نجش) . . ولسنا على بينة - يقول المؤلف - ماهو السبب الذى يدفع هؤلاء الكتاب إلى إبعاد هذا الفضل الكبير عن النجاشى . . . »

وليسمح لنا المؤلف . . أن نقول أننا نحن على بينة من السبب . . تخريب العلاقة بين الأحباش والعرب . . وتمكين المخطط الاستعمارى من أن يلعب دوره فى تحويلها إلى كلب حراسة وكلب صيد ضد جيرانها . .

وقد سادت هذه العلاقات الطيبة طوال الفترة من القرن الرابع إلى القرن الثالث عشر الميلادى ، ومع الغزو الاستعمارى الأول من الغرب للوطن العربى ، المعروف باسم الحروب الصليبية بدأ التركيز على مصر ، ومع الوقفة الصلبة لمصر دفاعا عن الإسلام والعروبة ، تفاقم الحقد الغربى ضد مصر وبدأ التخطيط لتدميرها .. والتفت الغرب الاستعمارى إلى الامكانيات التى تمثلها الحبشة إذا ما قبلت العمل ضد مصر . ومن الغريب أنه مع الاتصالات الصليبية المريبة التى قام بها الاستعمار الغربى ظهرت أسطورة الابن الحبشى لسليمان وبلقيس !

وينقل المؤلف عن « كولبو » . . . « ولم يفت الصليبيين كذلك أن يتصلوا بنجاشى الحبشة المسيحى ليتعاون معهم فى حرب الاسلام والمسلمين عن طريق غزو الحجاز وهدم الكعبة ١٢١٨ م » .. ويقول « بحث الصليبيون عن حليف يقطع البحر الأحمر من الجنوب فلم يكن هناك أفضل من دولة الحبشة ليحالفوها ويعتمدوا عليها ، لذلك حرصت البابوية منذ أوائل القرن الرابع عشر بالذات على تقوية صلتها بالحبشة ، فقام وليم آدم - الراهب الدومينكانى - برحلة طويلة زار فيها شرق أفريقيا والحبشة ثم عاد فى ١٣١٦ ، وفى تلك السنة أرسل البابا يوحنا الثانى والعشرين سفارة من الدومينكان إلى الحبشة ولكن رجالها وقعوا فى قبضة المماليك فى مصر . كذلك كان مصير سفارة أخرى من الدومينكان أرسلها ملك فرنسا إلى الحبشة عام ١٣٣٨ » . .

« وبالرغم من الصعوبات العملية التى تحول دون اشتراك الحبشة فى الحروب الصليبية بجانب الاوروبيين ، فإن فكرة استغلال الحبشة فى القيام بعمل حربى ضد المماليك ظلت ماثلة فى أذهان أصحاب المشاريع الصليبية فى غرب أوروبا حتى أواخر القرن الخامس عشر » .

ويقول د . سعيد عاشور « أن هذه المشروعات الصليبية الخاصة باشتراك الأحباش مع الاوروبيين جاءت مصحوبة بفكرة أخرى نادى بها دعاة الحروب الصليبية طويلا ، هى تجويع مصر والقضاء على من فيها بتحويل مجرى النيل فى الحبشة . وقد أشار فيليب دى ميزيير صاحب المشردع الصليبى الكبير فى القرن الرابع عشر إلى امكان تنفيذ مشروع تحويل مجرى النيل للقضاء على مصر نهائيا .

وظلت هذه الفكرة تراود المتحمسين للحروب الصليبية حتى نهاية العصور الوسطى ، فأرسل الفونس الخامس ملك أرجونه إلى ملك الحبشة عام ١٤٥٠ يطلب منه أن يعمل على تحويل مجرى النيل ومهاجمة مصر من الجنوب فى الوقت الذى يقوم فيه الفونس نفسه بغزو بيت المقدس وفلسطين . ولما اشتد النزاع بين مصر والبرتغال عقب كشف طريق رأس الرجاء الصالح ، أرسل البوكرك قائد الاسطول البرتغالى إلى ملك البرتغال يطلب إمداده بعدد كبير من العمال المدربين على قطع الصخور وحفر الأرض للعمل فوراعلى تحويل مجرى النيل ، مما يدل على اعتقاد الأوروبيين والأحباش جميعا فى امكان تنفيذ المشروع » أو على الأقل الحقد الذى يكتبه ضد مصر كل متطلع إلى الاستيلاء على الوطن العربى ، واحتلال بيت المقدس .

ومع النشاط الاستعمارى البرتغالى فى البحر الأحمر .. لم يترك الاحباش جيرانهم ولم يتركهم هؤلاء الجيران بدورهم .. واستمرت المعارك إلى أن طرد البرتغاليون نهائيا من شرق أفريقيا . . واستتب السلام ..

بريطانيا

وفى النصف الثانى من القرن التاسع عشر بدأت سياسة التوسع الاستعمارى فى أفريقيا . وكانت المشكلة الرئيسية التى تواجه الاستعمار الغربى وتهدد مستقبل الامبراطوريات فى أفريقيا .. هى أيضاً ودائما مصر .. مصر التى كانت قد وحدت السودان وارتيريا والصومال .. وأصبحت حدودها ملاصقة للحبشة .. وبدأت حركة تعمير واسعة . أدت إلى انتشار العروبة والإسلام ..

وبدأت الدسائس البريطانية ، شجعت بريطانيا أطماع الامبراطور تيودور .. وأوقعوا بينه وبين مصر .. فقد روى القنصل الفرنسى فى مصر «بنديتى» فى رسائله إلى باريس فى ٥ و ٣٠ نوفمبر ١٨٥٦ أن الامبراطور يهدد بالاغارة على السودان المصرى ويريد تحويل مجرى النيل إلى البحر الأحمر . » وكتب القنصل النمساوى إلى حكومته من الاسكندرية فى ١٨ نوفمبر ١٨٥٦ « ان سعيد باشا كثير القلق من ناحية هذه الحركات التى يقوم بها تيودور الجرىء النشيط، وخصوصا مايذاع فى القاهرة من أن وسوسة الإنجليز فى أذن تيودور تزيده تذمرا وغضبا من الإدارة المصرية فى السودان . والواقع أن تيودور قد حصل على بعض المدافع والبنادق لعساكره من عدن « أى من الإنجليز » ،

وقد بدأ تيودور سياسة مشاكسة مصر باضطهاد المطران المصرى فى الحبشة ، فلما سافر البطريرك نفسه إلى هناك .. اعتقله ومنعه من العودة ، وتدخل سعيد باشا عن طريق خطابات عديدة لإطلاق سراح البطريرك المصرى .

ولكن تيودور الامبراطور المعروف بالمجنون يبعث برسالة إلى الملكة فيكتوريا ، فتنسى أن ترد عليه فيعتبر ذلك إهانة ويلقى القبض على ممثلها .. وترسل بريطانيا حملة لتأديبه عرفت باسم حملة « نابيير » ١٨٦٧ والتى انتهت بانتحار الامبراطور .. وقد رافق الحملة واحد من عتاة الاستعماريين الانجليز ومهندس الامبراطورية هو الكولونيل «سيرويدز » المقيم البريطانى فى عدن ، وقد التقى مخططه مع الشاذ الاستعمارى القارح « غوردون » فى اختيار زعيم قبائل « التيجرى » المعروف باسم « كاسا » ليكون المرشح لتنفيذ المخطط البريطانى ضد العرب والمسلمين ، فأمدوه بجميع أسلحة الحملة على ضخامتها .. فأصبح أقوى حاكم فى أفريقيا .. وسموه « يوحنا » وجعلوه إمبراطورا للحبشة وقال عنه غوردون: من الغريب أن يوحنا يشبهنى ،فهو متعصب دينى وله رسالة لابد أن يحققها وهى إبادة الإسلام» .

ولكن ثورة المهدى رضى الله عنه ، حطمت أحلام غوردون .. فيقتل على يد الثوار فى قصره .. وتوقف جيوش المهدى حملات الإبادة التى شنها الامبراطور يوحنا .

الامبراطور المسلم

وفى عشية الحرب العالمية الأولى .. فى سنة ١٩١٣ فوجئت الدول

الاستعمارية الغربية بإمبراطور مسلم فى عاصمة الحبشة ! .. الامبراطور « ليج ياسو ».وعلى عكس عادة الاباطرة الذين يبادرون فور اعتلائهم العرش بإعلان نسبهم اليهودى ، أعلن ليج ياسو أنه لاينتمى للعائلة السليمانية .. بل يقول « الندروف » أنه بدأ يعمل على اثبات نسبه إلى الرسول » ..

وتحركت الدول الغربية ، وقدم له قناصل انجلترا وفرنسا وإيطاليا مذكرة احتجاج واتهام بالميل للألمان .. واستعدت القوات الفرنسية فى جيبوتى، والإنجليز فى بربره ، والإيطاليون فى مصوع للزحف على الحبشة .. وأعلنت الحماية على مصر،واستصدرت بريطانيا فى ظل الحماية قرارا بخلع الامبراطور .. ووصل هيلاسلاسى إلى العرش، وقبض على الامبراطور المخلوع الذى ظل فى السجن إلى عام ١٩٣٦ وقبل فرار الامبرأطور من اديس ابابا أعلن وفاة الامبراطور المسلم فى السجن ..

ويقول المؤلف « ويذهب البعض إلى أن الامبراطور هيلاسلاسى هو الذى ذهب إلى السجن على حدود كينيا وقتل ليج ياسو .. ولكننا نستبعد هذه الرواية لبعد المسافة بين اديس أبابا وموقع سجن ليج ياسو وصعوبة المواصلات .. وقد يكون كل ما سمعناه من قبيل الشائعات ، ولكن الذى لاشك فيه أن الإمبراطور ليج ياسو مات فى سجنه قبيل دخول الطليان إلى العاصمة اديس أبابا فى عام ١٩٣٦ .. » وأنه كان يخشى عند سقوط الدولة أن يقود حرب التحرير ضد إيطاليا ويعود لعرشه ..

أريتريـــا :

ومع عودة هيلاسلاسى إلى عرشه فى ١٩٤١ . . نشأت مشكلة أريتريا، فقد سعت الحبشة إلى ضمها ، وكانت أريتريا قد انتقلت من الحكم المصرى إلى الحكم الإيطالى إلى وصاية بريطانيا . وكانت أريتريا نموذجا ينبض بالحياة فى أفريقيا ، وارتفع مستوى الشعب إلى مستوى عال، وكانوا يتمتعون بأنواع من الحريات لا عهد للاحباش بها ، فكان بأريتريا صحافة وجمعيات ومدارس ، وكان اتصالها بالعالم الخارجى مستمراً وعلى الأخص ببلاد العرب واليمن ومصر وإيطاليا . . .

وكان من المستحيل أن تمنح أريتريا الاستقلال فى سنة ١٩٥٠ فلم يكن من المعقول وقتها أن تستقل دولة أفريقية . . وكان أن سلمت أريتريا بضغط أمريكا وبريطانيا إلى الحبشة، فى شكل نظام فيدرالى . وقد سارع الامبراطور بتأكيد نسبه الصيهونى فى الدستور الصادر فى ١٩٥٥ . . كما حرصت باقى النصوص على القضاء على استقلال أريتريا . .

الحركة الوطنية فى أريتريا :

وبضم أريتريا للحبشة أصبحت غالبية الشعب المطلقة فى الحبشة كلها من المسلمين . . ولكن الحركة الوطنية فى أريتريا لا تقتصر على المسلمين، بل تضم وطنيين مسيحيين منهم البطل « ولديب ولد مريم » الذى يعيش حالياً فى القاهرة بعد معارك دامية خاضها ضد الاستعمار الأثيوبى . .

وجهة نظر هؤلاء أن اضطهاد الأغلبية يخلق دولة عنصرية رجعية

لا يمكن أن تكون إلا فى خدمة الرجعية العالمية .. أى الاستعمار العالمى . . فإن حكومة تمارس الارهاب .. تحارب ضد شعبها ، لا بد أن تتحول إلى إرهاب جيرانها والاعتداء عليهم .

وبعـــد . .

فإن موقف أثيوبيا فى الأمم المتحدة كان خرقا صريحاً لميثاق منظمة الوحدة الأفريقية الذى يعتبر العدوان على أية دولة أفريقية عدوانا على المنظمة وأعضائها . .

وهذا الكتاب لعله يكون بداية لإعادة النظر فى سياستنا الافريقية .. والاهتمام بالروابط الحقيقية التى ترسخت عبر القرون وثبتت أمام المحن والتجارب . .

الإسلام والرأسمالية

إن شئنا القول بأن الربا قد حال بين المسلمين وبناء المجتمع الرأسمالى فالأحرى أن ذلك قد حدث لأنهم تعاملوا بالربا ، وليس لأنهم تحرجوا من التعامل به . .

فلولا ديون حكام المسلمين لما سقطت بلادهم فريسة للاستعمار الرأسمالى فى القرن التاسع عشر . .

« مكسيم رودنسون » حاز على شهرة مفاجئة فى أوساط التقدميين العرب ، لأنه وهو من أصل يهودى — يضيق هو ذرعا بمن ينسبه إليه — قد عارض العدوان الإسرائيلى الأخير ، وإن لم يعارض وجود إسرائيل .

وكتابه هذا « الإسلام والرأسمالية » أثار اهتمام المعلقين من الدوائر التقدمية ، واعتبروه كشفاً فى تاريخ الدراسات الإسلامية ! والحق أنى لم أقع على أى نقد جدى له إلا فى مجلة جزائرية هى مجلة القبس[1] .

أما عندنا فالغريب أنهم قدموه للقارىء العربى من خلال أكذوبة تدعى أنه الحجة التى تثبت اشتراكية الاسلام ، بل أذكر أن بعضهم كتب يقول أن مكسيم رودنسون اكتشف أن الاسلام يتعارض مع الرأسمالية ! !

ونفس الأكذوبة يرددها مترجم الكتاب وناشروه فى تعريفهم به ، فيصفونه بأنه « فى آخر المطاف دعوة يوجهها المؤلف إلى المسلمين

---

(١) أكتوبر ١٩٦٧ .

الأخذ بالاشتراكية . يوجهها إليهم كمسلمين ، أعنى دون أن يرى تنافياً جذريا بين عقيدتهم الدينية وبين الأسس الاشتراكية التى قد يقيمون عليها بنية مجتمعهم الاقتصادية ونظام الحكم المتسق معها » .

وهذه العبارة أبعد ما تكون عن التعريف بالكتاب ، بل لعلها تعرف بعكس ما استهدفه المؤلف ، وما حرص على أن يعلنه فى عنوان كتابه ، فهو قد سماه « الإسلام والرأسمالية » ولم يسمه « الاسلام والاشتراكية » وكان دقيقاً فى اختيار عنوانه . .

بل هو بالأحرى وفى آخر المطاف إن شئنا الدقة ، دعوة يوجهها المؤلف للمسلمين للتخلى عن الاسلام إن أرادوا الاشتراكية . .

ولكنه يناقش علاقة الإسلام بالنظام الرأسمالى ، ويحاول فى مناقشته أن يجيب على سؤال طرح بين المفكرين الغربيين خلال القرنين الماضيين . . وهو : لماذا لم تظهر الرأسماليه فى العالم الإسلامى ؟ . . لماذا قامت فى الغرب ولم تقم فى الشرق حيث كانت حضارة الاسلام ؟ .

والمؤلف يحاول قدر جهده أن ينفى مسئولية العقيدة الاسلامية فى منع قيام النظام الرأسمالى فى العالم الاسلامى . . ويؤكد فى كل صفحات الكتاب أنه ما من مانع « شرعى » كان يحول بين المسلمين و بين الأخذ بالنظام الرأسمالى . .

وأكثر من ذلك ، أنه عندما تعرض للاشتراكية وعلاقتها بالاسلام ، تراه يأخذ جانب الرأى الذى ينفى الصلة بين الاسلام والاشتراكية ! والذى يرفض اجتهادات الذين يتطلعون إلى بناء وطن حر قوى للمسلمين ،

ومن ثم يجتهدون فى اكتشاف الأساس الاسلامى للضروريات الاقتصادية التى يفرضها تطور بلادهم ..

ولكننا نرى « مكسيم رودنسون » المتهم بالتوفيق بين الاسلام والاشتراكية يؤيد فتاوى أعداء الاشتراكية ضد « الاشتراكية الاسلامية، ويعلن أن المسلمين الذين يرون أن الاسلام يؤيد الملكية بغير تحفظهم أصحاب الحق ! ثم يحشد كل الآيات الــتى يفسرها البعض بأنها تأييد للطبقية . ويعلن أن « محمدا » لم يكن اشتراكياً كما اعتقد بعض المؤرخين » ! .. بل ويشكك فيما وصل إلينا عن مواقف أبى ذر ، الذى يصفه بأنه « حظى بشعبية ضخمة ومفاجئة فى العالم الاسلامى فى القرن العشرين ، فقد وجد فيه اليسار الاشتراكى والشيوعى أستاذاً ذا سبق ، أو هو على الأقل قد اتخذ من قصته برهانا على أن الأفكار ذات الاتجاه الاشتراكى ليست غريبة عن التقاليد الإسلامية »

بل يزعم أن التيار الذى كان يمثله أبو ذر « كان يتعارض مع اتجاه محمد نفسه » ، ويؤيد المؤلف رأى علماء الأزهر فى ١٩٤٨ ضد الذين استدلوا من سيرة أبى ذر على وجود الاشتراكية فى الاسلام » !!

وقد ناقشنا فى غير هذا الموضع موقف أبى ذر ، ويكفى أن نقول هنا فى موضوع نسبة آرائه للاسلام أن أبا ذر كان يستند إلى تفسيره للآية الكريمة « والذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها فى سبيل الله فبشرهم بعذاب أليم » وحديث عن النبى صلى الله عليه وسلم ، أو كما كان

أبو ذر يقول : «أوصانى خليلى أن أى مال ، ذهب أو فضة ، أوكى عليه فهو جمر على صاحبه حتى ينفقه فى سبيل الله » .

فمواقف أبى ذر ودعوته ، كلها من صميم الاسلام ، لا تتعارض مع اتجاه محمد صلى الله عليه وسلم ، بل ما بلغ أبو ذر شيئاً فى سلوك رسول الله وزهده . . ولقد عاش صلوات الله عليه عيشة أشد شظفاً مما عاش أبو ذر ، وتوفاه الله عن تركة أقل مما أورث أبو ذر أهله .

ويؤكد المؤلف فى الفصول الأخيرة من الكتاب أن « الحديث عن تعارض جوهرى بين الاسلام والرأسمالية حديث خرافة ، بصرف النظر عما وراء القول به من قصد حسن أو سيء . فعلى الصعيد النظرى ، ليس فى الدين الإسلامى أى اعتراض على صيغة الانتاج الرأسمالى » .

وينتقد محاولات : « الاستخدام الشعبى لشعار الاسلام ولحرمة الاسلام كلواء تستظـــل به اختيارات متفاوتة فى مدى حظها من الاشتراكية » .

ويرى أن المسلمين الرأسماليين فى موقف أفضل كثيراً من موقف أولئك الذين يؤلون القرآن والسنة فى الاتجاه التقدمى . . أولا لأن النصوص فى مصلحتهم (!) ، ولو قيل العكس ، إذ أنها وضعت فى عصر آخر لم يكن حق الملكية فيه يلقى معارضة جدية » .

ويعود فيؤكد أن « اتجـــاه المجتمعات الاسلامية جزئياً نحو الاشتراكية ليست له من صلة بتعاليم الاسلام إلا بمقدار ما كانت كل الأديان تعبيراً عن مطالب إنسانية أساسية » .

ويقول : « ولئن كان ممكناً أن يشهد المستقبل طريقاً مغربياً أوجزائرياً أو مصرياً أو عربياً أو تركياً أو فارسياً نحو الاشتراكية ، فقليل الاحتمال أن تكون الملامح الرئيسية لهذه الطرق مدينة بالكثير للدين الاسلامى » .

وهو يرفض إمكانية أن يقوم الاسلام بدور التعبئة الأيدلوجية التى يعتبرها شرط تحقيق التنمية الصناعية ، لأن التجربة التاريخية والتحليل النظرى الذى أوردناه كلاهما لا يشجعان على أن نرى فى الدين الاسلامى اليوم عاملا من شأنه تعبئة الجماهير من أجل البناء الاقتصادى ، وبصورة خاصة بعد أن أصبح واضحاً أن هذا البناء لابد له أن يكون ثورياً بالضرورة ، هداما للبنى السائدة ... » .

ويرفض تجربة الثورة الجزائرية التى يرى بعض مفكريها : « أن الاسلام هو العامل الوحيد الذى يمكن باسمه الوصول إلى قلوب الفقراء » ويرى فى تعلق الجماهير بالاسلام « ظاهرة وطنية وطبقية » ولا يقول لنا ما الضير فى ذلك ؟ ويتساءل فى استنكار : « كيف يمكن استخدام الاسلام كايدلوجية » ؟ ! كيف يمكن أن نعلن باسم الاسلام وجوب تأميم هذه الممتلكات أو تلك ، وأصحاب هذه الممتلكات أئمة ونماذج تقوى (!) وأكثرية رجال الدين يعلنون عن حق (!!) أن الإسلام أقر الملكية الخاصة . .

كأن التأميم عقوبة تفرض على غير الاتقياء ! . . أو كأن التأميم يعنى إلغاء الملكية الخاصة . .

المهم أن الكتاب - كما ترى - بعيد كل البعد عن أن يكون محاولة للربط بين الاشتراكية والاسلام . . ولنتفق من البداية على أننا لن نفتش فيه عن فتوى بشرعية الاشتراكية ، فنحن لا نتلمسها من مستشرق ، وهذه القضية لم يثر الجدل حولها فى بلادنا قط من جانب الجماهير المسلمة . .

ولا نحن نبحث فيه عن اشتراكية أو ثورية الاسلام ، فنحن نؤمن أنه صالح لكل زمان ومكان . . وصفة الزمان أنه يتغير ، وصفة المكان أنه يختلف ، وشرط الصلاحية لكل زمان ومكان هو قابلية التغير ، أى أنه لايفرض نظاما محددا قاطعا فى تفاصيله الاجتماعية والاقتصادية والسياسية ، بل يضع مبادىء وأسسا ترسم سلوك الفرد وسلوك المجتمع ، ويتحرك الناس فى إطارها لبناء مايصلح حياتهم .

وإذا كان دخول العالم الاسلامى عصر الصناعة يبدو مستحيلا بغير التعبئة الجماعية لطاقات الأمة والدولة ، فإن الاشتراكية تبدو قضية تفصيلية وحتمية أمام الشعوب الاسلامية ، وهى لاترى فيها ما يتعارض مع دينها ، بل تراها من صميم مبادىء الاسلام ، لاتحتاج لمن يعلمها لها ولا من يفتى لها بشرعيتها . . وترى أن الرأسمالية باستغلالها وأنانيتها وحتمية الاستعمار فيها ، تتنافى مع روح الاسلام وتعاليمه . . وماتراه الأمة الاسلامية حقاً فهو الحق . .

يقول رسول الله : « لا تجمتع أمتى على باطل » . . فإن أرادت الجماهير نظاماً اقتصادياً معيناً وأجمعت على ذلك ، أصبحت تشريعات هذا النظام من صميم الشريعة . .

فالاسلام قائم قبل الاشتراكية ، قائم فى مرحلة الاشتراكية . . قائم باذن الله بعد ما تتخطى حركة التاريخ هـذه المرحلة إلى مرحلة غيرها .

فنحن لا نتعرف على الاسلام ولا على الاشتراكية التى تعنينا فى الوطن الاسلامى ، فى كتاب الاسلام والرأسمالية لمكسيم رودنسون . ولكن سنتعرف فيه على بعض مايروجة مفكرو الغرب عن الاسلام . هـذه النظرة التى بدأت عنصرية متعصبة ، ورغم تطورها اليوم ، ومحاولتها الاتصاف بالموضوعية ، وبذل جهد أكبر فى محاولة الفهم كما يفعل مكسيم رودنسون - إلاأنها مازالت بعيدة عن فهم روح الاسلام وحقيقة تعاليمه .

ويبذل المؤلف جهدا مخلصا فى تفنيد الادعاءات التى سادت الفكر الغربى حول تفسير أسباب ظهور الرأسمالية فى الجانب غير الاسلامى من العالم . .

وإذا كانت أساطيل الغرب ومدافعه قد حالت بيننا وبين دخول عصر الصناعة ، فكما يقول المؤلف أن المعاهدات التى فرضت على الدولة العثمانية : «كانت فى واقعها تقطع الطريق مسبقا على أية محاولة محتملة لبناء صناعة عثمانية» . . هذه المعاهدات التى فرضها بالمرستون والاسطول البريطانى على مصر ، واضطر محمد على أن يعلن أمام معبد حرية التجارة ندامته وتوبته النصوح عن محاولة التصنيع» . ويقول : «ومن الواضح أن مثل هذه الظروف كانت تجعل أى جهد للتصنيع المستقل أمراً

مستحيلا » إذ كانت قوة « الإمبرياليات » الغربية اقتصاديا وعسكريا تجعل من العسير جدا عليهم - إذا لم نقل من المستحيل - أن يحققوا التصنيع .

ولكن أساطيل الامبرياليات الغربية ، لم تكن وحدها هى التى تعمل . . بل مدفعية أخرى لاتقل عنها خطورة ، وهى كتاب الغرب وفلاسفته ومستشرقوه ، الذين عكفوا على التفتيش عن أسباب تخلفنا ! وبالطبع لم يكتشفوا الاستعمار ، بل اكتشفو الاسلام !

فالاسلام هو سر تخلف العالم الاسلامى ، لأن الاسلام يعادى التصنيع ! . . وعقدة العقد التى حالت دون قيام الرأسمالية فى بلادنا هى تحريم الربا !

« ج . أوسترى » يرى أنه « لما كانت عقلية الاسلام السلفية لم تساعد على نمو الرأسمالية ، فان الاساليب الرأسمالية لم تدخل الاقليلا فى صناعة البلدان الاسلامية وتجارتها ، لذا كانت أكثر المشروعات الهامة من صنع الأجانب » .

بل ويدهش من وجود تكنولوجيين مسلمين !

وبموجب هذا المنطق الذى روجه مستشرقو الاستعمار ، لم يكن الاستعمار هو السبب ، بل الاسلام ! الذى منع المسلمين من بناء المصانع ، مما اضطر الأجانب مشكورين إلى تولى هذه الأعمال !

وليت الأمر اقتصر على تحريم الربا . . بل إن حالة المسلمين

ميئوس منها ، فهناك أيضا السحر . . « إيمان الإسلام بالسحر » منع توفر العقلانية الضرورية لقيام الصناعة الرأسمالية . . كما يرى ويبر . . وكذلك « القدر المحمدى » يحول دون المغامرة المطلوبة فى النظام الرأسمالى . .

« والقدر المحمدى » كالغول والعنقاء والخل الوفى ، ولكنه من اختراعات الفكر الصليبي فى عنفوان كراهيته وتعصبه ضد الإسلام ، ومحمد بالذات من بين الأنبياء هو الذى شرع له القتال دفاعا عن دينه وعن حرية المسلمين فى تصريف شئونهم . . وكان يخرج للقتال لابسا خوذة على رأسه ، ودرعا على بدنه ، حاملا ترسا وسيفا ، وغطاه المسلمون بأجسادهم يوم أحد ليحموه من السهام . . وحفر الخندق حول المدينة ليمنع وصول جيش العدو له . . وكلها تصرفات تؤكد أن الاسلام ما بشر ، ولا المسلمون آمنوا لحظة واحدة بهذا الاستسلام البليد للقدر كما يصوره كتاب الغرب من الدرجة الرابعة . .

بالعكس إننا نستطيع ان نقول أن الايمان بالقدر كما هو فى الاسلام بل كما هو فى كل دين ، يدفع المرء الى المخاطرة ، فما دام لن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا . . فلماذا نخاف . . وما الذى يمنعنا من أن نطلب الأفضل ونسعى إلى النجاح . . أو هو كما بينه عمر بوضوح وعبقرية إسلامية خالصة . . فعندما أراد الرجوع من الشام لوجود الطاعون به ، وسئل أتفر من قضاء الله ؟ . . « رد نعم إلى قضاء الله .. » ثم ضرب مثلا بالرجل إن أحسن اختيار المرعى لإبله فبقضاء الله ، وإن أساء فبقضاء الله . . لذا فالراعى مطالب بأن يجتهد ماوسعه

فى اختيار المرعى لأنه لايعرف ماقضاء الله . . وهو مسئول عن أن ينشد الأحسن ، وعاد عمر إلى المدينة ، هاربا من قضاء الله فى الشام إلى قضاء الله فى المدينة . .

ولكن طريق المسلمين حافل بالاشواك ! ! فهناك أيضاً « الصدقة والإحسان » « يبعدان الكثيرين عن العمل المنتج» ورأى ارنست رينان ورينيه شارل أن الاسلام يمنع تابعيه من أية مبادرة اقتصادية تقدمية ويحكم عليهم بالجمود . . . »

ولا أظن أنه يوجد فى تاريخ المبادرة الاقتصادية مثل عبد الرحمن ابن عوف فى عفته وامانته وشرفه ونجاحه الاقتصادى الخرافى .. «دلونى على السوق » شعار يصلح أن يكتب بالذهب فوق أعظم مؤسسة اقتصادية فى العالم .. لولا أن السوق الآن والتعامل فيها مجرد من القيم والشرف(١) .

ويرى « ويبر » أن العقلانية لاتتوفر إلا فى العقلية الغربية ..

---

(١) هاجر عبد الرحمن بن عوف إلى المدينة لايملك شيئا ، فلما وصل إلى هناك آخى رسول الله بينه وبين سعد بن الربيع . . فقال له سعد الانصارى : هذا مالى خذ نصفه ، ولى زوجتان أطلق لك واحدة فتتزوجها . . فقال عبد الرحمن ابن عوف « بارك الله لك ياأخى فى اهلك ومالك .. لاحاجة لى بهما .. دلونى على السوق . . » وذهب عبد الرحمن بن عوف إلى السوق فباع واشترى (بغير رأسمال) وتصدق بماله كله أو نصفه أو ثلثه عدة مرات) وكان يتصدق بالقافلة كاملة : الجمال وما تحمله ! . . ثم مات عن حوالى ٣٢ مليون دينار ، وكانوا يكسرون الذهب الذى خلفه بالفؤوس . . أبعد ذلك مبادرة اقتصادية ! ..

وقد تصدى مكسيم رودنسون فى جهد ملحوظ لتفنيد هذه الآراء قدر ماوسع علمه ، فأثبت عقلانية الإسلام ، وتفوقه فى هذه الناحية على كل الايدلوجيات والديانات السابقة عليه .. ثم ركز جهده فى معظم فصول الكتاب لإثبات أن الإسلام لم يكن ليعوق قيام المجتمع الرأسمالى لا من الناحية الايدلوجية ولامن ناحية التنظيم الاجتماعى والاقتصادى للمجتمع ..

وقد بذل جهداً، لانظنه أنه كان بحاجة إليه، لإثبات أن تحريم الربا لم يكن يلتزم بصفة جدية فى المجتمعات الإسلامية ، وأن الملكية الخاصة موجودة ومعترف بها ، وأن استغلال العمل المأجور مشروع وقائم فى المجتمع الإسلامى .. وبالتالى فكل مقومات النظام الرأسمالى كانت متوفرة ، لو أتيح لها المناخ اللازم لنموها .. ولو أنه يعترض على رأى المستشرقين السوفيت الذين يرون أن المجتمعات الإسلامية كانت حبلى بالرأسمالية لولا أن أجهضها الغزو الاستعمارى ، فهو يرى أنها كانت عاقرا بفعل أسباب خارجة عن الدين الاسلامى .

ولنبدأ بمناقشة أفكار الكتاب على ضوء هذه المعرفة بنوايا مؤلفه واجتهاداته ..

لماذا الإسلام ؟

وإذا كان المؤلف يسلم بضرورة التعبئة الايدلوجية للدول النامية إذا ما أرادت أن تحقق ثورتها الصناعية اليوم ، فإنه يرفض أن تتم هذه

التعبئة باسم الاسلام ، لأنه يخشي أن تفوز قوى التخلف فى لعبة تفسير النصوص والشعارات ..

ولكن من قال أن وجود قوى متخلفة تنسب نفسها للاسلام لمصلحتها الطبقية ، يعنى أن نترك لها الميدان .. بزعم أن حجتها أقوى وأنهم يقفون تاريخيا قبلنا على هـــذه الأرض ؟ .. فمن الأفضل أن نتركها لهم ونتحرك نحن إلى أرض جديدة ؟ ! .

صحيح أنه فى الحرب يفضل دائمـا أن تختار أنت أرض المعركة وأسلحتها .. ولكن، كم من معارك التاريخ دارت وفقا لمزاج المتحاربين؟ وكم فى التاريخ من أمم وحركات وقواد ، هزموا وبادوا ، لأنهم ظنوا أنهم يجب ألا يقاتلوا إلا وفق شروطهم ، فلم ينتظرهم خصومهم ولا رحموهم ! .

والأرض الوحيدة التى يمكن أن يقوم عليها بعث حضارى للعرب هى تلك التى يشكلها التراث الاسلامى .. وخبرة العمل العربى تؤكد أن الجماهير تعيش هذا التراث وتستجيب له وحده .

ووجود تفسيرات متخلفة للاسلام لايعنى أن يدير المخلصون المتطلعون لعزة أمتهم ظهرهم للاسلام ، فالنظرة العلمية للاسلام تؤكد أنه دائما أبداً إلى جانب القوى النامية الراغبة فى بناء المجتمع الأفضل والقادر على مواجهة تحديات العصر ..

وأنه ما من دعوة صالحة تستند إلى العلم وحاجة العصر وإرادة

التغيير عند الجماهير وجدت حائلا حقيقيا من نصوص الدين الاسلامى وتفاسيره ..

على أية حال ليست القضية قضية من هو الاقدر على نسبة مصالحه للاسلام بقدر ماهى محاولة لفهم الأساس الوحيد والسليم لأى حركة تستهدف حقيقة إطلاق طاقات هذه الأمة ، مستندة إلى تراثها الخالد لبناء مستقبل زاهر ..

والذين ينصحوننا الآن بالتخلى عن الاسلام لكى نتمكن من بناء الاشتراكية ، يقفون نفس موقف الذين كانوا ينصحوننا خلال القرن التاسع عشر ومطلع القرن العشرين بالتخلى عن الاسلام لكى ننجح فى بناء الرأسمالية ، وهم الذين يحاول رودنسون الرد عليهم فى كتابه هذا فاذا به يسقط فى نفس موقفهم !

انها محاولة الغرب المصرة على اختلاف الشعارات — لدفع المسلمين إلى التناقض مع الاسلام والتخلى عنه، فليس الهدف أبدا إقناعنا بالرأسمالية ولا كسبنا للاشتراكية ، بل تجريدنا من الاسلام .

وكما لم تنجح الحركات ولا الحكومات الاسلامية التى صدقت هذه النصيحة المسمومة ، فتخلت عن إسلامها سعيا وراء سراب المجتمع الرأسمالى ، فعادت بخفى حنين قد خسرت الإسلام والاستقلال .. فإن نفس الخفين فى انتظار من يحاول اليوم أن يرتكب نفس الخطأ ..

الربا

فلنناقش إذن القضايا التى يثيرها الكتاب . . ولنبدأ بقضية الربا ..

والمؤلف هنا يرد على «عدد من مؤلفي الكتب الشعبية والدراسات الاقتصادية العامة والحقوقيين ، الذين يحسبون أنهم باستخدامهم بعض الكلمات العربية الرنانة يستطيعون أن يبرهنوا على أن تحريم الربا قد عاق المسلمين عن ممارسة أى نشاط اقتصادى من النمط الحديث ، إذ أن آراءهم تلقى اذنا صاغية لدى أولئك الذين ينبهرون بعلمهم أو الذين لديهم الاستعداد للقبول بنظرية ترضى عنصريتهم وعداءهم ، وإن زيفوها أحيانا بستار من الاعجاب الكاذب بحضارة تقليدية يسبغون عليها المثالية بزعمهم أنها سمت عما انساق إليه العالم الحديث من لهاث وراء المال» .

وإذا كان الذين يروجون هذه الآراء عنصريين ، بحكم نسبتهم القصور إلى أخلاقيات الأمم غير الغربية ، فإن الموقف الذى يتخذه رودنسون لا يخلو من عنصرية ، عندما يرفض وجود اختلافات بين مفاهيم الحضارات وقيمها ، فالنرجسية المصابة بها الحضارة الغربية تجعلها تتأمل نفسها فى إعجاب ، بل وأكثر من ذلك ترى ملامحها هى فى كل ما تتأمله . . فما دامت الحضاره الغربية حضارة مادية قامت على الربا ، فلابد أن كل الحضارات قد سلكت نفس السلوك ، وكل ادعاء غير ذلك هو من باب خداع النفس . !

ويرد أيضا على أولئك الذين قالوا : أن تحريم الربا قد جعل تجارة المال فى العالم الاسلامى حكرة فى ايدى المسيحيين اولا ثم فى ايدى اليهود من بعدهم .

ولو أن رشيد رضا قد رد على هذه المزاعم قبل مكسيم رودنسون بنصف قرن عندما قال : « يقول كثير من الناس الذين تعلموا وتربوا

تربية عصرية . . أن المسلمين منوا بالفقر وذهبت أموالهم إلى أيدى الأجانب وفقدوا الثروة والقوة بسبب تحريم الربا ، فإنهم لاحتياجهم إلى الأموال يأخذونها بالربا من الأجانب ، ومن كان غنيا منهم لايعطى بالربا ، فمال الفقير يذهب ، ومال الغنى لاينمو . . يعنون أنه ما جنى على المسلمين إلا دينهم . وهذه أوهام لم تقل عن اختبار ، فإن المسلمين فى هذه الايام لا يحكمون الدين فى شىء من اعمالهم ومكاسبهم » .

ولنا اعتراضات على المنطق الذى استند إليه مكسيم رودنسون فى مناقشته لقضة الربا . . فهو يرى :

أن المسلمين لم يلتزموا إلا فترة نادرة ، يجوز إسقاطها من تاريخهم ، بتحريم الربا ، فهم إما تعاملوا به صراحة ,أو احتالوا على النص بسذاجة ببعض الألاعيب الفقهية .

وهو يبنى كتابه كله على هذه الفرضية التى تبدو من شدة تحجرها كأنها حقيقة لا تحتمل الجدال . .

وهى القول بأن النظام الرأسمالى هو المناخ الوحيد الذى كان من الممكن أن تنبت فيه الثورة الصناعية وتنمو ، والنظام الرأسمالى لايمكن تصوره بغير الربا «الفائدة» ، فنقطة البدء هى الربا فالرأسمالية فالصناعة . من هنا يبذل مكسيم رودنسون جهودا جبارة لتبرئة ساحة الإسلام من تهمة سد لطريق على الصناعة ، بإثبات أكل المسلمين للربا !

غير أننا نرفض هذه الفرضية ، ونرفض كل ما ينبنى عليها من نتائج . . لأننا لا نجد دليلا مقنعا — غير أنه هكذا جرت حركة

التاريخ — على أن شعوب العالم الثالث كانت عاجزة عن أن تحقق التصنيع بغير الشكل الذى قدمته الحضارة الغربية . .

إننا نعيش اليوم تجربة تقدم الدليل المضاد لهذه الفرضية ، فشعوب العالم الثالث يتأكد لها كل يوم أنها لا تستطيع تحقيق الثورة الصناعية فى بلادها ، إذا اصرت على أن تسلك نفس الطريق الذى سلكته الرأسمالية فى الغرب . . فلماذا نصادر حركة التاريخ ونزعم أن هذا الوضع الذى نعيشه الآن لم يكن ممكنا منذ ستة أو حتى عشرة قرون !

الم يكن من الممكن أن تكتشف شعوب العالم الثالث طريقا غير الرأسمالية يحقق لها الثورة الصناعية ، لولا أنها سقطت تحت احتلال الغرب الاستعمارى ، الذى فرض أسلوبه فى التطور ، ثم حال بيننا وبين تجربة هذا الاسلوب؟!

الم تدخل الشعوب الاسلامية فى الاتحاد السوفيتى والصين عصر الصناعة بغير المرور على مرحلة الرأسمالية ، فمن الذى حتم أن تمر الشعوب الاسلامية بمرحلة الرأسمالية وتتعاطى الربا لكى تصل إلى الثورة الصناعية!

ألا يرى المؤلف نفسه أن مسألة « معدل الفائدة » (الربا) قد فقدت كثيراً من أهميتها بانتقال الدول الاسلامية إلى أنماط اقتصادية اشتراكية أو حكومية على الأقل » .

أليس ذلك حجة لديننا . . ألم يكن من الممكن أن يحدث نفس الشىء وأن تتم نفس الخطوة منذ عشرة قرون ؟ لولا الأحداث التى نزلت بالعالم الاسلامى ، وهى الحروب الصليبية ثم الاعصار المغولى ، بما دمر امكانيات

النمو الحضارى ، وحول منحنى التقدم الاسلامى إلى الثبات ثم الهبوط . .

إننا نعتقد أنه فى ظل الفلسفة الاسلامية ، وما تحققه من اطلاق لا حد له لطاقات الانسان المبدعة ، وما تفرضه فى نفس الوقت من تكافل اجتماعى ، ومسئولية الدولة مسئولية كاملة عن الحياة فى مجتمعها . .

نرى أن الحضارة الاسلامية كانت قادرة على ضوء ما وصلت إليه من معرفة علمية فى أواخر القرن الثالث الهجرى ، وما تجمع فيها من ثروات ، كانت قادرة ، على تحقيق الانقلاب الصناعى ، لولا العوامل التى كانت نتيجة عوامل خارجة عن ارادة المجتمع الاسلامى بصفة أساسية ، وإن كنا لانعفى ذلك المجتمع من مسئوليته فى العجز عن مواجهتها خارج حدوده (١) .

من هنا فنحن نرى أنه لولا هذه الأحداث التى نزلت بالعالم الاسلامى لكان من المؤكد أن يصل إلى صيغة إنتاجية أكثر سموا من الصيغة الرأسمالية وقادرة على تحقيق الانقلاب الصناعى . .

---

(١) على اية حال هذه قضية لا يمكن أن تبحث كل جوانبها فى هذا الحيز .. وفشل الحضاره الغربية رغم تفوقها التكنيكى وتمرسها فى وسائل القمع فى منع قيام حضارات معادية خارجها ، بل وتنبؤ المؤرخين بانهيار الحضارة الغربية عن عمر أقصر مما عاشته الحضارة الإسلامية فى تألقها .. كل هذا يقدم عذرا لأسلافنا فى عجزهم عن مواجهة المصير المحتوم لكل الحضارات . وهم قد واجهوا اعصارا نادرا فى شكل غزو جماعى انقض على العالم الاسلامى من جانبيه ، فصدوه ، واستمروا فى الحياة بعده عدة قرون ولكن أثخنتهم الجراح ، واصابتهم حمى القتال بتغييرات فى صميم تكوين المجتمع أدت الى وقف النمو الحضارى (ارجع فى هذا لتحليلنا لأسباب قيام الدولة العثمانية فى كتاب القومية والغزو الفكرى) .

فالرأسمالية لم تكن قدرا محتوما على الشعوب ، والربا ليس هو كلمة السر التى يبدأ بها طريق الصناعة . .

أما القول بأن الربا قد حال بين المسلمين وتحقيق الثورة الصناعية .. فذلك صحيح . . ولكن . . بعكس ما يقال تماما . .

فإن التعامل بالربا هو الذى منع قيام الصناعة فى البلاد الإسلامية وليس التأثم من التعامل به . . فلولا ديون اسماعيل ذات الربا الفاحش لما انهار اقتصاد مصر ، ولما سقطت فريسة للمرابين الذين احتلوا البلاد ومنعوا قيام الثورة الصناعية بها .

فليت حكام العالم الثالث التزموا بتعاليم الإسلام وتأثموا من الاقتراض بالفائدة . . إذن لكانت فرصتهم أكبر فى دخول عالم الصناعة ولو حتى فى الشكل الرأسمالى . .

لقد كانت قضية الربا من القضايا المحرجة للمسلمين قبل ظهور الاشتراكية ، عندما كان «المصرف» هو اله الصناعة ، وهو وحده الذى يملك أن ينقل المجتمعات من التخلف إلى التقدم . .

وكم بذل علماء المسلمين من جهد لتبرير أو تفسير أو حتى تحليل الفائدة !

ولكن هذه القضية لم تعد تثير الآن إلا الاعتزاز بالإسلام ، الذى تحمى تعاليمه شعوب العالم الثالث من استنزاف ثرواتها باسم القروض ..

ولا شك أن تحريم الفائدة فى مصلحة شعوب ثبت أنها تدفع سنويا فوائد وأقساطا ضعف ما تناله من قروض . . وأنها عاجزة فى ظل هذا

الوضع أن تحقيق معدل تنمية من هذه القروض يغطى حتى فوائدها . !

ولا شك أن تحريم الربا يعنى قطع خيوط التبعية التى تربط الاقتصاد الاسلامى بنظام المصارف العالمى الصهيونى فى حقيقته ١ ، والذى لا يمكن أن يسمح ببناء اقتصاد مستقل مزدهر غير خاضع لسيطرته ، ولا يمكن أن يسمح لشعوب العالم الثالث باستثمار ثرواتها وبناء حضارتها والدفاع عن نفسها ضد عـــدوان الرأسمالية الغربية . ومهما كان حجم الاستقلال السياسى الذى تناله شعوب العالم الثالث ، فإن هذا الاستقلال يغدو خرافة باستمرار خضوعها لسيطرة البنوك الغربية ، وما من سبيل إلى تحررها إلا خروجها من دائرته ، ولا شك أن تحريم الربا يخرجها تماما من قبضته . .

غير أن النقاش اليوم حول الربا يعد نموذجا للتفكير الجزئى العقيم .. وما أسخف أن يعيش المرء فى مجتمع لا علاقة له بالاسلام إلا أسماء أفراده . . ثم يجهد نفسه فى البحث هل يجوز له الحصول على فوائد أمواله فى البنك ، ولا يسأل نفسه أين تودع أموال هذا البنك ، واين تنفق ، وما علاقة ذلك كله بالاسلام ؟

إن الاسلام نظام شامل جاء لتنظيم مجتمع إنسانى . . وقضية الربا قضية جزئية فى إطار هذا النظام الشامل ، فإذا تخلينا عن النظام كله ، بدت لنا الجزئية غريبة وشاذة وغير ممكنة التحقيق . .

---

(١) كان تحريم الربا بعد غزوة أحد ، واتضاح عداوه اليهود ، وتحتم مواجهتهم فى معركة حاسمة ، ولاشك أن الحكمة الآلهية استهدفت ضمن العديد مما استهدفته تحرير اقتصاد المجتمع الاسلامى فى المدينة من سيطره اليهود المالية بتحريم الربا ..

أما لو عشنا فى نظام إسلامى عالمى ، فإن تحريم الربا سيدفع الدول الاسلامية إلى التفكير فى شكل جديد من أشكال التعاون الاقتصادى فيما بينها بعيداً عن روح المصرفية اليهودية وأساليبها . .

أما فى الفترات التى تخلت فيها المجتمعات الاسلامية عن تعاليم الدين، فلم يكن المسلمون فقراء بسبب تحريمهم الاقتراض بفائدة ، بل بسبب سيطرة البنوك الرأسمالية الأجنبية، تلك التى سمحت للمسلمين بالاقتراض بالربا وحرمت عليهم الاقراض .

الملكية

وفى محاولة لاثبات عدم تعارض الاسلام مع الرأسمالية جمع مكسيم رودنسون كل الآيات والأحاديث التى تثبت شرعية التملك والملكية، بل ويستدل من تشريع الاسلام بشأن المواريث أنه يفترض بالضرورة استقرار الثروات المكتسبة ويدعى أن أحكام الميراث من شأنها أن تمنع انتقال الثروات أكثر مما تمنع تكوينها . .

والميراث فى الاسلام ينفى القدسية عن حق الملكية، أما تحريم الملكية الخاصة فلا نظن أنه قد طرح بصفة جدية فى أى حوار جاد يتعلق بتنظيم المجتمع . . ولم يقم حتى الآن مجتمع يلغى الملكية الخاصة إلغاء مبرما ، بحيث يتحول الانسان إلى عضو فى مؤسسة تمتلك كل شىء إلا ماولد به فإذا غادر هذه المؤسسة وانتهى عمله بها بالوفاة أو بغيرها ، تسلمت المؤسسة كل ما يخصه ! . . لم يقم مثل هذا المجتمع ، ولا يبدو أنه من

الممكن تصور قيامه . . ومادمنا قد سلمنا بحد ما من الملكية الخاصة لابد من وجوده ، مهما يكن محدودا ، فلابد من انتقال هذه الملكية بعد وفاة المالك . .

وهنا ينطلق الاسلام من نظرته إلى الملكية باعتبارها وظيفة اجتماعية وليست حقا مقدسا للمالك ، ففي التشريعات الأخرى نجد المالك يملك أن ينقل ملكيته إلى القطط والكلاب أو إلى غريب عنه أو إلى زوجته مع قيود تشل حريتها كإنسان .. أى أن إرادته وإدارته لثروته تمتد إلى ما بعد وفاته وبعد أن يكف عن أن يكون له أى دور فى إدارتها أو تنميتها ، ورغم ذلك تظل هذه الارادة تتحكم فى المجتمع . .

أما الاسلام فهو يحدد انتقال هذه الثروة وطريقة توزيعها بين الورثة بصرف النظر عن عواطف المالك وأهوائه . . فالميراث فى الاسلام يعترف بالملكية الخاصة ، وينفى بنفس القوة قدسيتها ، يعترف بالحق الجماعى فى توزيع الملكية ، وبسيادة إرادة التشريع على إرادة الفرد المالك .

أما أن نظام الميراث الاسلامى يؤدى إلى تفتيت الملكية فقضية تثبتها التجربة والمنطق ولا تحتاج لنقاش .

فالملكية فى الاسلام وظيفة اجتماعية ، ومصلحة المجتمع فيها مقدمة على مصلحة الفرد ، والتملك مرتبط بالقدرة على افادة المجموع ، وحق المجتمع مطلق فى تقييد وإباحة ونزع ونقل ملكية الفرد فى حدود ما أمر به الاسلام . .

أما قضية إمكانية قيام النظام الرأسمالى فى مجتمع إسلامى فقد رأينا خطأ الربط الحتمى بين رأسمالية المجتمع وقيام الصناعة فيه ، ورأينا أنه لم يكن من المحتوم على الشعوب الإسلامية أن تسلك الطريق الرأسمالى لتحقق ثورتها الصناعية . . كذلك رأينا أن تحريم الربا لم يكن عائقا عن قيام الصناعة ، بل إن التعامل بالربا كان عاملا من عوامل تدهور اقتصاديات العالم الثالث . .

وإذا كان صحيحا أن المجتمعات الإسلامية فى العصور المتأخرة لم تكن تمنع قيام المؤسسات الرأسمالية فإن قضية اتفاق التعاليم الإسلامية مع الروح الإسلامية تبقى بحاجة إلى نقاش . .

يرى مكسيم رودنسون أن عوامل ظهور الرأسمالية كانت متوفرة فى العالم الاسلامى ، وهى :

* أن العالم الإسلامى الوسيط قد عرف ثروات ضخمة من النقد والمعادن الثمينة .

* الانتاج للسوق كان معروفا وقائما ومزدهرا .. فى مدينة واحدة من مدن مصر كان يوجد ٥٠٠٠ نول . .

* أن بورجوازية يغلب عليها الطابع التجارى كانت قد نشأت فى العالم الاسلامى بدءا من القرن الثانى للهجرة ![1]

* أن قيام الرأسمالية يتطلب وجود رأس المال البضاعى وبلوغه مستوى معينا من النمو ، لان ذلك شرط لتركيز الثروة النقدية، ولان الصيغة الرأسمالية للانتاج تفترض وجود انتاج موجه للتجارة يباع بالجملة لا إلى الأفراد المستهلكين . فالشرط الادنى للتجارة « الرأسمالية » هو أن تكون تجارة جملة ، وأن تستخدم النقد بحيث تؤدى إلى تنمية الانتاج للسوق . . »

وهو يرى أن هذه العوامل كانت موجودة فى المجتمع الاسلامى المزدهر . . ثم يبقى السؤال .. لماذا إذن لم تتحول إلى رأسمالية كاملة . ؟

لماذا ظهرت الرأسمالية على الجانب الآخر من البحر الأبيض . ؟ . وفى الاجابة على هذا السؤال قد يبدو أننا نلتقى مع خصوم الاسلام ، وهو غير صحيح ، فنحن نرى أن الفلسفة الاسلامية كانت حائلا دون ظهور النظام الرأسمالى الغربى فى بلادنا . . لا لتخلفها .. بل بالعكس لسمو هذه الفلسفة وإنسانيتها وترفعها عن الاستغلال الوحشى الذى قامت عليه الرأسمالية الغربية وتغذت به ، وأصبح جزءا من مكوناتها.

---

(١) بل من قبل الاسلام !

فالاسلام حال دون قيام النظام الرأسمالى فى بلادنا عندما كانت الكلمة للمسلمين وحدهم ، لأن :

• الارتباط وثيق بين الرأسمالية والاستعمار .. فهما توأمان لا ينفصلان، بل فصلهما يؤدى إلى موتهما معا . . والرأسمالية الغربية لم تحقق نموها وتنجز الثورة الصناعية إلا باستعمار العالم الثالث .. فلا يتصور امكانية توفر رأس المال وتركزه فى الوطن الرأسمالى لتلبية احتياجات الثورة الصناعية بغير اعتصار شعوب المستعمرات .

والاستعمار كما يحتاج لواقع جغرافى وبشرى ، يحتاج أيضا إلى عقيدة تبرره وتدفع إليه . . ويصعب أن تجد طرف الحلقة فتحدد أيهما يبدأ أولا . . العقيدة أم العوامل المادية . . ولكن لا جدال فى أنه يستحيل على عامل منها أن يحقق الاستعمار بمفرده . .

فهل كان الاسلام قادرا على أن يخلق التبرير النظرى للاستعمار؟ هل كان يمكن أن تقوم دولة إسلامية باعتصار موارد دولة أخرى ، وتحريم الصناعة عليها من أجل بناء الصناعة فى الدولة الاسلامية الاستعمارية ؟.. والاسلام يدعو إلى أن يكون لهم مالنا وعليهم ما علينا . . وقد أصبح فقهاء المسلمين فى القرن الثانى من غير العرب . . وأئمة حديثهم من غير العرب ! . . بل لا تستطيع أن تقول أن الجنس العربى قد تصدر الدولة أكثر من مائة سنة فى حضارة عاشت ثلاثة عشر قرنا !

وحتى لو رفضنا التفسير الأخلاقى . . فهل كان أمام الدول الاسلامية مجال استعمارى تمتد فيه ؟ أى تستعمر أوروبا ؟ !

الذى حدث تاريخيا أنه عندما بدأ الصدام الثانى بين أوروبا والعالم

الاسلامى (الحروب الصليبية) . . فإن عوامل عديدة جعلت غزو المسلمين لأوروبا مستحيلا ، فتحول الاسلام إلى موقف المدافع ، وعندما جاءت الموجة العثمانية فان مسارها وتكوينها حال دون تحولها إلى إمبراطورية استعمارية ، وأساسا لالتزامها بنظرة الإسلام إلى الذميين وفكرته عن دار السلام . .

المهم أن الاسلام كان عاجزا عن أن يكون استعماريا ، وبالتالى كان طريق النمو الرأسمالى مسدودا . .

* والعامل الثانى هو العلاقة الداخلية فى المجتمع الرأسمالى . . إن « مكسيم رودنسون » يشير إلى حق انتزاع القوت للجائع . . وهو الحق الذى أقره جميع الفقهاء . . ويشير إلى الحديث : « ليس منا من بات شبعان وجاره جائع » ولكن رودنسون لا يرى فى ذلك مانعا خطيرا لقيام الرأسمالية . .

والغريب أنه لايرى ذلك ، رغم أنه ماركسى ، يؤمن أن شرط قيام الرأسمالية هو : « أن يبيت جارك جائعا » ليضطر أن يذهب فى الصباح فيبيع قوة عمله للحصول على القوت . .

إن وجود أولئك الذين « لايملكون إلا حرية الموت جوعا » كان شرطا أساسيا لقيام النظام الرأسمالى . . وهؤلاء لاوجود لهم فى مجتمع إسلامى يستحق هذا الاسم . .

إن حرية الموت جوعا ممنوعة فى الإسلام ، بل يباح انتزاع القوت بالقوة لحماية الحياة . . . وعلى بن ابى طالب يعجب للذى يبيت جائعا ثم

لايخرج على الناس بسيفه ، وعمر أيد موقف الانصار الذين انتزعوا قوتهم بالقوة من الذين منعوهم حق الضيافة .!. فكيف كان يمكن أن تتوفر طبقة الأجراء « البروليتاريا » الذين يضطرون للعمل لكى لايموتوا جوعا . . ؟

إن هناك خلافا أساسيا فى نظرة الإسلام للكون ، ونظرة الحضارة الغربية . . الإنسان الغربى ، فردى ، متوجس من الكون ، يعتبر نفسه فى حرب حياة أو موت ضد الآخرين ، وهو فى نفس الوقت وبسبب حالة الرعب هذه أسير المؤسسات التى يخترعها : الطبقة ، الكنيسة ، الحزب . .

أما الإنسان المسلم فهو فى ألفة مع الكون ، يؤمن أن الله قد سخر له كل هذا الكون لمتعته ، وأن التقدم يهدف لا إلى اذلال الطبيعة ، بل حتى تأخذ الأرض زينتها . وهو مسئول عن الكون ، ابتداء من نفسه فعائلته فجتمعه فالإنسانية . . لأن الله خلقه ليكون خليفته فى الأرض .

من هنا فان الفلسفة الإسلامية ترفض وحشية النظام الرأسمالى . ولايخجلنا أن نعلن بكل قوة ان المجتمع الاسلامى حقا يستحيل عليه أن يكون رأسماليا استعماريا . .

وقد رأينا أننا كنا قادرين على أن نمنح البشرية طريقا أفضل للتقدم العلمى والتكنولوجى . . غير طريق الرأسمالية الدموى . .

على أية حال كل هذه القضايا يمكن النقاش والخلاف حولها ، أما مالايحتمل الجدل فهو الحقيقة الراسخة بأن الاستعمار الغربى كان العامل الأساسى ، إن

لم يكن الوحيد ، الذى حال بين الدول الاسلامية وبناء الصناعة .

التعبئة الايداوجية

والمؤلف يرى أن الطريق الرأسمالى لايحتاج عادة إلى أيدلوجية تعبئة ، إلى عقيدة تطرح أمام شعب بكامله برنامجا للتنفيذ . . ولكن ليس هناك من ينكر الحاجة إلى ايدلوجية فى بناء الاشتراكية ، ولكنه يرفض أن يكون الاسلام هو هذه الايدلوجية .

ولاشك أن هناك أكثر من تحفظ على رأيه بانعدام الحاجة إلى أيدلوجية التعبئة فى مرحلة الرأسمالية ، فقد وجد دائما هـــذا اللون من الايدلوجية خلف بناء الامبراطوريات الرأسمالية ، بل وأصبحت الحاجة إليه ماسة فى الدول التى بدأت متأخرة عملية البناء الرأسمالى ، وبالذات فى حالة اليابان . . غير أنه لاجدال فى ضرورة ايدلوجية التعبئة فى مرحلة الاشتراكية ؛ ويرى عدد من الاشتراكيين المخلصين أن الإسلام يشكل إمكانية جبارة لتحقيق هذه التعبئة . .

بل إن بعض الاشتراكيين غير المسلمين قد اقتربوا من الاسلام من هذه الزاوية ،فهم يرون أن مثله قادرة لا على تحقيق التعاون الداخلى فى المجتمع الذى يبنى الاشتراكية وحسب . . بل وتحقيق التعاون العالمى بين الدول غير الرأسمالية وهى القضية التى تتعرض فيها الاشتراكية لامتحان عصيب .

مخلفات المستشرقين

تبقى بعض القضايا التى لم يتوقف رودنسون لتمحيص مزاعم المستشرقين المتوارثة حولها ، بل ورثها هو بدوره . . كحكاية «الحديث» وقد شرحنا هذه القضية فى بداية هذا الكتاب . . ووضحنا أنه العلم الذى أكد حرية الفكر الاسلامى وعلما نيته . . فقد وضعه المسلمون موضع التدقيق القائم على الشك حتى تثبت صحته ، ثم اكتشفوا وسائل التحقيق العلمى ، إلى حد ضبط الكلمة الواحدة ، والترتيب التاريخى والجغرافى لخمسة أو ستة أجيال من الأمة الاسلامية .

والغريب أن « مكسيم رودنسون » الماركسى يعجز عن أن يرى الجدلية فى غير الماركسية ، فيقف حائراً أمام ما يظنه تناقضا فى الاحاديث ، ويتخلص من هذا الموقف بحل ساذج هو الطعن فى صحتها . . فهو يرى تناقضا فى أحاديث رسول الله التى تشيد بالتجارة : « التاجر الصدوق الامين مع النبيين والصديقين والشهداء » وقوله : « إن التجار يبعثون يوم

القيامة فجارا إلا من اتقى الله وبر وصدق، بينما لانرى أى تناقض . . فالتجارة كأى مهنة فيها البر والفاجر وكل يلقى جزاءه . . والتجارة أكثر عمليات الانتاج قابلية للتحرر من الاستغلال ، وأسوأها استغلالا فى نفس الوقت .

فالتاجر الأمين يحقق خدمة حقيقية للمنتج والمستهلك والانتاج ذاته، ولكن التاجر المنحرف يضر كل هذه الاطراف .. فإلى التاجر الأول يشير الحديث ، وعن التجار المنحرفين يتحدث الحديث الثانى . .

ومن العجيب أن « مكسيم رودنسون » يقبل الروايات المتواترة عن الاحداث التاريخية أو الشخصيات الاسلامية ويرفض الاحاديث التى وصلت إلينا بنفس الأسلوب ! . . والمنطق يدعو للشك فى وجود شخصيات مثل أبى بكر وعمر وعثمان وعلى مادمنا سننكر كل مالم يثبت فى غير القرآن ، لأن معلوماتنا عن هذه الشخصيات جاءت إلينا عن طريق الروايه والتسلسل، أى نفس الطريق الذى انتقلت إلينا به الأحاديث . .

ومن ثم فإن الشك المطلق فى الاحاديث أو السنة لمجرد أنها لم تدون كما دون القرآن ، يعنى الشك فى التاريخ الاسلامى كله .

والمستشرقون ليسوا أول من تشكك فى الحديث ، فهذه القضية كانت مطروحة فى الفكر الإسلامى منـــذ وفاة الرسول ، وكان كبار الصحابة يتحرجون أشد التحرج من الحديث عن رسول الله ، وكان كل المتحدثين يعرفون ويؤمنون بحديث : « من كذب على متعمدا فليتبوأ مقعده من النار» . ومن ثم فقد طرحت كل الأحاديث للامتحان والتحقيق

بكل الوسائل العلمية - ولا أقول المتاحة وقتها - بل والممكنة حتى اليوم. ويبقى بعد ذلك ما عرفه رودنسون من أن هذا الشك المنظم ، قد منح الفكر الاسلامى حرية استعصت على أية لا هوت قبله . . كما سمحت للتيارات أن توجد ، وأن تختلف وتثرى الفكر الإسلامى من اختلافها .. أما ما يبدو من تناقضات ، فهو دليل حيوية هذا الدين ، ومطابقته لاحتياجات الإنسان المتعددة والمتغيرة بتغير الزمان والمكان .

أما قفل باب الاجتهاد ، فخير تفسير يقدمه مستشرق لهذه النقطة هو قول « وليام بولك » : « إن المسلمين فى عصور الانحدار الاجتماعى والسياسى والاقتصادى ، كانوا يواجهون خطر الابادة كمسلمين ، ولم يكن هناك ثمة أمل فى نشر الدين . . فأصبح جل هم المسلمين ، إبقاء جذوة الدين مشتعلة ، وهذا لا يتأتى إلا بمنع كل التيارات ، وإغلاق كل الأبواب . . فاغلاق باب الاجتهاد لم يكن لتوهم اكتمال المعرفة . . بل لنقص العارفين .. أما لو توفروا ، وأمن المسلمون خطر ضياع الدين - فليفتح على مصراعيه ، فما من دين يحرض على التفكير مثل دين المجتهد فيه « إن أصاب أجران وإن أخطأ أجر » .

الصـــدقة

والصدقة فى الاسلام لاتحمل هذا المعنى الذى اكتسبته فى عصور الانهيار ، وكان الوالى للرسول والخلفاء فى عصور التألق ، كما يصفه المحكومون : « يأخذ الصدقة من أغنيائنا فيردها على فقرائنا » . فهى ضريبة تؤخذ وتوزع من قبل السلطة ، وليس فيها الإحسان الفردى أو المذلة الفردية ، لأنها لا تتم بين فردين ، بل عبر جهاز الدولة . . والآية تقول : « خذ من أموالهم صدقة » . . والإحسان التسولى لا يؤخذ . .

أما عندما انهار المجتمع الإسلامى ، وكفت الدولة عن أخذ حق الفقراء « المعلوم » فى أموال الأغنياء ، فقدتحول الفقراء إلى متسولين ، والأغنياء إلى متصدقين محسنين . . وفقدت الكلمة مضمونها الاجتماعى ، وتلقفها المستشرقون من عصور الانهيار ليتحدثوا عن مجتمع المتسولين فى دين يصف فيه رسول الله الصدقة فى أرقى صورها بأنها : أوساخ

الناس » ويقرر أن «اليد العليا خير من اليد السفلى » وأن العمل خير من أن يسأل الرجل الناس « أعطوه أو منعوه » .

● أما السحر . .

فإن الاسلام ينكر أى تأثير مادى له ، «وكذب المنجمون ولو صدقوا » . . . « ولا يفلح الساحرون » . . « وما هم بضارين به من أحد إلا بإذن الله » . . « ويتعلمون ما يضرهم ولا ينفعهم ولقد علموا لمن اشتراه ماله فى الآخرة من خلاق ولبئس ماشروا به أنفسهم لو كانوا يعلمون » . . « ولا يفلح الساحر حيث أتى » . .

فالسحر موجود ، وما زال يمارس حتى الآن ، وموقف الاسلام منه يعلمنا أن لا تأثير له علينا ، ولا يستطيع ساحر أن يضرنا إلا بإذن الله . . وهذا جانب رائع للايمان بالقدر ، فان إيماننا أن الضر والنفع من قدرات الله وحده ، يجعلنا لا نخشى أى تهديد من جانب ساحر أو مشعوذ ، وعندما يؤمن الانسان فى المجتمعات التى تؤمن بالسحر بقدر الله هذا تسقط سيطرة السحرة عليه . .

أهذا قدر بليد يدعو للاستسلام ؟!

فالقول بأن الاسلام يؤمن بالسحر ، وأن هذا الايمان سد الطريق على العقلانية اللازمة لقيام الحضارة الحديثة ، هو قول ينضح جهلا . . فلا الاسلام يؤمن بقدرة السحر على شل إرادة الانسان أو تغيير قوانين

الوجود . . ولا فى التاريخ الاسلامى مظهر يعزز هذه الشبهة ، وأكثر من ذلك ما من عاقل يقول بإمكانية وجود حضارات عقلانية وأخرى لا عقلانية . . لأن شرط قيام الحضارة ، بل شرط وجود مجتمع بشرى هو سيادة العقلانية ، ولو دون أن تسمى باسمها . . فلا يمكن أن يبنى الناس جسوراً ويشقوا طرقا وينسجوا ثيابا ، إلا بمنطق عقلانى ، وبتسليم بفعالية القوانين المادية للوجود . .

وإذا قورن الإسلام بأى حضارة سبقته كان حظه هو الأقل من حجم الخرافات والمعجزات . . بل تستطيع أن تكون مسلماً صادقا إذا أنكرت كل المعجزات إلا القرآن والوحى . ولا شك أولئك الذين عرفوا كروية الأرض وقاسوا قطرها ومحيطها واكتشفوا أن الضوء يصل إلى العين فتراه وليس العكس ! . . ثم وضعوا قوانين التطور الاجتماعى . . لا شك أنهم كانوا زهرات حضارة عقلانية من الدرجة الأولى . . وما من كتاب مقدس ترددت فيه كلمة العقل ومشتقاته مثلما جاء فى القرآن . .

وبعـــد . .

فما نجد فى هذا الكتاب حجة اشتراكية ، ولا كشفا جديداً فى الإسلام . . ولكنه يقدم صورة حديثة لآخر محاولات تقديم الإسلام للعقل الغربى . . وحتى لو فرضنا حسن النية فى كاتبه . . فإننا نقول إنه ما زال بعيداً كل البعد عن فهم روعة الإسلام وسر عظمته وخلوده . .

أبو ذر .. والحق المر

حسبك عناء من دراسة أن تبدأها وأنت موقن أنك لن تحيط علما بكل دقائقها . . وتسلم قبل الدرس أن بها من الاسرار ما شاء الله له ألا يعرف ، ومن الايماءات ما يستحيل على عقلنا البشرى فى هذه المرحلة أن يصل إلى ما تومىء إليه . .

وحسبك من شخصية توقن أنها أكبر من أن تحتذى ، ويستحيل على المؤمن بها أن يسلك سبيلا سلكته هى ، وعاشته حقا ، ووعاه التاريخ بكل دقائقه . .

شخصية نادت بأخطر المبادىء ، عاشت هى ما نادت به .. فى ظل قدر صارم لا مرد له ، يرسم خطاها ، ويوجهها فى طريق : « تمشى فيه وحدها ، وتموت وحدها ، وتبعث يوم القيامة وحدها . . »

حسبك من داعية إلى أنبل ماتمنى الانسان ، يعرف أنه لن يتبعه أحد ، وأنه سيأتى يوم القيامة أمة وحده . . على طهره وطهارته ، على صدقه وإخلاصه . . على ما تمنى للناس من خير . . لن يتبعه أحد ، وسيأتى يوم القيامه أمة وحده . .

عاهد خليله على أن يقول الحق مهما يكن مرا . . والحق دائما مر . . ولكنه كان يتخير أمر الحق ، ويختار له أمر الألفاظ والصيغ . . برا بعهده لخليله ، حتى انتهى به الأمر إلى أن يقول فى تفجع : « قول الحق لم يبق لى صديقا . . »

ولكن قول الحق ، جعله حبيب كل الناس ، حتى الذين ضاقوا به ، وبدعوته . . احتفظوا له بمكانة عاليه من الاحترام والتقدير . .

فكلنا نحترم المثل ونتطلع مشدوهين إلى الكمال . . وغالبيتنا تحب المثل والكمال . . ولكن ليس من طبيعة البشر أن يصادقوا الكمال وأن يعايشوه ويرتبطوا به . . فالكمال دائما كالعُقاب يعيش وحيدا فى أعالى القمم ، ولكن الزواحف تتعلم الطيران من تطلعها إلى ذلك الوحيد المنفرد فى أعالى القمم . . فلسنا مطالبين بالوصول إلى القمة . . ولكن بالتطلع إليها تنبت لنا أجنحة، وتخفق قلوبنا وكأننا نطير

اما هو : فيمشى وحده . . ويموت وحده . . ويبعث يوم القيامة أمة وحده . .

عرفنا أبو ذر بنفسه فقال :

« خرجنا من قومنا غفار . . وكانوا يحلون الشهر الحرام . . »

وهى قبيلة كانت تقطع الطريق على القوافل على طريق البحر الأحمر ، وكان أبو ذر نفسه يقطـــع الطريق ، على فرس له أو على قدميه كأنه السبع ، وبعد ما أسلم استمر فى قطع الطريق ، ولكن على قوافل المشركين وقريش .

فقبيلته خارجة على القانون بأوسع معانيه ، لا تعترف بما تواضع عليه كل العرب ، بل تستحل الشهر الحرام ، أى تستحل القتال والقتل فى ذلك الشهر الذى اتفق العرب على وقف القتال فيه ، حتى أن المرء يجد قاتل أبيه ، فى هذا الشهر ، فيكف يده عنه . . مادام قد اعتصم منه بالشهر الحرام . .

وهى قبيلة تقطع الطريق ، وأبو ذر نفسه قاطع طريق . . وقطع الطريق عند العرب فى هذه الفترة بالذات ، له معنى يختلف عما يمكن

أن نفهمه نحن الآن . . بل إن قطع الطـــريق عادة يقترن بنوع من الثورة ، أو إن شئنا الدقة : « الرفض الاجتماعى » . . الاحساس بحق مافيما يمتلـكه الآخرون . . وتفضيل أن يؤخذ هـــذا الحق بالقوة لا بالسؤال .

والصعاليك الذين كان يمثلهم « عروة بن الورد » كانوا يقطعون الطريق ليأخذوا من أموال الأغنياء مايكفيهم ويكفى الفقراء . .

وحق انتزاع القوت مبدأ عريق فى البادية ، ومنذفرون لاحصر لها ، فرض الأعراب ، حق الضيافة . . وأصبح الكرم فضيلة إجبارية ، تأصلت حتى أصبحت غريزة عربية . . فللضيف ثلاثة أيام ، فرضا ، على من نزل عليه . .

والفضائل والرذائل هى فى النهاية قوانين يسنها المجتمع من أجل الحفاظ على وجوده ، وليس بالضرورة أن تكون الفضائل والرذائل أو اقبال الناس على الفضيلة أو الرذيلة متجاوبا ومنطبقا على احتياجات المجتمع . . ولكن المجتمع الذى يعيش ويقوى على مصارعة قوى الفناء ، هو المجتمع الذى ينحت من احتياجاته قوانين الاخلاق . .

والبدوى فى الصحراء ، الذى تتعلق حياته بموقف أول واحة تستقبله بعد رحلة مضنية ، يشرف خلالها على الموت ألف مرة . . فإن كانت اخلاقيات المجتمع هى الشح والبخل وكراهية الضيف ، فسيموت هذا المسافر . . وسيموت أهل الواحة بدورهم . . فى أول رحلة لهم

يضلون فيها الطريق ، أو يخطئون الموازنة بين استعداداتهم واحتياجاتهم . .

أما لو كانت الاخلاقيات تعتبر اكرام الضيف شرفا يعتز به ، حتى ليحرر الرجل عبده إذا ما جاءه بضيف فى الليلة العاصفة الباردة[1] .

ويوقدون النار فى أعالى الجبال يسترشد بها البدو فى الصحراء ، وتهدى إليها ، وبها، القوافل الضالة .. فيجدون الدفء والماء والقوت، حتى ليتهاجون بضآلة نيرانهم [2] . . ويتفاخرون بكثرة غشيان الضيوف[3] . . حتى تصبح بيوتهم كالفنادق !

وإذا كان اكرام الضيف يصبح خلقا نبيلا من جانب المضيف يحرص عليه كواجب مقدس ، فانه يتحول أيضا عند الضيف إلى حق مقدس . . العار كل العار فى أن يحرم منه . . بل له الحق كل الحق فى أن يطالب به ، بل وأن ينتزعه بالقوة . . وكثيراً ما كان البدوى

---

(١) والريح ياغلام ريح صر
ان جلبت ضيفا فأنت حر

(٢) قوم اذا استنبح الأضياف كلبهم
قالوا لأمهم : بولى على النار !

(٣) يغشون حتى ما تهر كلابهم
لا يسألون عن السواد المقبل

يغير فى الجاهلية مطالبا بحق الضيافة ، منتزعا حق القِـرى . .

وفى الاسلام ، شرع الفقهاء ، حق الضيافة ثلاثةأيام إجبارا . .
قال الإمام ابن حزم « الضيافة فرض على البدوى والحضرى ، والفقيه والجاهل ، يوم وليلة ، ميرة واتحاف ، ثم ثلاثة أيام ضيافة . . فإن مُنع الضيافة الواجبة ، فله اخـذها مغالبة ، وكيف أمكـنه ، ويقضى له بذلك . . »

« ومر جماعـــة من الانصار بحى من العرب ، فطلبوا منهم الضيافة . . »

لاحظ انهم هم الذين يطلبون ، ولـكى نتفهمها جيداً تخيل انك تطرق بيتاً فى الزمالك أو الروشة أو أبو رمانة أوالسالمية أو الاعظمية . الخ . . وتعلن لأهله أنك ضيف . . وتطلب حقوق الضيافة !

من المؤكد أن الحديث سينتهى فى مركز الشرطة ، وستجد أن كل القوى والقيم ضدك . .

« ورفض الأعراب أن يستضيفوا الانصار ، فأخذ الانصار حقهم بالقوة ، وتركوا فى مضيفهم إصابات » تستطيع أن تصفها بانها قطع طريق صريح . . وفى قانون العقوبات اسمها سرقة بالاكراه . .

« وجاء القوم إلى سيدنا عمر يشكون مافعله بهم الضيوف »

ولـكن عمر يقول : « تمنعون ابن السبيل ، ما يخلق الله تعالى

فى ضروع الابل بالليل والنهار ؟ . . ابن السبيل أحق بالماء من الثاوى عليه » .

وأقر عمر سلوك الأنصار ، فى انتزاعهم حقهم مما يخلقه الله ، بالقوة الدامية !

تستطيع أن تقف طويلا عند هذا المبدأ الصارم يعلنه عمر .

إن الله يخلق الرزق فى ضروع الابل . .

إذن ليس لأحد أن يمنع ابن السبيل من ملكية الله . .

بل إن ابن السبيل أحق بها من صاحبها ، أو كما عبر « عمر » بدقة نادرة : « الثاوى » أى المقيم عند الماء ، فكأنه أنكر ملكيته تماما . .

ونستطيع أن نستخرج من هذه الواقعة ماشئنا من اشتراكية أو شيوعية او ملكية عامة ، ولكنه استخراج يقوم على التعسف ، مهما بدا لفترة من الوقت أنه يخدم سياسة أو يدعم مبدأ . . غير أنه لا يستقيم مع وجهة النظر الإسلامية .. بينما ينطلق منطق عمر ، من نظرة الإسلام .. نظرة العربى لحق الوجود . . حق الحياة . .

عمر لو سمع أن أحدا انتزع بالقوة درهما من أحد أسواق المدينة ، لقطع يده ، أو صلبه ، باعتباره ممن يسعون فى الأرض فسادا . .

ولكن عمر الذى أعفى العبد من الحد ، وأوشك أن ينزل العقوبة بسيده الذى حرمه . . ورأى أن ظروف المجاعة تدرأ إقامة الحد . . يبيح للأنصار أخذ حقهم بالقوة . .

إن النظرة الإسلامية ترد الأمور إلى عاملين . .

* الأول : هو ملكية الله المطلقة للكون .

* الثانى : هو حق الانسان فى الحياة ، والاستمتاع بهذه الملكية . . كل الناس على السواء . . فكلنا على درجة واحدة من القرابة لله تعالى . . فليس لأحد أن يختص بإرث خاص ، ويحرم الناس مما خلق الله . .

إن ارتباط الملكية بالانسان المالك ، لا وجود له فى التفكير الاسلامى بهذه الحدة ، وهذه الفردية التى نجدها فى العقلية الغربية حتى عندما وصلت إلى الاشتراكية ، فهى قد وصلت لها عبر تقديس الملكية ! .. ماركس أجهد نفسه فى إثبات أن الطيبات ينتجها العمال ، ليبرر حق العمال فى امتلاكها ! . .

بينما يطرح الاسلام القضية فى بساطة ويسر ، وبمنطق يتخطى كل طبقية . .

فالله يخلق ما فى الضروع ليلا ونهارا . . فليس لأحد أن يدعى حق ملكيته . . فالكل عبيد الله . . والله هو المالك .

والأولوية هنا للمحتاج . . ولأن ابن السبيل هو الأكثر احتياجا فهو الأولى والأحق بما فى ضروع الابل . . من الآخر الذى يرعاها ويحتفظ بها . .

هذه هى الخلفية التاريخية عند العرب الذين خاطبهم القرآن : « والذين فى أموالهم حق معلوم . للسائل والمحروم » .

حق معلوم :

إنه شيء يختلف كل الاختلاف عن الصدقة والبر والاحسان والكرم والاريحية . .

حق معلوم :

والحق إن لم تعطه ، فللناس حق أخذه وإجبارك على أداء الحقوق لأهلها .

لهؤلاء يقول القرآن : « خـــذ من أموالهم صدقة تطهرهم وتزكيهم بهـا » . . .

خـــذ . . .

بكل ما بهـا من قوة وإجبار مشروع ، ليس سؤالا ولا منّة . .

خـــذ . .

وبهذا الفهم أحل أبو بكر دماء الذين يشهدون أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله ، ويقيمون الصلاة ، ويمنعون الزكاة . .

وربما كانت بداية انهيار الوحدة الاجتماعية فى المجتمعات الاسلامية هى تصور الزكاة سلوكا اختياريا ، أو مجرد ضريبة تغنى عنها ضريبة الدخول التى تتجاوزها الآن بكثير . .

إن الزكاة غير ذلك . . وفرضها على رأس المال لا على الدخل أو الأرباح ليس اعتباطا . . إنه تناول لذات حق الملكية . . تأكيد لاشتراك المسلمين جميعا فى ملكية ما يخلقه الله ليلا ونهارا . .

فعلوّ حق الحياة على حق الملكية مبدأ من مبادىء الحياة العربية .. وهذا المبدأ يمكننا أن نضع يدنا على الخيط الأول منه فى نسيج تفكير ابى ذر ..

ولنعد إلى قصة إسلامه :

قال :

« فخرجت أنا وأخى أنيس وأمنا . فنزلنا على خال لنا فأكرمنا خالنا وأحسن إلينا ، فحسدنا قومه . فقالوا له إنك إذا خرجت عن أهلك خالف إليهم أنيس » .

أى اتهموا انيسا بعلاقة مامع زوجة خاله . .

« فجاء خالنا . . فتلا علينا الذى قيل له .. فقلت له .. أما مامضى من معروفك فقد كدرته ، ولاجماع لك فيما بعد ، فقربنا صرمتنا (أى الناقة) فاحتملنا عليها ، وتغطى خالنا بثوبه فجعل يبكى . . فانطلقنا حتى نزلنا بحضرة مكة ، فنافر أنيس عن صرمتنا وعن مثلها ، فأتيا الكاهن فحكم لأنيس .. فأتانا بصرمتنا ومثلها معها » .

فهذه الرحلة خرج فيها مع أخيه وأمه ، ونزلوا بخالهم الذى اكرمهم ولكن أباذر ما كان ليغفر له حتى بجرد الشك باخلاقهم ، ولا أن يتعلل

بأن الناس يقولون .. فان مجرد الاستماع إليهم ، ونقل حديثهم .. مرفوض فى صراحة أبى ذر .. فرد عليه كرمه ، وقطع علاقته به بكل وضوح وجلاء .. وتركوه وقد غطى رأسه بثوبه وانخرط فى البكاء ، مدركا بشاعة ما فعل بضيوفه إذ أساء الظن بهم ، ودفعهم إلى ردضيافته ثم القطيعة ..

وما أن وصلا إلى مكة ، حتى يستغفل أنيس رضى الله عنه حضريا ، بعكس ماجرت به العادة من استغفال الحضرى لابن البادية . ! فيراهنه على ناقته ، ويذهب به إلى الكاهن ، وفى رواية أن « أنيسا ظل يمدح الكاهن حتى حكم له » وعاد لأبى ذر و اء أمه النيرب ل الناقة الواحدة التى ذهب بها . !

ويحكى أبو ذر قصة إسلامه :

« صليت يا ابن أخى قبل أن ألقى رسول الله صلى الله عليه وسلم بثلاث سنين . . قلت لمن ؟ (ابن أخيه يسأل . . لمن تصلى وأنت لم تقابل رسول الله ليرشدك إلى الله) قال أبو ذر : لله .. قال فأين توجه . . قال أتوجه حيث يوجهنى ربى ، أصلى عشاء حتى إذا كان من آخر الليل ألقيت كأنى خفاء (الثوب) . . حتى تعلونى الشمس . فقال أنيس : إن لى حاجة بمكة فاكفنى ، ثم ذهب فأبطأ ، فلما عاد ، قلت له ما صنعت ؟ قال لقيته رجلا بمكة على دينك . .

تأمل تعبير شقيق أبى ذر : « رجلا بمكة على دينك » وليس أنه أبا ذر على دين الرجل الذى بمكة . . يقول أبو ذر : « يزعم أن الله

أرسله . . قلت فما يقول الناس ، قال يقولون شاعر . . كاهن . . ساحر . . وكان أنيس أحد الشعراء . . قال أنيس لقد سمعت قول الكهنة فما هو بقولهم . . ولقد وضعت قوله على طرق الشعراء فما وجدته شعرا . . والله إنه لصادق وإنهم لكاذبون . . قال قلت فاكفنى حتى أذهب فأنظر . . . »

وتأمل علاقته بأخيه . . . « اكفنى حتى أذهب » .. واكفنى هنا تعنى فى ظنى تولى أموره أثناء غيابه لأنه فى رحلاته لايتزود إلا بالماء !

فأتيت مكة فاستضعفت رجلا منهم ، فسألته أين هذا الذى تدعونه الصابىء . فأشار إلى وقال الصابىء . . فمال على أهل الوادى بكل مدرة وعظم (أى انها لواعليه ضربا بكل ماوجدوه فى متناول يدهم) فخررت مغشيا على ، قال فارتفعت حين ارتفعت كأنى نُصُب أحمر (أى كأنه النصب الذى يذبحون عليه من كثرة ما به من دماء !) قال فأتيت زمزم فغسلت عنى الدماء ، وشربت من مائها ، فلبثت بها يا ابن أخى ثلاثين ما بين ليلة ويوم مالى طعام إلا ماء زمزم فسمنت حتى تكسرت عكن بطنى وما وجدت على كبدى سخفة الجوع (أى لم يحس بأى أثر للجوع) .

فهذا هو طعام البدوى قاطع الطريق . . فكيف به إذا أسلم ؟

الزهد فيه كان طبعا ، صفاه وزكاه الإسلام ، أوقل إن الرضا بالكفاف فى البادية الفقيرة أصبح بالإسلام زهدا ، والرخاء يتدفق متحديا كل قناعة ، ممتحنا كل زهد .

والمواقف الاجتماعية ، والفلسفية ، والطبقية ، والاقتصادية ، لاتتخذ

بمجرد الارادة فى اتخاذها ، بل هى ثمرة استعداد فطرى فى الإنسان ، وأقواها ما صادف هذه الفطرة واتفق معها ،وأضعفها هو ذلك الذى يفتعل ، ويتكلف على غير استعداد من اخلاقيات معتنقه .

ويكمل أبو ذر :

فبينما أهل مكة فى ليلة قمراء ، لا يطوف بالبيت إلا امرأتان . . تدعوان أسافا ونائلة (وهى صنمان من آلهة العرب فى الوثنية، قيل أنهما كانا لرجل وامرأة ارتكبا الفاحشة فى الكعبة فمسخا حجرين فعبدهما العرب)

والمرأتان مستغرقتان فى العبادة ، ومناجاة الاله والالهة . . بكل جلال المناجاة ، يقتحمهما أبو ذر ، فيفزعهما بأبشع ما يمكن أن تفزع به امرأة . . والمرأة العابدة بالذات . . وفى مكان تعبدها، وخلال مناجاتها وفى صميم عقيدتها ، وبين يدى إلهها شخصيا . .

يقول أبو ذر . . فأتتا على فى طوافهما . . فقلت : «أنكحا احداهما الأخرى ! »

ويبدو أن المرأتين تظاهرتا بعدم السماع لهول ما سمعتا ، فهو أكبر من أن يصدق . . فعادتا مرة أخرى تطوفان حتى وصلتا إليه وهما تناديان أسافا ونائلة ..فقال أبو ذر قولا اشد غلظة ، لا يمكن لكاتب معاصر أن يذكر ألفاظه ، ولا يترك لسامعه أو سامعته مخرجا للتأويل أو ادعاء شبهة فى الفهم أو مجالا للاعتذار عن قصد قائله ..

« فانطلقتا تولولان وتقولان : لو كان ههنا أحد من أنفارنا .. فاستقبلهما رسول الله وأبو بكر وهما هابطتان ، قال مالكما ؟ .. قالتا

الصابىء بين الكعبة وأستارها . قال : ماقال لكما؟ . . قالتا إنه قال لنا كلمة تملأ الفم ..

وجاء رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى استلم الحجر وطاف بالبيت هو وصاحبه ، ثم صلى ، فلما قضى صلاته ، قال أبو ذر فكنت أول من حياه بتحية الإسلام ، قال فقلت : السلام عليك يارسول الله .. فقال وعليك ورحمة الله .. ثم قال من أنت : قال قلت من غفار . . . »

وهنا واقعة لا أظنها قد فسرت حتى الآن — فى حدود علمى — واست بالذى يزعم أنى سآتى بما لم تعرفه الأوائل ! .. ولا أدرى هل استوقفت أحدا بغير ما أوحت به عبارة أبى ذر وهو يحاول أن يفسر رد فعل « غفار » من جانب الرسول ..

يقول أبو ذر أنه لما عرف الرسول بنفسه : « أهوى الرسول بيده فوضع إصبعه على جبهته » أو « فاهوى بيده إلى جبهته هكذا .. »

وهى حركة يأتيها الإنسان عندما يتذكر أمرا ، أو بمعنى أصح عندما يذكر بأمر ، أو يدهش بأمر كان عنده منه خبر .. وربما يعجب كيف فاته هذا الأمر وكان الأحرى به أن يذكره ، دهشا من وقوع ما كان يعرف أنه سيقع ..

أبو ذر يقول « فقلت فى نفسى : كره أن انتميت إلى غفار ، فذهبت آخذ بيده ، فقدعنى صاحبه (أى ردنى أبو بكر) وكان أعلم به منى ، ثم رفع رأسه ، ثم قال متى كنت ههنا ؟ قلت قد كنت هنا منذ

خمس عشرة ، قال فمن كان يطعمك ؟ قال قلت ما كان لى طعام إلا ماء زمزم فسمنت حتى تكسرت عكن بطنى ما أجد على كبدى سخفة جوع . قال إنها مباركة ، إنها طعام طعم » .

ما الذى أدهش رسول الله ؟

أهو إيمان رجل من غفار ؟

لا . . رسول الله يعلم أنه جاء للناس كافة . . وبعد أن تحادث معه أرسله إلى قومه يدعوهم للاسلام ، وما كان قوم أسرع من إسلام غفار ، أسلم نصفهم ، وأجل نصفهم الآخر إعلان اسلامه حتى يصل النبي إلى يثرب (المدينة) . .

فاسلام غفار كان يسرا لا غرابة فيه ولا عجب . . ورسول الله كان الأحرى به أن يدهش — إن كان ثمة دهشة — من هذا الذى آمن قبل أن يرى النبي . . بل من الذى يحييه بقوله السلام عليك يارسول الله ، حتى قبل أن يدعوه النبي للاسلام . . ولعله الصحابى الوحيد الذى سعى إلى الاسلام وما سعى مسلم إليه به فى ذلك الحين . . وهو كان خامس رجل ، كما تقول الروايات .

شىء آخر غير غفار وأخلاقها هو الذى جعل النبي يضرب جبهته بيده ثم يستمر فى هذا الوضع فترة من الوقت استغرقت محاولة أبى ذر التدخل ، بأن يرفع يد النبي ويشرح له الأمر ، ونهى أبى بكر له . . ثم لاحظ قول أبى ذر « وكان أعلم به منى » أى أن أبا بكر فهم شيئاً غير

الذى فهمته أنا (أبو ذر) وعرف أن هذه الاستغراقة لغير ما توهم أبو ذر . . وأنه ما من شرح يقدمه يبددها أو يزيل مسبباتها(١) .

ولو كان الأمر ما ظنه أبو ذر لكان ثمة تعليق من رسول الله على غفار . . ولكان كما عرفنا من خلق رسول الله وهديه صلوات الله عليه ثمة حمد وشكر لله تعالى أن هدى غفاراً .

ولكن الحديث اتجه بعيداً عن غفار . . ولم يعد إليها إلا فى نهاية اللقاء عندما بعثه رسول الله إلى غفار داعيا للاسلام ، وأمره بالبقاء هناك وعدم الحضور حتى ينتشر الاسلام ويهاجر النبى . . بل إن أبا ذر لم يعد للنبى بعدها إلا بعد أن اجتاز الاسلام مرحلته الحرجة (بعد غزوة الخندق) .

ونلاحظ فى الحديث أن رسول الله لم يعلق بشىء ولا قدم تفسيراً لحركته هذه ، ولا سأله أبو ذر . . ولا ندرى أفهم من استغراق الرسول ، ونهى أبى بكر له عن التدخل ، أنه موقف ليس له أن يسأل عنه ، أم صرف عن بإرادة من يصرف القلوب كيف شاء ؟ ! وبإرادته نتساءل نحن اليوم . . ما الذى أثار عجب رسول الله ؟

سؤال لست أزعم أن أحداً يملك أن يجيب عليه . . ولكن تفاصيل

---

(١) لاحظ أيضاً الأسلوب الذى لجأ إليه أبو ذر فى توضيح موقفه ، فهو لا يحاول شرح موقفه بلسانه بل « ذهبت لآخذ بيده » ! !

الحديث توحى أن نبأ من السماء كان عند رسول الله عن ذلك القادم من غفار . .

ما هـــو ؟

الله ورسوله أعلم . .

وتفسير أستاذنا « البهى الخولى » لحركة النبى صلى الله عليه وسلم : « مستعظما أن يأتى من تلك القبيلة من يرغب فى الإسلام وهو ما يزال يدعو إليه سرا . . . » .

وذلك استنتاجا من ظن أبى ذر : « فقلت فى نفسى كره أن انتميت إلى غفار » .

ولكنه استنتاج غير مقنع ، بنى على ظن حدثت به أبا ذر نفسه ، ولم يقم الدليل على صحته . .

فالنبى لم يكره أن ينتمى أبو ذر لغفار ، بل أرسله إليها ، وسرعان ما أسلمت غفار ودعا النبى لغفار (غفار غفر الله لها) . . ثم إنه لا صلة واضحة بين التفسير وما دار بخلد أبى ذر ، فهو لم يقل : دهش النبى لأنى سمعت بالإسلام . والدهشة هنا يفترض فيها أن تمتزج بالسرور والرضا . . فهذا اللون من الدهشة لم يرد فى ظن أبى ذر ولا استشفه . . وإلا لابتهج بسرور رسول الله . . ولما حاول أن يأخذ بيده لينهى سروره ! .

والرسول لو دهش ، واستعظم إسلام غفار على بعدها ، وبداية

العهد بالإسلام ، لكان أول قوله : «الحمدالله» أو سبحان الله ، أو ماشاء الله له أن يبدى من علامات الرضا . . وما فى سلوك النفس أن يضرب الإنسان جبهته بيده ، ثم يطرق برهة إذا لمس صدق ماوعده الله ، وأتاه دليل انتشار الدعوة ومسارعة القاصى إليها . . فهو موقف تهليل لا استغراق وتأمل !

قد يقال أن رسول الله أشفق أن يذيع أمر الإسلام قبل أن تتهيأ ظروف الجاهرة وما يحيط بها من مكاره وصعاب . . ويعزز هذا التفسير أمره لأبى ذر بأن يذهب ولا يعود حتى ينتشر الاسلام . . ولكن يعترض على هذا التفسير بأن رسول الله كلفه أن يدعو غفاراً للاسلام ، ولو كان هذا التفسير صحيحاً ، لكان الأحرى أن يأمره بكتمان اسلامه حتى يأذن له . . لأن معنى تكليفه بدعوة غفار للاسلام أن تسلم قبيلة بأكملها على طريق القـــوافل فتشيع الأمر أضعاف ما يستطيع أبو ذر أن يفعل وحده ، فرسول الله دعاه إلى المجاهرة بالاسلام والدعوة له . . ولم يعلق رسول الله ولاسأله كيف علمت بالاسلام ، فاللقاء كان فى مكة ، ومكة كلها كانت تتحدث عن الاسلام حتى أن أخا أبى ذرعاد بنبأ الرجل الذى هو على دين أبى ذر . ! وحتى أن المرأتين لما سمعتا قدحه فى الأوثان عرفتا فوراً أنه الصابىء . . وحتى أن المستضعف ما إن سأله أبو ذر عن رسول الله فى المدينة حتى صاح هذا هو الصابىء ، وسارع الناس الذين كانوا على علم سابق بمن هو الصابىء وما يدعو إليه ، وكانوا قد اتخذوا موقفاً بالفعل منه ،

ومن دعوته ، وممن ينتمى إليه ، عبروا عنه فى شكل الأحجار والعظام وكل ماتناولته أيديهم . .

فالإسلام ليس سرا . . وإسلام أبى ذر فى مكة لايعنى بالحتمية أنه عرف فى غفار . . ومعرفة غفار به ليست مستحيلة ولامدهشة إلى حد أن يضرب الرسول جبهته بيده ، ويتوجس أبو ذر ، ويفهم أبو بكر، ويقدر رهبة اللحظة ومعنى استغراق الرسول ، ويوشك أبو ذر أن يحتج وأن يفسر بطريقته ، فيكفه أبو بكر ، ويدرك أبو ذر أن الأمر غير ما يظن . . وأن أبا بكر يعرفه ، « لأنه كان أعلم بصاحبه » .

كل ذلك يجعلنا نقول — طامعين فى أجر المجتهد المخطىء — أن ذلك اللقاء ما كان أول علم رسول الله صلى الله عليه وسلم بأمر القادم من غفار . . أو أن اللحظة لم يستغرقها ذلك اللقاء بل لعلها تفتحت عن رؤى تخطت الزمان والمكان ، . . .

الله ورسوله أعلم . .

ثم ذهب مع رسول الله إلى منزل أبى بكر حيث أكل من زبيب الطائف .

قال : « وكان ذلك أول طعام أكلته بها (بعد ١٥ يوما من وصوله !) ثم غبرت ما غبرت ، ثم أتيت رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : أنه قد وجهت لى أرض ذات نخل ، ولا أراها إلا يثرب ، فهل أنت مبلغ عنى قومك عسى الله أن ينفعهم بك ويأجرك فيها . . » .

ويقول ابن الأثير : أنه بايع رسول الله فى هذا اللقاء على ألا يخشى فى الله لومة لائم ، وأن يقول الحق مهما كان مرا . . »

وسنرى أن ابا ذر قد وفى لهذه البيعة أشد ما يكون الوفاء ، فما كان يخشى فى الله لومة لائم . . وكان يقول الحق مرا ، بل كأمر مايكون الحق ويكون قوله ..

يقول : « فأتيت أنيسا (اخاه) فقال ماصنعت ؟ قلت : صنعت أنى قد أسلمت وصدقت . . قال : مابى رغبة عن دينك . فإنى قدأسلمت وصدقت ، فأتينا أمنا فقالت : مابى رغبة عن دينكما ، فإنى قد أسلمت وصدقت ، فسافرنا حتى أتينا قومنا غفارا فأسلم نصفهم وكان يؤمهم ابن رحضة الغفارى وكان سيدهم . . . »

لاحظ أن أباذر هو الذى حمل الإسلام إلى قومه ، ودخلوا الإسلام بدعوته . . ثم هو لا يؤمهم فى صلاتهم . . وتذكر كيف أن رسول الله رفض أن يوليه إمارة . . فالرجل ما كان قد هيء لقيادة . . والاما فاته أن يؤم مسلمين دخلوا الإسلام على يديه . .

تنتهى قصة اللقاء الأول بين رسول الله وأبى ذر . . وهو لقاء يكشف لنا عن خطوط ما يمكن أن نسميه الخلفية الخلقية والنفسية لشخصية أبى ذر ..

- فهو قاطع طريق من قبيلة تستحل الشهر الحرام .
- وهو يصلى لله قبل أن يسمع بالإسلام .
- فان سمع به شد الرحال إليه مؤمنا .

- وهو عنيف فى رفضه للأوثان .. غليظ فى نقده لها .
- ثم هو لايعيش إلا على الماء ١٥ يوما .
- ثم ذلك اللقاء العجيب .. وإطراقة رسول الله .
- فاذا أسلم بعثه رسول الله إلى قومة ودعاه ألا يعود حتى ينتشر الإسلام .

ثم لانسمع عنه شيئا ، والإسلام يمضى من مكة إلى المدينة .. ويحارب الرسول وينتصر فى بدر ، ثم يهزم فى أحد وينال منه المشركون، ثم ما بين أحد والخندق من غزوات وأزمات وانتصارات .. فغزوة الخندق حيث يؤتى المسلمين من بين ايديهم ومن خلفهم ، ومن فوقهم ومن تحتهم .. ثم ينصرهم من هزم الأحزاب وحده ..

ويعلن الرسول تحول الإسلام من الدفاع إلى الهجوم : « لاتغزوكم قريش بعدها .. بل أنتم تغزونها » .

ويعود أبو ذر لينظر من جديد فى مجتمع المدينة .. ويكون اللقاء الثانى ، ولايخلو من نادرة .. فانه لما جاء إلى رسول الله .. تأمله الرسول وقال « أنت أبو نمل » .. والنمل والذر مترادفان فى العربية، قال: أبو ذر يارسول الله ! ..

كيف كانت صحبة أبى ذر برسول الله فى مجتمع المدينة ، حيث كان يجرى إعداد المسلمين لبناء دولة الإسلام .. وحيث كان رسول الله خير من يعرف معادن الرجال ، وأقدر خلق الله على أن يكلف الرجل مايطيق ..

كان لأبى ذر مكانة خاصة عند رسول الله ، عبر عنها أبو ذر بعد بذلك اللقب الذى كان يتحدث به عن الرسول لايختار غيره .

« خليلى » . . .

وكان رسول الله يبتدىء أبا ذر إذا حضر، ويفتقده إذا غاب . . »

وقد روى هـــذا أبو الدرداء الذى اصطدم به أبو ذر كأعنف مايكون الصدام كما سنرى . .

ويوم غزوة مؤتة عندما ظن المسلمون أن أبا ذر قد تخلف . . ثم جاء يمشى وحده قال له رسول الله أجمل قول يسمعه جندى من قائده ومسلم من نبيه : إن كنت لمن أعز أهلى على تخلفا . . فصلوات الله عليه يعتبره من أهله . . بل وأعز أهله عليه تخلفا . .

« وقال رسول الله من يلقانى على الحال التى أفارقه عليها . . قال أبو ذر : أنا يا رسول الله . . فقال عليه الصلاة والسلام . . «صدقت» ثم التفت إلى أصحابه فقال: ماأظلت الخضراء ، ولا أقلت الغبراء من ذى لهجة أصدق ولا أوفى من أبى ذر . . من سره أن ينظر إلى زهد عيسى ابن مريم فلينظر إلى أبى ذر » واختيار رسول الله التشبيه بعيسى بن مريم له دلالته . . فإن زهد عيسى بن مريم ، كان زهدا فى الدنيا وما فيها ، زهد من لم يترك تشريعا ولا نصا واحدا يمكن أن ينسب لشئون الحكم والاقتصاد والمال .

فزهد أبى ذر ، هو زهد الصادف عن الدنيا ، لا المتصدى لها ، المتحمل لمسئولياتها ، القادر على أن يخوض عبابها ، بما فيه من حق ،

ومافيه من باطل، ثم ينجو لاله ولا عليه .. كما كان يتمنى عمر بن الخطاب إمام الزاهدين العاملين ..

وأبو ذر قد تعاهد مع رسول الله على أن يلقاه على الحالة التي يفارقه عليها .. وكان شديد الاصرار على تنفيذ عهده هذا ، شديد الرضا عن نفسه إذا وفى بعهده هذا .. « أنا أقربكم مجلسا من رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم القيامة .. وذلك أنى سمعته يقول : « إن أقربكم منى مجلسا من خرج من الدنيا كهيئته يوم تركته فيها .. وإنه والله ما منكم من أحد الا وقد تشبث بشيء منها غيرى »

فهو قد اختط لنفسه خطة تمكنه من تنفيذ ما ارتبط به ، وتحقق له ما وعد به : أن يكون أقرب الناس إلى الكمال .

ورسول الله قد اختاره لهذا الدور وأعده له .. دور « المثال » الذى ينبه ويوقظ آمال المحرومين .. ويروع جبروت المالكين .. صوت يقول الحق .. حتى ولو كان الحق غير ممكن .. فإن الدنيا تستحيل إلى ظلمات خانقة ، وتنحدر إلى الهاوية ، وتفقد صبغتها الإنسانية ، إذا ما اختفى حتى صوت الحق ..

طلب أبو ذر من رسول الله أن يوصيه فقال : « حب المساكين وجالسهم »

قال أوصنى قال : « لاتخف فى الله لومة لائم، وقل الحق ولو كان مرا »

وقال : « إن خليلى عهد إلى أن أى مال: ذهب أو فضة، أوكى عليه (ادخر أو احتجز) فهو جمر على صاحبه حتى يفرغه فى سبيل الله »

قال : « إن خليلي عهد إلى أن دون جسر جهنم طريقا ذا دحض (له مزالق تزل عليها القدم) ومزلة، وأنا أن نأتي عليه وفي أحمالنا اقتدار أحرى أن ننجو من أن نأتي عليه ونحن مواقير »

وقد التزم أبو ذر حرفيا بما عهد إليه خليله .. كان يرفض أن يبقى في بيته درهما من فضة أو ذهب ، بل كان يلجأ في ما يحتفظ به من مال لقوت عياله إلى أسلوب غريب ، إذ يستبدل له بفلوس من نحاس ورصاص ! وهي كثيرة العدد ، ثقيلة الوزن ، بل لعلها أثقل على حاملها في مزالق جسر جهنم يوم القيامة من الذهب والفضة .. بل وأدعى للريبة فقد استغلها بعض خصومه في الشام عند بعث عثمان في طلبه بناء على شكوى معاوية والى الشام، فخرج يحمل كيسا من النقود يثقل على الرجل حمله ..

فقال الخصوم : أنظروا إلى الذي يدعونا للزهد وهو يحمل اكداسا من المال ، فقالت زوجته : إن هي الا فلوس من نحاس .

ولكنه لم يكن بالشكلي الذي يقف عند حد استرضاء النص[1] بدورانه حوله .. لا ، فالحكمة التي آمن بها وخلدها بسلوكه واضحة .. لأن اكتناز الأموال أو تجمع رأس المال وتكدس الثروات ، لا يمكن أن يتحقق بهذا النوع من العملة ، فابنته كانت تذهب لتشترى الطعام وهي تحمل الثمن في « قفة » ولعل الذين يذكرون الخردة القديمة، وكبر حجمها يدركون كم كانت تحمل ابنته إذا ذهبت للسوق .. بل وكان الباعة يردونها

---

(١) بعضهم الآن يلبس دبلة من الماس ليجتنب تحريم الذهب ! كأن ابا ذر كان بوسعه أن يستبدل الذهب والفضة باللؤلؤ مثلا ! .

ويرفضون أخذ هذه (الفلوس) منها زاعمين أنها بهرجة . . وأظن أنه رغبة عن ثقلها ومئونة حفظها . . وصعوبة عدها . .

فتجميع الثروات لايكون إلا بالذهب والفضة . . واكتناز الثروة فى شكل نحاس أو رصاص يفضح صاحبه ويثير الشبهة حوله . . ولعل الذين يدرسون الدور الذى لعبه المعدنان (الذهب والفضة) فى تكوين الرأسمالية الحديثة ، يتمنون لو أن دعوة أبى ذر سادت الدنيا . . بل إن دولا كثيرة قد نحت منحى أبى ذر فألغت أوراق النقد ذات الفئة الكبيرة حتى لايسهل الاكتناز وتهريب الثروات . .

وكما التزم بأن يلقى الرسول كما تركه ، التزم بأن يقول الحق مهما يكن مرا . .

والأصل فى الحق أنه مر . . ولكن أبا ذر كان يتخير أمره . . وهو الذى اقترح على امرأتين عابدتين أن تزوجا إلهما إلهتهما ، فما كان يتخير الألفاظ .

تأمل لقاءه القاسى لأبى موسى الأشعرى .. وأبو موسى صحابى جليل ، يقبل على أبى ذر فيعانقه فى محبة الرواد وتشوق بعضهم لبعض قائلا : (أهلا بأخى) فيدفعه أبو ذر فى عنف وغلظة قائلا : (ابعد عنى ! لست بأخى منذ توليت) .

فهو يرى أن تولى السلطة يقطع الأخوة ، وأن تولى السلطة فساد.. وهى نظرية قالها بعده بأكثر من ألف سنة ستيوارت مل . (كل سلطة فساد ، والسلطة المطلقة فساد مطلق) .

فهل كان أبو ذر يدين كل من « تولى » .. وكل كبار الصحابة تولوا . . ؟! .. إن سلوكه يكشف عن صدوف ونفور من السلطة .. فهو قد هاجر من المدينة منذ وفاة أبي بكر وأقام بالشام ، ولا نعلم له مواقف مع عمر . . ثم لا يعود إلى مسرح الأحداث إلا مع تغير الدنيا وشوق المحرومين إلى كلمة الحق المر ..

وتأمل موقفه من « أبي الدرداء » فقدم عليه أبو ذر فوجده يبنى بيتا له ، فقرعه قائلا : « حملت الآجُرَّة على أعناق الرجال ؟! » .

وكل من بنى بيتاً أو حتى كوخا . . لابد أن بعض الرجال قد حملوا الآجر له . . ولكن الطريقة التي يعرض بها أبو ذر القضية تثير أبعاداً لاحد لها .. وتدين كل من استخدم الرجال منذ أن حمل « خوفو » الآجر على أعناق الرجال لبناء الهرم ، إلى بيت أبي الدرداء المتواضع ..

يقول أبو الدرداء : « إنما هو بيت أبنيه » . . فيعود أبو ذر فيكرر سؤاله التقريعي ، وكأنه يخاطب الجنس البشرى كله : « حملت الآجر على أعناق الرجال » ؟! .

ويحتد أبو الدرداء ويقول : « لعلك وجدت فى نفسك على من ذلك ؟ . . وكأنما استفز حاسة الحق المر فى أبي ذر . . فإنه به يرد عليه رداً جافيا عاريا لا يتخير له ألفاظاً فيقول له : « لو أنى وجدتك فى عذرة أهلك ، كان أحب إلى مما رأيتك فيه » .

و «عذرة» كلمة معناها أوساخ وأقذار القوم. .وأبو الدرداء صحابى جليل شهد من المواقع مالم يشهد أبو ذر ، بل ومشهود له بالزهد، فقد قيل فيه أنه كان يدفع الدنيا عنه بالراحتين والصدر ، وله فى الجنة قصر لم ترعين مثله ، ولم تسمع به أذن . . ولم يخطر على قلب بشر .. ولكن .. لأنه يبنى بيتاً له ، يستحق من أبى ذر هذا التعنيف القاسى الموجع . .

ولا ينبغى أن نتوهم موقفاً طبقياً فى هذا الحوار ، أو نتصور «أبا الدرداء» يمثل الأغنياء أو المالكين ، «وأباذر» يمثل المحرومين أو العمل المأجور . .

لا .. «أبو الدرداء» بدوره لايتورع عن الثورة والغضب والتقريع إن رأى بذخاً أو ترفاً فى غير موضعه . . فقد ذهب إلى عرس «سالم بن عبد الله بن عمر بن الخطاب» فلما دخل وجدهم قد غطوا الجدران بقماش أخضر (فرش القرح أو مايشبه الصيوان) فغضب أبو الدرداء ، وقال لعبد الله بن عمر : ماهذا يا ابن عمر . . أتسترون الجدار ؟ ! فاستحيا عبد الله بن عمر وقال فى خجل ، «غلبنا عليه النساء .. » وتلك كانت نقطة الضعف فى ابن عمر ، رقته وضعفه مع النساء ، حتى لقد كانت هى حجة عمر فى عدم جدارة عبد الله بالخلافة . .

ورد أبو الدرداء : «لم أكن أخشى عليك أن تغلبك النساء . .والله لا أكلت لك طعاماً ، وخرج . .

وأبو الدرداء هنا يتبع وصية رسول الله عندما رأى عائشة زينت

بيتها بقماش وضعته على الجدران ، فلما رآه عليه الصلاة والسلام جذبه حتى هتكه وقال : « ياعائشة ، إن الله تعالى لم يأمرنا فيما رزقنا أن نكسو الحجارة والطين » .

من أسهل التفاسير أن نصفَّ الصحابة ، كما يصف الجنود ، فنزعم أن عبد الله بن عمر رضى الله عنه يقف فى أقصى اليمين .. فهو يرى تغطية الجدران ، وعلى يساره يقف أبو الدرداء يرفض أن تكسى الجدران ، وعلى يسار اليسار يرفض أبو ذر أن تقوم الجدران أصلا !..

ولكن لنؤجل حديث اليمين واليسار هذا حتى تستكمل بعض ملامح أسلوب أبى ذر .. وحدّته وجفاءه حتى فى مجاملاته ..

لما نزل « أبو ذر » الربذة ، أقيمت الصلاة ، وعليها رجل يلى الصدقة ، فقال تقدم يا أبا ذر فصل بنا . فقال أبو ذر : لا ، تقدم أنت ، فإن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لى : « اسمع وأطع ، وإن كان عليك عبد مجدع ، فأنت عبد ولست بأجدع ! » .

وكان الرجل عبداً أسود اسمه مجاشع من رقيق الصدقة .

تخيل رجلا فاضلا تقول له . تفضل سيادتك .. فيقول لك : لا ، تفضل أنت . . والله لو أحقر منك لتركته يتقدمنى ! .

لاشك أن صاحبنا قد ساءه هذا التكريم أكثر مما شرفه !

وحتى يسقط فى يد اليسار . فإن أبا ذر عندما احتضنه أبو هريرة وقال له : مرحبا بأخى . سأله أبو ذر : هل تطاولت فى البنيان ؟ قال

أبو هريرة .. لا . . قال أبو ذر : أنت أخى . . أنت أخى . »
وأبو هريرة غير أثير عند اليسار . !

وكان رأى أبى ذر فى الجنس البشرى : « هل ترى الناس ما أكثرهم! ما فيهم خير إلا تقى أو تائب . . . . » .

عاهد خليله على أن يقول الحق مهما يكن مرآ . . وأن لا يخشى فى الله لومة لائم . وشهد له على بن أبى طالب ، خير من شهد : « لم يبق اليوم أحد لا يبالى فى الله لومة لائم غير أبى ذر . . ولا نفسى . . وأشار إلى صدره » .

ومن ذا الذى يضع أبا ذر على يسار على ؟ . . قد كان أبو ذر يقبض راتبه ويحوله إلى فلوس من نحاس ورصاص . . حتى لا يكنز الذهب والفضة . . أما على رضوان الله عليه ، فكان يلجأ إلى أسلوب أحسم ، كان يفرق كل ما فى بيت المال من أموال ، ثم يأمر به أن يكنس ويرش ! يحب ذلك ويكرره دائما ! . . أو كما نقول اليوم — يجعل بيت المال انظف من الصينى بعد غسيله . . فلا شبهة اكتناز بعد أن تكنس الخزانة العامة وترش !

ولكن عليا رضى الله عنه عند سأل : من قتل عثمان ، فارتفع مائة ألف سيف تقول كلنا قتلناه . . رأى أن يؤجل التحقيق ، حتى يستقيم أمر المسلمين وتجتمع كلمتهم . .

وعلى لم ير تحريم تولى الوظائف العامة ، بل قبل الخلافة وقاتل عليها وقتل وهو يتولاها . . بينما لما أدركت الوفاة أبا ذر ، وهو فى

الربذة ، وحيداً . . مصداقا لقول رسول الله . . بكت امرأته ، فقال ما يبكيك ؟ قالت لابد من تكفينك وليس عندى ثوب يسع لك كفنا . . فقال لاتبكى فإنى سمعت رسول الله يقول ذات يوم وأناعنده فى نفر . . ليموتن رجل منكم بفلاة من الأرض تشهده عصابة من المؤمنين ، فكل من كان معى فى ذلك المجلس مات فى جماعة وقرية ، ولم يبق غيرى . وقد أصبحت بالفلاة أموت ، فراقبى الطريق فإنك سوف ترين ما أقول لك . . قالت : وأنى ذلك وقد انقطع الحج! قال: راقبى الطريق فإنى والله ما كذبت ولا كذبت ، فبينما هى كذلك . إذا هى بقوم تخب بهم رواحلهم كأنهم الرخم ، فأقبل القوم حتى وقفوا عليها . . فقالوا : مالك ! فقالت : امرؤ من المسلمين تكفنونه وتؤجرون فيه . . قالوا من هو ؟ قالت أبو ذر . قالت ففدوه بآبائهم وأمهاتهم (أى قال كل منهم فداه أبى وأمى) هم وضعوا سياطهم فى نحورهم يبتدرونه . . فقال ابشروا فأنتم النفر الذين قال فيكم رسول الله . . ثم قال أصبحت اليوم حيث ترون ، ولو أن لى ثوبا من ثيابى يسعنى لم أكفن إلا فيه ، فأنشدكم بالله لايكفننى رجل كان أميراً أو عريفاً أو بريداً ! فكل القوم نال من ذلك شيئاً إلا فتى من الانصار . . كان مع القوم ، قال أنا صاحبه . . الثوبان فى عيبتى (الخرج أو الحقيبة) من غزل أمى . . وأحد ثوبى هذين اللذين على . . قال : فأنت صاحبى فكفنى . . . » .

وهكذا صدقت نبوءة رسول الله ، ومات وحده فى الفلاة . . وصدقت نبوءة رسول الله وكفنته عصبة من المؤمنين ، ولو أن أبا ذر

قد صدمهم وروعهم ، إذ اتهمهم جميعاً فى ذمتهم المالية ، ورفض أن يكفن فى ثوب اشتراه رجل من إمارة تولاها ، أو عرافة ، أو بريد كان يتولى نقله . . لأن هؤلاء جميعاً تحوطهم شبهة الاختلاس ! ويدخل ما لهم الشك والظن . . وهم الذين فدوه بآبائهم وأمهاتهم . . ولكنه لم يكن بالذى يغادر الدنيا إلا وآخر كلماته « الحق المر » .

ومات وقد أعلن رأيه فى السلطة .. كل السلطة .. كل المناصب مفسدة .. كل الأموال تغرى بالباطل ، وكل من تولى وتحكم فى الأموال متهم .. ألا يقوم قانون من أين لك هذا على نفس الفلسفة ! بل ألم تكن هذه ـ إلى حدما ـ فكرة عمر .. عندما كان يرسل مندوب الخزانة العامة يقاسم الولاة ثروتهم .

إن «عمر» رجل الدولة المسئول ، كان يعين الولاة ويعلم أنه يستعين ببشر عرضة للاغراء والانحراف ، ويجعل من نفسه مثلا خالداً للحاكم الذى تتطلع إليه البشرية فى تشوقها للعدل والنزاهة .. ثم يفرض رقابته الصارمة على الولاة ليصل بالحكم إلى أقصى ما يمكن من مطابقة الواقع للمثل ..

ولكن تبقى صيحة أبى ذر ضرورية لفضح السلطة وتنبيه المحكومين . . وإدانة استغلال النفوذ . . إنه إصبع اتهام موجهة بصفة دائمة لكل من يتولى وظيفة عامة ..

وبغير سلطة الاتهام .. لا يسود القانون ، ولا يقوم العدل .. ولا يرتدع الذين فى قلوبهم مرض . . فإن شئت فقل إن أبا ذر كان

المدعى العام ضد الأغنياء .. والسلطة ..

وقصة حديث « يمشى وحده ، ويموت وحده ، ويبعث يوم القيامة أمة وحده » :

أن أبا ذر تخلف فى غزوة مؤتة ، لأن ناقته كانت عاجزة ، فنزل عنها وحمل متاعه على ظهره ، وما كان يحمل الكثير ، فقد عرفناه لا يتزود فى رحلاته إلا بالماء ! ورأينا كيف ظل فى مكة ١٥ يوما و ١٥ ليلة لا يتزود إلا بماء زمزم فإذا به يسمن حتى تتكسر عكن بطنه .. وإذا به لا يجد سخفة الجوع على كبده ..

ورأى معسكر المسلمين شبح رجل يسعى عن بعد . فقالوا : رجل يمشى وحده يارسول الله ..

فتمنى رسول الله أن يكون ذلك القادم هو أبا ذر لحب رسول الله، وحبه ألا يتخلف أبو ذر عن شرف الجهاد .. قال رسول الله : « كن أبا ذر » !

فلما اقترب بشر المسلمون النبي .. « هو والله أبو ذر » فقال النبي قولته الصادقة :

« يمشى وحده .. ويموت وحده .. ويبعث يوم القيامة أمة وحده » .

وقد رأينا أبا ذر يمشى وحده ساعيا إلى الجيش فى ظروف قاسية ورأينا كيف صدقت نبوءة رسول الله .. ومات أبو ذر وحده فى الفلاة .. وكفنته العصبة المؤمنة ..

ولاريب فى صدق نبوءة رسول الله : « وسيبعث يوم القيامة أمة وحده » .

كيف .. ولماذا ؟

أمة المرء فى قاموسنا الدينى ،هم الذين يتبعون دعوته.. ومعنى الحديث أن أبا ذر سيكون وحده يوم القيامة ، فلن يتبع دعوته أحد . . فما هى الأدلة التى يطرحها التاريخ ، والتى تعيننا على فهم هذه النبوءة الصادقة ؟

هل كان أبو ذر يمثل حركة أو تيارا أو يعكس مطالب اجتماعية مطروحة للتطبيق ؟ أو هل يصح أن نقول أنه اليسار الإسلامى ، إلى غير ذلك من التشبيهات والتعبيرات التى أطلقت فى السنوات الاخيرة ؟

قبل أن نناقش هذه القضية يحسن بنا أن نستكمل صورة أبى ذر مع الرسول ..

فقد كان رسول الله يعلم مستقبل أبى ذر كأن يراه أمامه مرسوما..

أراد مرة أن يخرج فى رحلة مخوفة غير مأمونة العواقب فنصحه رسول الله ألا يخرج . . ويلح أبو ذر فى طلب الاذن بالخروج فيحذره رسول الله قائلا : لكأنى بك قد قتل ابنك، وأخذت امرأتك ،وجئت تتوكأ على عصاك ! .

ورغم ذلك يخرج بزوجته وولده ، ويعود متوكئا على عصاه قد قتل ابنه وأسرت زوجته !

والمتتبع لصحبته مع الرسول يجد كأنه عليه الصلاة والسلام يحرص على أن يبقيه فى الاطار الذى يسر له (كلٌّ ميسَّر لما خلق له) .. دور

النذير الصادع بقول الحق المر .. ولكن رسول الله يبعده عن مراكز السلطة ، بل ويبعده عن المجتمع الجديد فى المدينة ، ويعرف تناقضه معه حتى قبل أن يقوم هذا المجتمع بصورته الجديدة بعد أن تدفق الثراء وامتحن المسلمون بالسراء بعد أن صبروا على امتحان الضراء ..

طلب أبو ذر من رسول الله أن يوليه الإمارة على إحدى الجهات، فرفض الرسول قائلا : « يا أباذر إنك ضعيف .. وإنها أمانة . . وإنها يوم القيامة خزى وندامة . . إلا من أخذها بحقها ، وأدى الذى عليه فيها .. إنى أحب لك ما أحب لنفسى ، لاتأمرون على اثنين ، ولا تولين مال اليتيم »

ماذا تعنى «ضعيف» هنا .. وقد رأينا شدته وجرأته ، بل هو وحده الذى بايع على أن يقول الحق مهما يكن مرا . . ولما أسلم خرج إلى أندية قريش يضربونه ثم يقوم ليضربوه .. وقد عرفنا كيف كان يستخدم عصاه فى مجلس أمير المؤمنين عثمان يضرب بها كعب الأحبار . . ورأينا شدته فى النقد . .

فكيف يكون أبو ذر ضعيفاً ؟

إلا لأن القيادة والإمارة أو مسئولية الحكم ، قضية فنية معقدة ، وفعل الخير فيها لا يتم بمجرد الرغبة فيه . بل بالقدرة عليه .

وثورية قاطع الطريق العربى . . تقف عند حد أخذ حق الحياة أو انتزاع حق الحياة ممن يمنعه . أما تنظيم وضع اجتماعى يكفل حق الحياة للجميع . . فقضية لا يقوى عليها الرافض ولا المنتزع حقه بالقوة .

ورسول الله يحب لأبى ذر ما يحب لنفسه ، أى أن يأتى يوم القيامة نقيا من انحرافات السلطة والمال ، لذا ينصح أباذر ألا يلى الإمارة على اثنين ، ولا يتولى مال اليتيم ، ولكن رسول الله تولى أمر المسلمين جميعا . . وتحمل مسئولية ما لهم . . والفرق هو فى قوله صلى الله عليه وسلم : « إنك لضعيف » .

ورسول الله لا يخشى على مال اليتيم من أمانة أبي ذر . . ولكن أى يتيم يخشى على ماله من وصى يحول ثروته إلا رصاص ونحاس .. من وصى يؤمن أن كل كيس صر على دينار أودرهم (ذهب أوفضة) فهو « مكواة » تكوى بها الجنوب فى النار .

الوصاية على مال اليتيم تعنى ادارته . . حفظه وصيانته واستثماره ، وأبوذر آخر من يصلح لهذه المهمة . . فهو العدو الألد لفكرة الاستثمار:

« لا ينبغى للاغنياء أن يقتنوا مالا .. » ! وهو شعار لم يتحقق قط حتى ولا فى الصين !

« عهد إلى خليلى أن أى مال : ذهب أو فضة أوكى عليه فهو جمر على صاحبه حتى يفرغه فى سبيل الله » .

« المال هو درهم تنفقه على عيالك من حله ، ودرهم تقدمه لآخرتك والثالث يضرك ولا ينفعك .. ياأيها الناس قد قتلكم حرص لاتدركونه أبدا »

هذه هى صورة المجتمع النموذجى ، شرط أن يكون سلوكا عاما ، وإلا تحول الأخيار فيه إلى متسولين . . وانهارت الدولة ، إذا آمن حكامها بفلسفة على بن أبى طالب ، فانفقت كل ما فى الخزينة العامة على الشعب .. وكنسته ورشته ، ثم واجهها طارىء يحتاج إلى المال ، فخذلتها

الرعية ، واكتنزوا المال وحجبوه عن الدولة .

أما وهذا المجتمع المثالى غير ممكن ، فى حدود ما مر على البشرية من نظم ، فإن أبا ذر يجب أن يبقى بعيدا عن السلطة . حتى لا يعرض القيم النبيلة لامتحان عسير . .

وبوصية رسول الله امتنع على أبى ذر أن يتولى السلطة ، ولم نسمع أن أحد عرضها عليه ، لا فى زمن أبى بكر ، ولا فى عهد عمر وعثمان بعده. وهو قد التزم بوصية خليله فما سعى إليها ولا قبلها ، ورفض رفضا قاطعا « أن ينصب له راية » كما دعاه بعضهم . . أى يدعو إلى نفسه . .

فالنبي صلوات الله عليه وسلامه ، قد عرف أبعاد دور أبى ذر . . وعاهده عهد الخليل لخليله ، وأن يقول الحق مهما يكن مرا . . وأن لا يخشى فى الله لومه لائم . . وأن لا يتولى القيادة على اثنين فلا يقترب من السلطة ولا يحمل مسئولية الحكم . . ولا يبقى فى المجتمع إذا مادخل مرحلة الاقتناء والعمران والتطاول فى البنيان .

فمكانه خارج مؤسسات المجتمع الرسمية ، خارج فئاته المالكة .. وهو أيضاً ممنوع من قيادة حركة أو شقّ عصا الطاعة أو الثورة.. يسأله النبي : «كيف أنت إذا كانت عليك أمراء يستأثرون بالفىء؟».

تأمل السؤال ! .

وتأمل أنه يوجه لأبى ذر بالذات ! .

ويرد «أبو ذر» : «إذن والذى بعثك بالحق ، أضرب بسيفى حتى ألحق بك . . .» .

إجابة إسلامية كاملة . . وموقف لا يتردد أبو بكر وعمر وعثمان وعلى فى اتخاذه . .

ولكن أبو ذر !

ماذا يقول رسول الله ؟ . .

«أفلا أدلك على ما هو خير من ذلك ؟ . . اصبر حتى تلقانى !» .

ويتنبأ الرسول مرة أخرى بانه سيختلف مع أمرائه فيطلب «أبو ذر» الاذن من رسول الله بقتالهم . . ولكن الرسول يقول له . . «اسمع وأطع . . ولو لعبد حبشى» .

لذلك لم يستجب للذين دعوه للثورة .. بل كان أكثر الصحابة قانونية فى جهاده . . والتزاما بالعمل فى إطار النظام . .

ولعله من المثير والجدير بالتأمل أن هذا الصحابى الجليل المتهم باليسارية ، والراية التى يتجمع تحتها كل المفسرين اليساريين الآن . . هو وحده ، أو قل إنه أحد المصادر الرئيسية لكل أحاديث طاعة الحكام . .

هو الذى قال : «لا تذلوا السلطان فإن من أذل السلطان فلا توبة له . .

وهو نص لو أخذ بحرفيته لشل كل ثورة ، وأدان كل معارضة أو مقاومة للسلطان !

بينما يقترح عمر أن تقتل الأمة الحاكم المنحرف ! .

ويقول أبو ذر : « والله لو أن عثمان صلبنى على أطول خشبه لسمعت وأطعت وصبرت واحتسبت ، ورأيت أن ذلك خير لى » .

ورفض حتى أن يقاوم الرجل الحكام الذين يسلبونه ماله ! فهو مع الشرعية إلى النهاية . .

كان يلتزم حدود الدور الذى اختاره لنفسه ، واختارته له إرادة الله . . أن يكون صوت الحق المر . . لا تقترب من السلطة ، لا حاكما . . ولا ثائرا . .

كذلك نصحه رسول الله : « إذا بلغ البناء سلعا فاخرج » وأشار بيده إلى جهة الشام . .

أى إذا امتد عمران « المدينة » إلى مسافة ثلاثة أميال فارحل عنها .

وقد رأينا مبلغ الحدة التى اتسمت بها مناقشته مع أبى الدرداء لمجرد أنه رآه يبنى بيتا . فاى اضطراب كان سيثيره أبو ذر وهو يرى البناء يمتد والعمران ينتشر حتى يتخطى المدينة ؟ .

فكم من أصحابه كان سيخاصم ويختصم معهم وهو يرى البيوت تتناثر هنا وهناك . . وهو يرى صحابة رسول الله يبتنون البيوت ، ويقتنون متاع الدنيا . . أليس من الخير لمثل هذا الذى وعد الرسول أن يأتى يوم القيامة كما تركه ، أليس من الخير أن يخرج من مجتمع كان

من المستحيل أن يبقى كما تركه الرسول ! .. فما يقوى على البقاء فيه إلا أحد اثنين:

• من يقبل التغيير ويسأل الله السلامة ..

• أو من يتصدون للمسؤليات ويحملون الناس على الجادة، ويبذلون جهدهم كي يردوا إلى الناس بعض الحق الذى يعرفون أنه يغتصب. كان عمر من هؤلاء، وكان على من هؤلاء، زهدوا وحكموا وأقاموا عدلا ما رأت البشرية مثله، وبقوا وما تغيروا، انتصرت القيم فى سلوكهم، وجاهدوا لنصرها فى أمة تتغير، ومجتمع يتدفق عليه الثراء، ويمتحن — كما قلنا — بالسراء وفتنتها أكبر، كما قال عبد الرحمن ابن عوف، معتذرا للشاب الذى سعى إليه من أطراف الوطن الإسلامى فرأى الصحابى يزرع بيديه ويحول الماء مقبلا على الدنيا كاقباله على الآخرة ..

وخرج أبو ذر من المجتمع، زهد وما تغير .. نأى بنفسه، وحفظ وعد خليله ..

وهذا هو الأصل فى خروجه إلى « الربذه » فليس صحيحا أن عثمان نفاه .. فهو قد خرج إلى الشام بعد وفاة أبى بكر، وبقى هناك، فلما اشتدت الاضطرابات بعد مقتل عمر، وتعددت الآذان المتشوقة لصيحات أبى ذر .. أخرجه معاوية إلى المدينة .. وبعد لقاء مع عثمان .. طلب الإذن بالخروج من المدينة ..

« فتأذن لى فى الخروج .. فإن المدينة ليست لى بدار » ..

واستغرب عثمان أن يكره صحابى سكنى المدينة أو يرفضها داراً . .
فيقول : « أوتستبدل بها إلا شرا منها ؟ ! » .
وفسر أبو ذر رغبته بقوله :
« أمرنى رسول الله أن أخرج منها إذا بلغ البناء سلعا » .
ورد عثمان : فانفذ لما أمرك به . .
ثم رواية عن اعطاء عثمان له « أربعين من الابل ومملوكين » .

ويمكن أن نسقط هذه الإضافة . . ولكن المؤكد أنه قال له : « فلا تبتعد عن المدينة حتى لاترتد أعرابيا » فقدكان رسول الله يقول لأبى ذر إذا ما غلبته حدته : « أما فارقتك أعرابيتك بعد ؟ » .

كانت الاضطرابات تجتاح كل العواصم الإسلامية ، والتغيير العنيف فى حياة الإنسان وقيمهم وأخلاقهم ، يهز كل شىء . . فما كان « لأبى ذر » مادامت السماء تريد أن تتم كلمتها ، وتبقيه فى دور قائل الحق المر ، إلا أن يخرج إلى الربذة . . فى الصحراء . . على بعد ٣ أميال من المدينة .

وليس هذا بالمنفى . . وهو لا يتعذر الوصول إلى المدينة إن أراد الثورة ، بل لعله هناك يستطيع — لو أراد — أن يقيم معسكرا للثائرين والمتمردين يغزو به المدينة . .

ولم تكن عليه حراسة تمنعه من مغادرة الربذة لوأراد ، إلى أى من الامصار التى تضطرم بالفتن والاضطرابات ، والتناقض بين قيم المجتمع الذى بناه الرسول وواقع الحياة الجديدة التى يبنيها من دخلوا حديثا فى

دين الله ، وجاءوا بكل تراثهم الاجتماعى . . كان يستطيع الانتقال إلى أى بلد إسلامى ، بدليل أنه لما كان بالربذة ، زاره أحد أصحابه فوجد عنده امرأة سوداء شعثة . . فقال له ألا تنظر إلى ما تأمرنى به هـــذه السوداء ؟ تأمرنى أن آتى العراق . . فإذا أتيت العراق ، مالوا على بدنياهم . . ألا أن خليلى عهد إلى . . ثم روى حديث جسر جهنم ، ومزالقه ، وخطورة أن يمر المرء عليه يحمل أكداس الذهب والفضة .

فهو كان يملك — إذا أراد — أن يذهب إلى العراق فيلتف حوله الناس بدنياهم ، ولكنه يرفض ذلك التزاما بوعده لرسول الله . وهو يربط بين السلطة واكتناز الذهب والفضة ربطا محكما ، لامفر من الوقوع فى الثانية إذا ما ماقبلت الأولى . . ولعله كان بذلك أكثرفهما لقوانين التطور الاجتماعى فى عصره من الثائرين الذين دعوه لينصب له راية . . .

المهم أن فكرة النفى مستبعدة وواهية الأساس ، وهى من اختراع الذين حشدوا كل الطعون ضد عثمان رضى الله عنه .

هو منفى اختيارى . . يفرضه صاحب القيم على نفسه ، استجابة لمن لاينطق عن الهوى ، فى مرحلة تأبى قوانين الحياة أن تستجيب لأحلام الطاهرين . . .

دخل عليه رجل فلم يجد شيئا فى بيته ، فقال :

— يا أبا ذر أين متاعكم ؟ .

فقال : لنا بيت نوجه إليه صالح متاعنا (يعنى فى الآخرة نؤثث بيتنا الذى هناك بصالح الأعمال) .

فقال الرجل : لابد لك من متاع مادمت هنا . .

قال أبو ذر : صاحب المنزل لايدعنا فيه .

الرجل يرى أنه مادمنا فى هذه الدنيا ، فلابد لنا من وسائل العيش فيها ، ولكن أبا ذر يرى أنه لايملك بيت الدنيا ، وصاحب البيت لايلبث أن يخرجه من دار الفناء هذه إلى دار البقاء والخلود . .

فهو على سفر فى هذه الدنيا . . وقد عرفناه لايتزود فى سفره بأكثر من الماء ، وشتان بين سفر وسفر ، وزاد وزاد ! .

وهو ما كان بالداعية كما عرف الناس الدعاة ، وقد رأيناه ينافر أبا الدرداء على بيت يبنيه ، فيدفع أبا الدرداء إلى رد قاس ما كان يجب أن يقوله . .

وقبل ذلك رأيناه يواجه المرأتين فى الكعبة بقول لايمكن أن يفتح بابا للفهم والايمان . .

بل لقد رفض حتى أن تكون له مدرسة ورفض حتى أن ينشر على الناس العلم الذى عرفه ، فقد شهد له على بن أبى طالب شهادة خطيرة فقال : « وعى أبو ذر علما , عجز فيه ، ثم أوكأ عليه فلم يخرج منه شيئاً . . وكان شحيحا حريصا : شحيحا على دينه ، حريصا على العلم » .

والجدير بالتأمل أن « على بن أبى طالب » رضى الله عنه يستخدم نفس اللفظ المحبب لدى أبى ذر فى الحديث عن الذين : « أوكوا » على الذهب والفضة ! .

«فأبو ذر» العالم لم يقدم علمه للناس . . ومن ثم فلهم العذر أن لم يتبعوه ، فقد علم وعمل بما علم . . التزم بكل ما أوصاه به خليله . . ولكنه «أوكى» أى أغلق على هذا العلم ، فلم يخرج منه شيئا . .

وواضح أنه رضى الله عنه لم يكن معلما ، وقد رأينا كيف أنه دعا غفارا للاسلام ثم لم يؤمهم للصلاة . . .

فهو رجل حالت كل العوامل بينه وبين أن يكون معلما ، أوزعيما سياسيا ، أو قائد حركة ، أو صاحب مدرسة ، بمعنى الإلتزام والتنظيم والترابط . . فهو قاطع طريق فى بداية حياته ــ كما رأينا ــ أى ثائر فردى يكتفى بأن يعيد تقسيم الثروات بأسلوبه الخاص ، وفى كل هجمة يثب فيها ، ولا يمكن أن نسمى ذلك حركة أو موقفا اجتماعيا متكاملا ، يمكن أن يفضى إلى تغيير فى بنية المجتمع القائم . . أو يعيد الطبقات فيه .

ثم هو يذهب فيسلم وحده ، ويعود لقومه فيهديهم الله به للاسلام ، ثم لانسمع له واقعة ، حتى يعود لصحبة رسول الله ، فينصحه ألا يتولى الإمارة ولو على اثنين . . ثم هو الذى يختصه رسول الله بأحاديث الطاعة للسلطان . حتى يصبح رضى الله عنه مصدرا رئيسيا للفقه النظامى الداعى لطاعة ولى الأمر ، والرافض للتغيير بالثورة . . .

وعندما استدعاه عثمان رضى الله عنهما . . بعد شكوى معاوية الذى خشى من دعوته على الأمن فى الجبهة الإسلامية مع الروم ، أو إن شئت على الدولة الإسلامية التى كان يبنيها فى الشام .

فلما دخل على عثمان ، تناجى أبو ذر وعثمان حتى ارتفعت أصواتهما (أى احتدا فى نقاش أخوى حر) ثم انصرف أبو ذر مبتسما .. فقال له الناس : « مالك ولأمير المؤمنين ؟ ! » قال : « سامع .. مطيع .. ولو أمرنى أن آتى صنعاء أو عدن ، ثم استطعت أن أفعل لفعلت » .

وروى من شهد الإجتماع التاريخى بين عثمان أمير المؤمنين وأبى ذر قصة هذا الإجتماع فقال :

« دخلت مع أبى ذر فى رهط من غفار على عثمان بن عفان من الباب الذى لا يدخل عليه منه ، قال وتخوفنا عثمان عليه ، قال فانتهى إليه ، فسلم عليه ، قال ثم ما بدأ بشىء إلا أن قال « أحسبتنى منهم يا أمير المؤمنين ؟ والله ما أنا منهم ، ولا أدركهم (أى احسبتنى من الداعين إلى الفتنة وخلع طاعتك ، والله ما أنا منهم .. ولا أصل لما وصلوا إليه) لو أمرتنى أن آخذ بعرقوتى قتب لأخذت بهما حتى أموت » .

واستأذنه أبو ذر فى الخروج إلى الربذة ، فأذن له عثمان كما رأينا ، بعد أن عرف وصية النبى إليه بالخروج ، قبل وقوع الفتنة ، وفى الرواية أن عثمان عرض عليه هبة من الإبل وغيرها ، وأن أباذر قبل ، وفى رواية أخرى أنه صاح بأعلى صوته رافضا أموال قريش ودنياها ..

وصدق رسول الله : « ما من ذى لهجة أصدق من أبى ذر » .. ولكن الصدق حالة ذاتية ، فالمرء قد لا يكون مصيبا ولكنه صادق

فيما يقول .. صادق فيما يجاهد الناس به . . وصلوات الله على من لا ينطق عن الهوى ، فإنه لم يقل : « من ذى رأى أصدق من أبى ذر » بل قال « لهجة » . . وقد تقول غير الصواب . . ولكنه الصدق ، أى ما تؤمن به . .

وأبو ذر عندما نفى لعثمان أن يكون « منهم » كان صادقاً ، فما حدثته نفسه لحظة واحدة ، أن يثير فتنة ، أو أن يشق عصا الطاعة ، ولو أدرك عثمان يوم حاصره الثائرون لقاتل دون بابه . . غير أنه ما من مؤرخ يستطيع أن يقول أن كلمات أبى ذر لم تساهم فى تحرك هذه الجماعات التى زحفت على المدينة تريد عدل عمر ، فى أمة غير أمة عمر ! . . . تريد من خليفة رسول الله أن يبقى عليها مجتمع الرسول فى مجتمع بعيده إلى حد بعيد عن صحابة رسول الله .

وما من شك فى أن كلماته حجة حاسمة فى يد الذين حركوا الزاحفين إلى المدينة . . الطيبين منهم . . أو أطراف الأخطبوط الصهيونى العالمى الذى بدأ يتحرك منذ أن وصل رسول الله إلى المدينة ..

ولكن أبا ذر كان صادقاً ، فما كان منهم ، ولا كان يسعى سعيهم ، ولا ظن أن الأمر يصل إلى ما وصل إليه ..

ولا يمكن لمنتسب إلى التفكير العلمى الحديث ، أن يضع أبا ذر إماماً لما يسمى باليسار ، أو معبراً تمام التعبير عن هذا اليسار ، ولا أن

يخلع عليه صفة أكثر المسلمين اشتراكية . .

فما كان أبو ذر يلتزم إلا بقضية واحـــدة هى انفاق الأموال ، انتقال الثروة من يد الأغنياء إلى الفقراء ، رفض الثروات ، وقيام مجتمع ينقسم بين أغنياء يحبسون الثروات ، ويستأثرون بها ، وفقراء لا يجدون ..

رفض ادعاء جانب من المجتمع أحقيته فى هذه الثروة ، فهى مال المسلمين جميعاً لأنها من فضل ربهم جميعاً . .

أو قل إنه كان يثير قضية على جانب كبير من التعقيد والأهمية والخطورة : قضية تراكم الثروات ، فهى جوهر المأساة فى التاريخ الإنسانى . . ومفتاح الاستغلال ، وأداة انقسام المجتمع إلى طبقات ، ولكنها أيضاً ، الطريق الوحيد لقيام الحضارة .

فأبو ذر كان ضد تراكم الثروات ، يكره الذهب والفضة لأنهما أداة الاكتناز ، وبالتالى تراكم الثروات ، ولكنه فى قضايا إجتماعية أخرى ، بغيرها لا تكتمل يسارية ولا تستقيم اشتراكية . . لا نجده فى مثل موقفه من قضية الثروات . فأبو ذر هو الذى يختلف مع ابن عمه فيقول له « يابن الأمة » . . يعيره أنه ابن جارية . . رقيق . . ولوكان أبوه حراً ، بل وعم أبى ذر نفسه ! !

ويعاتبه خليله : « أما ذهبت عنك أعرابيتك » . .

ونجد عتاب الرسول هنا رقيقا . . لأن أبا ذر يعـــير ابن عمه ،

وهو ندٌ له ، مهما تكن الوضعية القانونية لأمه ، ولأن وقوع الإنسان فى حالة الرق ظرف عارض ، ومن ثم فإن الاحساس بالتعالى على الرقيق أو ابن الرقيق ، يستنكره نبى المساواة المطلقة ورسول الله إلى خلقه بالقيم الإنسانية فى قمة تألقها . . إلا أنه لا ينبعث من عنصرية .. أصيلة ، ولا يخشى أن يشكل قاعدة لتفرقة عنصرية . . فالرق حالة عارضة .

ولكن هذا العتاب الرقيق أو اللوم الرفيق من الخليل لخليله ؟ « أما فارقتك أعرابيتك » يتحول إلى ثورة غاضبة ، وغضب ثائر يفزع له أبو ذر ويرتعد ، فيدفعه إلى موقف النقيض فى أقصى صوره . .

يغضب الرسول على خليله أبى ذر غضبة تصل ذروة ما يعرف عن رسول الله فى غضبه عندما يلمح تفرقة عنصرية ، عندما يختلف أبو ذر مع بلال ، فيقول له أبو ذر : « يا ابن السوداء ».

هنا إحساس بالتمييز ، لمجرد الأصل ، لصفة لا دخل للانسان فى اكتسابها ، أو فقدانها ، ولا أمل فى تخطيها ، هنا حاجز ليس من صنع البشر ولا بوسعهم أن يزيلوه ، فليس من حق بعضهم أن يجلس فوق سور اللون محتقرا من يتصور أنهم أسفل السور .. لأن لونهم يخالف لونه . .

هنا يصيح الرسول: « طف الصاع طف الصاع » أى تجاوز الأمر كل حد ، ولم يعد يمكن السكوت عليه ، ثم يعلن فى مواجهة أبى ذر « ليس لابن البيضاء فضل على ابن السوداء ».

ويدرك أبو ذر مدى غضب خليله ، ويدرك أنه فى هذه المرة ليس معاتبا ، ولا منتقدا ، بل رافضا زاجرا معترضا على موقف يتنافى مع أصول الفهم الاسلامى . .

وسرعان ما ينام قاطع الطريق على الأرض ، ويضع خده على الرمال طالبا من بلال أن يطأ خده بنعله ، مكفرا عن جريمته بالحديث عن التفرقة العنصرية .

صورة تهز قلب كل حر فى أمريكا اليوم .

صورة تتألق فيها النبوة إلى ذرى لا ينالها بشر .

صورة تسمو فيها المبادىء الاسلامية الأصيلة فوق كل التقسيمات والخانات ، فلا يمين ولا يسار ؟ وما حاجى هذا الدين أحد إلا غلبه .

أين أبو ذر من عمر الذى يقول عن بلال : « أبو بكر سيدنا وأعتق سيدنا » أى بلالا .. وعمر فى قومه وقبيلته أعز من أبى ذر ، وعمر بمكانته فى الاسلام أعز من أبى ذر ، فقد أعز الله الاسلام بعمر ، وشهد من المشاهد مالم يشهد أبو ذر . . وهو وزير النبى وخليفته . .

بل أين أبو ذر فى جرأته وحدته وقسوته ، وهو يعير بلال بأنه ابن السوداء ، فإذا جبهه وحى النبوه خر فيما يشبه السجود ـ أستغفر الله ـ عند نعل بلال ! .

إنهم جميعا أصحاب رسول الله وتلاميذه.

وتبقى صيحته خالدة على مر الزمان وعبر كل المكان .

فما أحوج أمريكا اليوم إلى صوت يدوى فوق تمثال الحرية .

طف الصاع . . طف الصاع . . . « ليس لابن البيضاء فضل على ابن السوداء » ولا شك أن الغضبة النبوية قد علمت أبا ذر ألا يفرق بين الناس بسبب لونهم ، بل نجده قد اتخذ على عادته موقفه الاستشهادى ، عند الطرف الأقصى ، فيتزوج أمة سوداء ! ولكن مع التزامه ، بل ومغالاته فى احترام أبناء السوداء نجده يمارس ذلك باحساس لايفارقه عن مكانتهم !

ولا شك أن هناك أسبابا عديدة ، تاريخية . ونفسية وبيولوجية ، وبعضهم يضيف إليها الآن جنسية خلقت هذا الاحساس بالتفرقة العنصرية ، وتفضيل اللون الابيض على الأسود .

وتتجلى عظمة الإسلام فى أنه رفض كل هذه الأسباب، ووضع الأساس الموضوعى للايمان بالمساواة ، ثم طبق هذه المساواة فى أكمل صورها

كذلك استطاعت تعاليمه أن تفرض هذه المساواة حتى على الذين لم يستطيعوا أن يقتلعوا الاحساس بهذا التفوق . . بل كان إحساسهم هذا وإدراكهم أنه يتناقض مع تعاليم الاسلام دافعا لهم إلى المغالاة فى احترام الجنس الاسود . .

فأبو ذر ـ كما رأينا ـ يتزوج سحماء (سوداء) ويفسر ذلك بقوله « أتزوج من تضعنى أحب إلى ممن ترفعنى »

فهو يرى أن السحماء أى السوداء تضع الرجل . . . وموقفه سليم لاعنصرية فيه من ناحية السلوك الاجتماعى ، بل هو يفرض على نفسه

---

(١) من العملية الجنسية ، و قد البيض على مايشاع خطأ عن تفوق السود .

مالا يفرضه أى مؤمن بالمساواة بين الأجناس ، إذ يتزوج امرأة سوداء. ولكنه رغم هذا كله ، مقتنع بأنها زوجة تضعه ولا ترفعه ..

وهو يدعو العبد إلى التقدم للصلاة قائلا : قد أمرت أن أسمع وأطيع ولو لعبد حبشى . . فأنت عبد حبشى » وفى رواية « ولو لعبد أجدع ، فأنت عبد ولست بأجدع » ! .

هنا يتفوق الإسلام على أبى ذر ، فالإسلام أجاز إمامة العبد الأسود، والكنيسة الغربية لم يصل إليها كردينال أسود إلا فى النصف الثانى من القرن العشرين ، وبعد استقلال افريقيا ، وبهدف تضليل الافريقيين لاهدايتهم .

بينما كان أول قائد لجيش الدولة الإسلامية ضد العدو الخارجى .. أسامة بن زيد . . أسود أفطس . . فأبو ذر لم يمثل اليسار ، ولا كان أكثر الصحابة اشتراكية إن صحت التسمية .. وما كان بالداعية ، وإن ألهبت كلماته حماسة المتعطشين لتوزيع الثروات، وأقضت مضاجع الأغنياء حتى أنه لما وصل إلى المدينة .. «كثر الناس على كأنهم لم يرونى من قبل» .

ولخص الطبرى تأثيره الاجتماعى فقال « إن أبا ذر جعل يقول : يامعشر الأغنياء واسوا الفقراء . . بشر الذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها فى سبيل الله بمكاو من نار تكوى بها جباههم وجنوبهم وظهورهم . فما زال حتى ولع الفقراء بمثل ذلك وأوجبوه على الأغنياء، وحتى شكا الأغنياء مايلقون من الناس » .

ولكن كلما وقف يعظ انفض الناس من حوله . . ربما خوفا من

جواسيس معاوية . . وربما لأن الأمر كما قال أبو ذر « مازال بى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر حتى لم يبق لى قول الحق صديقا » ، أو كما أجاب سائلا « يا أباذر مالك إذا جلست إلى قوم تركوك ؟ قال : إنى انهاهم عن كنز المال .

فحتى الثائرون فى عهده ما كانوا ليرفضوا كنز المال . . بل كانوا يريدون جانبا أكبر عند توزيع الثروات ، كما فعل الزنج بعد أبى ذر بأربعة قرون ، قلبوا المجتمع فاستعبدوا البيض !

فما كان الفقراء الثائرون فى عهد أبى ذر يريدون إلا أن يحتلوا مواقع الأغنياء . . وما كان بوسعهم أن يتصوروا المجتمع إلا على هذا النحو ، فى لحظة من التاريخ ما كان يمكن أن تقوم حضارة إلا عبر انقسام المجتمع إلا أغنياء وغير أغنياء . .

وعندما اختلف أبو ذر ومعاوية فى المحاورة المشهورة :

يسأل أبو ذر معاوية : مايدعوك إلى أن تسمى مال المسلمين مال الله؟

يرد معاوية رجل الدولة ! « يرحمك الله يا أبا ذر ! ألسنا عباد الله والمال ماله ، والخلق خلقه ، والأمر أمره ؟ » .

فيرد « أبو ذر » فى لهجته الحاسمة التى لاتطيق جدل المناطقة ، ولاتعرف المبارزة الرشيقة بالألفاظ ــ « فلا تقله » .

ويرد معاوية بدبلوماسيته وذكائه العجيب . .

« فإنى لا أقول أنه ليس لله ، ولكن سأقول : مال المسلمين » . .

واضح أن المعنى المباشر عند أبى ذر « مال المسلمين . . يأخـذه المسلمون » .

ولكن يصعب أن نقرر أى القولين « مال المسلمين » أو «مال الله» ليشكل قاعدة اشتراكية أوسع .

أليس القول بأن المال مال الله ينفى حق أى فرد أو جماعة فى أن تستأثر به أو أن تتولى حق تقسيمه ؟ .

بينما القول بأن المال مال المسلمين يعنى أن من حق أمير المسلمين أن يتولى تصريفه ؟ .

ولكن يرد على ذلك أن ولاية أمير المؤمنين على المال تكون هنا نيابة عن المسلمين ، المالك الأصلى للمال . فهو باسمهم ولحسابهم يتصرف فى المال . وأخطر من ذلك أن القول بأن المال مال الله قد يخلق الأساس لمن يقول أنه يتصرف ـ نيابة عن الله ـ فى ماله .

هذه كلها قياسات تدفع إليها لجاجة المنطق . . ولكن عمر أسقط قدسية الملكية انطلاقا من أن الله هو المالك .. بينما خشى أبو ذر أن تكون نسبة المال إلى الله مدخلا للاستئثار .. ولو أنه لم يشرح ولم يجادل.

فالذين يستأثرون بالفىء (ثروات الأمة الإسلامية) قد وجدوا فى الإسلام فى مختلف العصور ، والذين يكنزون الذهب والفضة لم يخل منهم مجتمع ولا قرن فى التاريخ الإسلامى .

وليس أبو ذر وحده الذى دافع عن عدالة التوزيع ، ولا كان أكثر المطالبين وضوحا .

فهذه القضية كانت تشغل بال الصدر الأول من المسلمين بلا استثناء، وكان يقلقهم أو قل يروعهم رؤية مجتمع ينقسم فيه الناس إلى أغنياء وفقراء، وأكثر مايروعهم أنه يقوم باسم الإسلام، وبسيوف الذين أرادوا أن تمتلىء الدنيا عدلا .. وفى ظل تعاليم الإسلام. التى ترفض التفرقة، وتأبى اكتناز الثروات.

وقد حاول كبار الصحابة جهدهم أن يوقفوا هذا التحول بسلوكهم فيما يملكون .. وبموقفهم من الأغنياء ..

يقول على «إن الله تعالى فرض على الأغنياء فى أموالهم بقدر مايكفى فقراءهم، فإن جاعوا أو عروا أوجهدوا فبمنع الأغنياء . . وحق على الله تعالى أن يحاسبهم يوم القيامة ويعذبهم عليه».

أى أن سبب الفقر، بل كل المظالم الاجتماعية هم الأغنياء.

وعندما مات عبد الرحمن بن عوف، ورأوا ضخامة تركته، تساءل عثمان بن عفان «عن صاحب هذا المال، ولوأنه تصدق وأعطى وقام على ماله كخير ما يقوم المسلم . . ؟ !» فرد كعب، أنه «يرجو له خيرا» ..

فعثمان يتساءل عن مصير عبد الرحمن بن عوف أحد العشرة المشهود لهم بالجنة. ويثير شكه وقلقه ضخامة الثروة فى حد ذاته، ويجد أنه حتى لوقام صاحب المال عليه كخير مايقوم المسلم فان ذلك لاينفى التساؤل والقلق والشك.

وكعب رغم أصله اليهودى ، لايقطع ولايجزم بل (يرجـــو) له خيرا ..

وسؤال عثمان واحتمالات كعب ، تحمل كلها معنى الإتهام للمـال والشك فى مصير جامعه .. وتنبع من كون المال فى ديننا متهم.. وتكدس الثروات بقلق الضمير الإسلامى ، مهما تكن مصادره ومصارفه .

ولـكن أبا ذر يرفع عصاه ويعلن « وما يدريك يا ابن اليهودية أنه صاحب هذا المال يود يوم القيامة لو كان ماله عقارب تلسع قلبه ! »

* * *

وعمر أراد أن يلحق أوائل المسلمين بأواخرهم ، أى يقسم دخل الأمة بالتساوى . . (فليس أحد بأحق من أحد فى هذا المـال) وقرر أن يأخذ فضول مال الأغنياء فيردها على الفقراء .

ومعنى هذا القول أنه كان ينوى أن يطبق لأول وآخر مرة فى التاريخ شعار (لـكل حسب حاجته) .

لأن الفضل مازاد عن الحاجة . . ففى الحديث عن رسول الله « من كان له فضل ظهر فليعد به على من لاظهر له ، ومن كان له فضل زاد فليعد به على من لازاد له . فذكر من أصناف المال ماذكر حتى رأينا أنه لاحق لأحد منا فى فضل .

ربما لو بقى هؤلاء الرجال ، أصحاب رسول الله ، لاكتشفوا لنا طريقا لم تعرفه البشرية حتى اليوم ، طريقاً تترا كم فيه الثروات وتستثمر وتنمو ، ثم تقسم بالعدل فلا يستأثر بها الأقوياء .

طريقا يحقق الرفاهية للمجتمع والمساواة لأفراده . ربما لو عاش صحابة الرسول ..

ولكن ما كان للبشر أن يخلدوا فى الأرض .. وقد مات صحابة الرسول وجاءت رعية لاتريد الغنى فحسب ، بل وترضى بالفقر وتقبله كأنه العدل ومثل هذه الرعية ما كانت لتسمع صيحة أبي ذر ..

فهذا لصوت الصاروخ فى الدولة الإسلامية .. ما اتبعه أحد ولن يتبعه أحد طالما ظلت الدنيا على هذا النظام الذى اصطنعه الإنسان ...

ولكن ...

ما أوحش الدنيا من غير صوت يصيح .

والذين يكنزون الذهب والفضة ولاينفقونها فى سبيل الله فبشرهم بعذاب أليم) ..

وما أبشع العلاقات الإنسانية بغير صرخاته . . تنبه الغافل وتوقظ الضمائر ، وتشحذ ثورة الفقراء ، وتؤرق ليل الأغنياء القساة الظالمين ..

ما أوحش الدنيا بغير قائل للحق المر .. ومستمع له .

تم الكتاب بحمد الله

فهرس الكتاب

تم بحمد الله طبع هذا الكتاب

في ١٥ من شعبان ١٣٨٨ هجرية

الموافق ٦ من نوفمبر ١٩٦٨ ميلادية

صدر للمؤلف

مصريون لا طوائف	١٩٥٠	نقد
الجبهة الشعبية	١٩٥١	»
قانون الأحزاب	١٩٥٢	»
روسى وأمريكى فى اليمن	١٩٥٧	يطلب من مكتبة عمار
شرف المهنة	١٩٦٠	يطلب من الدار القومية ومكتبة عمار بالقاهرة
الغزو الفكرى الطبعة الأولى	١٩٦٤	نقد
» » الطبعة الثانية	١٩٦٦	»
» » الطبعة الثالثة	١٩٦٨	مكتبة الأمل بالكويت
الماركسية والغزو الفكرى		
» » الطبعة الأولى	١٩٦٥	نقد
» » الطبعة الثانية	١٩٦٦	الدار القومية
دراسة فى فكر منحل الطبعة الأولى	١٩٦٧	مكتبة الأمل بالكويت
دراسة فى فكر منحل الطبعة الثانية	١٩٦٨	
القومية والغزو والفكرى	١٩٦٧	مكتبة الأمل بالكويت
أخطر من النكسة	١٩٦٨	» » »
الطريق إلى مجتمع عصرى	١٩٦٨	» » »
الحق المر	١٩٦٨	مكتبة عمار بالقاهرة

جميع المؤلفات تطلب

من : مكتبة الأمل ـ السالمية ـ الـكويت

مكتبة عمار ١٣ ـ شارع الجمهورية بالقاهرة

أمام مسرح الجمهورية

دار النصر للطباعة

احمد حمدى احمد شعبان

١٢ شارع نعمة الله بالدرب الاحمر ـ القاهرة